

www.kotobarabia.com

يوم الإسلام

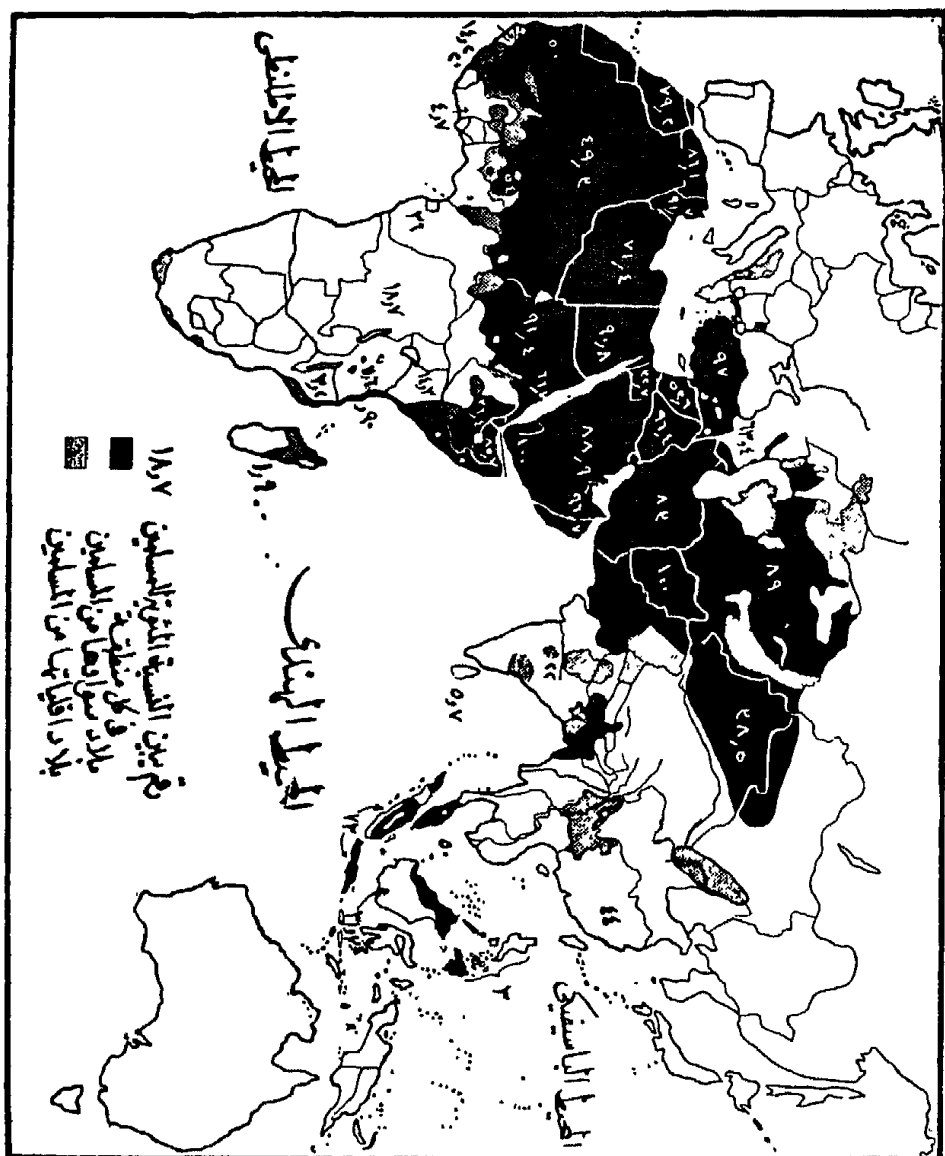
أحمد أمين



www.kotobarabia.com



يوم الإسلام



مقدمة كتاب يوم الإسلام

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .
كان في نيتي أن أسير في سلسلة فجر الإسلام وضحاها وظهره ، وكان
تقديرى أن يكون ظهر الإسلام حول خمسة أجزاء ، أى أربعة على ما ظهر
منه إلى اليوم ، ثم أسير فيه عصرًا فعصرًا إلى اليوم . ولكن شاء القدر أن
يحول بيني وبين تلك النية ، فقد أصبت في نظرى بما جعل الأطباء
يحرمون على كثرة القراءة وخصوصاً في الليل ، والاستعانة بالغير لا تكفى .
لأنى كنت أستطيع أن أتصفح الكتاب الكبير في ساعات ، فأقف منه على
ما يلزمنى وما لا يلزمنى . أما قراءة الغير فلا تجزى هذا الأجزاء . لذلك
وقفت عن العمل في تلك السلسلة ، وجعلت أولف كتباً ، إما أن تكون
قد ألفت من قبل ولا تحتاج إلا إلى صقل وترتيب ، وإما مبنية على
مطالعات سابقة ، مما ادخر في الذهن على توالى الأيام .

من هذا الأخير هذا الكتاب . أردت فيه أن أبين أصول الإسلام وما
حدث له من أحداث ، أفادته أحياناً ، وأضرته أحياناً . وأبين فيه كيف
كان يعامل غيره من أهل الأديان أيام عزه وسطوته . وكيف يعامله غيره
أيام ضعفه ومحتته . فكان من ذلك هذا الكتاب . اعتمدت فيه أكثر

ما يكون على معلوماتي السابقة ، وقليلًا منه على قراءاتي الحاضرة . وترددت في تسميته ، هل أسميه ، الإسلام ماضيه وحاضره ، أو أسميه الجزء الثاني من فجر الإسلام ؟ ولكن منعني من هذه التسمية الأخيرة أن فجر الإسلام اقتصر على الحياة العقلية للمسلمين في العهد الأول ، وهذا الكتاب يشتمل على عهده كله إلى اليوم .

وأخيراً اقترح على أن أسميه اسمًا يتناسب مع فجر الإسلام وضحاها ، ففكرت طويلاً ، ثم سميت ، « يوم الإسلام » لاشتماله على الإسلام أصوله وعوارضه في عصوره المختلفة إلى اليوم . وأهم غرض منه شيثان . الأول : أن نتبين منه الإسلام في جوهره وأصوله ، وكيف كان ، والثاني أن كثيراً من زعماء المسلمين اتعبوا أنفسهم في بيان أسباب ضعف المسلمين فرأيت أن خير وسيلة لمعرفة أسباب هذا الضعف الرجوع إلى التاريخ . فهو الذي يبين لنا ما حدث مما سبب ضعفه ، وبذلك نضع أيدينا على الأسباب الحقيقية . حتى يمكن من يريد الإصلاح أن يعرف كيف يصلح . والله المسئول أن ينفع به كما نفع بسابقه .

أحمد أمين

القاهرة في ٤ فبراير سنة ١٩٥٢

كان مرور نحو ٥٧٠ سنة على المسيح كافياً لفساد العقيدة النصرانية ، كما حدث للإسلام فيما بعد ، وكما حدث للديانة الزرادشتية والبوذية فيما قبل . ذلك أن عقيدة الألوهية المجردة عن المادة والأجسام عقيدة صعبة المنال لا يدركها إلا خاصة الخاصة ، وإن أدركوها فسرعان ما ينسونها ويميلون إلى الوثنية المألوفة الموروثة . لهذا أفسد العرب دين أبيهم إبراهيم وملأوا الكعبة بالأصنام . وأفسد اليهود دين موسى فاتخذوا عجلاً جسداً له خوار إلهاً لهم وقالوا لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة وهكذا . فالألوهية المجردة والاستمرار على اعتقادها شاقة عسيرة . وقيل « إن الإنسان ميل دائماً إلى التجسيد » لهذا فسد الدين في كل أمة من الأمم ، واحتاجت إلى نبي جديد .

فإذا نظرنا إلى مصر رأينا الديانة النصرانية فيها كانت قد تعفنت تحت سلطة الدولة الرومانية قال بعضهم « لقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه إلا الفتح العربي ، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في هذا الزمن ، وكان أهل مصر يقتتلون بفعل تلك الاختلافات ، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية وأنهمكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها الروم وتنتظر ساعة تحررها من براثن القراصنة الظالمين » .

ويقول بتلر في كتابه « فتح العرب لمصر » « فالحق أن أمور الدين في القرن السابع كانت في مصر أكبر خطراً عند الناس من أمور السياسة . فلم

تكن أمور الحكم هي التي قامت عليها الأحزاب ، واختلف بعضهم عن بعض فيها ، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانة ، ولم يكن نظر الناس إلى الدين على أنه المعين الذي يستمد منه الناس ما يعينهم على العمل ، بل كان الدين في نظرهم هو الاعتقاد المجرد في أصول معينة . وكان الروم يحبون على النفوس جزية وضرائب أخرى كثيرة العدد . ومما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة وكانت تجرى بين الناس على غير عدل » ويقول آخر « لم تكن المسيحية في يوم من الأيام من التفصيل ومعالجة الإنسان بحيث تقوم عليه حضارة أو تسير في ضوئه دولة ولكن كان فيها أثارة من تعاليم المسيح وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط فجاء « بولس » فطمس نورها وطعمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها والوثنية التي نشأ عليها ، وقضى قسطنطين على البقية الباقية حتى أصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية واضمحلت في جنب الرهبانية التعاليم المسيحية وعادت أليافاً جافة من معتقدات لا تغذى الروح ولا تمد العقل ولا تشعل العاطفة ولا تحل معضلات الحياة ولا تنير السبيل ، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية وأسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية حتى فاقوا في ذلك الوثنيين . »

ولم تكن فارس على عقيدتها الزرادشتية والبوذية بأحسن حالا ، فكان الملوك يتزوجون بناتهم وأخواتهم حتى يزدجرد الثاني جنى على بنته ثم قتلها وبهرام جوين كان متزوجاً بأخته وكانت فارس مسرحاً لمذهب ماني الزاهد المتنسك ، ومزدك الإياحي المتهتك .

وكذلك كان الشأن في الهند فكانوا يؤمنون بتفاوت الطبقات ، فبيوت أرسقراطية عالية يراها الناس فوق مستواهم ، وبيوت دون ذلك ، ومن التصق بحرفة لم يبح له أن يخرج عنها ومن التصق بنسب لزمه . وهكذا شان الهنود والصينيين يغلب عليهم عناصر ثلاثة وهى الوثنية المتطرفة ، والشهوة الجنسية الجامحة ، ونظام الطبقات . والعرب فى الجاهلية غرقوا فى عبادة الأوثان . وكان الدين — كما يدل عليه شعرهم — شيئاً سطحياً غير متغلغل فى أعماق صدورهم فقدسوا الحجارة والغدران . ومن آثار ذلك بئر زمزم والحجر الأسود ، وكانوا لا يمجدون آلهتهم كما تدل عليه حادثة امرئ القيس إذ مر على مكان يقال له ذو الخلصة وكان به صنم فاستقسم عنه بقداحه وهى ثلاثة : الأمر والنهى والمتربص وأجالها فخرج الناهى ثم أجالها فخرج الناهى أيضاً ثم أجالها فخرج الناهى فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم . واعتقدوا أن فى الأشياء المادية من جبل وريح أرواحاً تعبد كما تعبد الأصنام فعبدوا الكواكب من شمس وقر . واشتهر من أوثانهم العزى واللات ومناة وكان اسم عبد العزى كثير الشيوع بينهم ، ومع ذلك كانوا يعتقدون فى هذه الأحجار أنها دون الله . وأنهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى . وامتلأ بالأصنام حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالإسلام فأمر بكسرها .

جاء الإسلام وعماده شيثان : القرآن والسنة ؛ فأما القرآن فأتى بتعاليم مخالفة لتعاليم الجاهلية . والقرآن ينقسم قسمين مكى ومدنى وأساليبه متنوعة بين شدة ولين وترغيب وترهيب ووعد ووعيد مسائرة للسيرة النبوية وموافقة لحال المسلمين والمشركين فى أوقات نزول الآيات . والآيات المكية نراها تتجه

اتجهاً قوياً نحو الدعوة إلى عبادة إله واحد هو رب العالمين ويده ملكوت كل شيء ونحو الدعوة إلى الإيمان بيوم الحساب ومكافأة الخير بالخير والشر بالشر ، والاستدلال على الله بآثاره في العالم ، وتقرير أن الأصنام عاجزة كل العجز عن أن تعمل عملاً في الكون ، فهي لا تستطيع أن تجلب الخير لنفسها فكيف لغيرها . والآيات الأولى آيات قصيرة لها رنين قوى تدعو إلى الله وتقسم بالليل والنهار والسماء والأرض والشمس والأماكن المقدسة والوالد وما ولد والنفس وما سواها . إشعاراً بعظمة الله خالقها

وقد سالم المشركون محمداً أول الأمر ثم ناصبوه العداء ورموه بالكذب والجنون ، فنزلت آيات القرآن شديدة على الكافرين متوعدة أشد الوعيد مصورة لكبريائهم صورة هزؤ وسخرية وهو إلى ذلك يوضح في قوة ما سبناه الكافرون من عذاب أليم وما سيناله المؤمنون من نعيم مقيم . ولبت القرآن في العهد المكي يحاج المخالفين ويقص العبرة من سيرة الأولين بعد المدة الأولى من العهد المكي ، في فواصل أطول وأسلوب أهدأ . وفي هذا العهد نزلت قصة الإسراء وكثير من قصص الأنبياء ، ويشير القرآن في أكثر من موضع إلى أن إبراهيم أبو العرب ومنبع الإسلام ومصدر شعائر الحج ، ولكن في هذا العهد لم يجادل القرآن اليهود ولا النصارى إلا قليلاً لقلة اليهود الذين كانوا بمكة ومسألة النصارى .

فلما هاجر النبي إلى المدينة كان الشأن فيها غير الشأن في مكة ، فأكثر سكان المدينة من — الأوس والخزرج — فشا فيهم الإسلام وآمنوا به إيماناً صادقاً ، على العكس من أهل مكة الذين لم يسلم منهم إلا القليل . واسراح

الأنصار — من الأوس والخزرج — مما كان بينهم من حروب ومحن ، واستراح المهاجرون المسلمون مما كان يؤذيهم به صناديد قريش في دارهم وكان المدنيون أكثر ثقافة بالكتب المنزلة لما كان بينهم من يهود ، وكان هذا من الاسباب التي دعته أن يتقبلوا دعوة النبي ويفهموا النبوة ومراميها أكثر مما تفهم قريش . وكان بجانب هؤلاء المسلمين من الأنصار والمهاجرين قبائل يهودية لهم مزايا العرب في الحروب والقتال ولكنهم كشأن اليهود عامة شديدو المحافظة على تقاليدهم وأوضاعهم وشعائهم فأبوا أن يتركوا شيئاً من ذلك وأبوا إلا الإصرار على دينهم وشعائهم وناصبوا النبي العداء . وأخذ الخلاف يشتد بينهم وبين المسلمين كلما تقدم الزمان وحدثت الأحداث وأخذت نعمة القرآن في خصومهم تشتد بجانب ذلك .

وبجانب هؤلاء وهؤلاء كان قوم من الخزرج حقدوا على الإسلام ، إما لأن الإسلام أقدمهم رياستهم الدنيوية وإما لأنهم أتباع هؤلاء اليهود أو نحو ذلك . ولكن التيار العام تيار المسلمين جرفهم معه فتظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر فسموا بالمناققين وحمل عليهم القرآن حملة شديدة كملت على اليهود . وكان يرد دسائسهم ومكرهم وينقض مؤامراتهم . وفي هذا العهد كان القرآن يخاطب المسلمين « يا أيها الذين آمنوا » بينما كان الخطاب في عهد مكة « يا أيها الناس » . ولما كان القتال بين المسلمين في المدينة والمشركين في مكة وبين المسلمين في المدينة واليهود فيها ، كانت الآيات المدنية مبينة لقوانين الجهاد ومسجلة لأحداث الغزو ، فأيات في غزوة بدر وآيات في غزوة أحد وآيات في غزوة الأحزاب . . . الخ . وهي كلها شديدة شدة الحرب حتى إذا تم فتح مكة نزلت سورة « إذا جاء نصر الله

والفتح » . ويغلب على الأسلوب في الآيات المدنية الطول مع التزام الفواصل ومع الهدوء الذى ينسجم مع التشريع . وليست الآيات وحدها هى التى تطول بل تطول السور كذلك ولذلك سميت بعض السور السبع الطوال .
وفى القرآن سور أدبية رائعة من جمال تشبيه وجمال أمثال وجمال استعارة وجمال حجاج .

وأما السنة فهى أهم مصدر بعد القرآن . وقد تجرأ قوم فأنكروها ، واكتفوا بالعمل بالقرآن وحده . وهذا خطأ فى السنة تفسير كثير من النبى صلى الله عليه وسلم للقرآن ، فقد كان يجيب على أسئلة الصحابة فيما غمض عليهم ويبين لهم ما اشتبه عليهم وفيها تاريخ الإسلام وتاريخ أعمال الصحابة وطريقة تنفيذهم لأحكام القرآن وكيفية عملهم بها ، فمن الحديث نعلم كيف عمل الرسول وأصحابه بالقرآن وكيف نجحوا فى تأسيس حكومة مدنية على مبادئ الإسلام وفى الحديث أخبار الرسول وأصحابه ووقائعهم إلى غير ذلك .
وقسم من الأحاديث أخلاقى تهذيبى ، يحتوى على الحكم والآداب والنصائح مثل مدح الصدق والعدل والإحسان وذم الكذب والظلم والفسق والفساد .
وقسم يشتمل على أصول العقائد المذكورة فى القرآن مثل التوحيد والصفات الإلهية والرسالة والبعث وجزاء الأعمال .

وقسم آخر يشتمل على أحكام ، وقد اشترطوا فى أحاديث الأحكام صحتها . وهناك فرق بين السنة والحديث فالحديث كل واقعة نسبت للنبي صلى الله عليه وسلم ولو كان فعلها مرة واحدة ولو رواها عنه شخص واحد ، وأما السنة

أصحابه والتابعون . وتدوين كتب الحديث بمنزلة تسجيل التاريخ لهذا العمل المتواتر . والسنة مشتقة من معنى العادة والطريقة المستمرة كما قال الله تعالى (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) وقوله (فقد مضت سنة الأولين) وقوله (ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) . والمسلمون اقتبسوا هذه الكلمة من القرآن واستعملوها للدلالة على سنة النبي وأصحابه . وقد جرت العادة أن يرسل رسول الله من يعلم أهل البلاد القرآن والسنة . وكان الصحابة يكتبون هذه الأحاديث ويحفظونها لأنهم كانوا يهتمون بكل ما يقوله النبي ويفعله . ومن الصحابة من كان يكتب كتابا الحديث كابن عمر وأبي هريرة وبعضهم يقل إما لقلة حفظهم أو لاشتغالهم بأعمالهم . وروى عن أبي هريرة أنه قال : ما من أصحاب النبي أحد أكثر حديثا مني إلا ما كان من عبد الله بن عمر ، فإنه كان يكتب ولا أكتب . وكان الرسول ينهى عن كتابة الأحاديث أحيانا خشية أن يخلط الحديث بالقرآن ، والدين بعد غض جديد . وكثرت كتابة الحديث بعد وفاة رسول الله لأن الذاكرة وحدها لا تكفي للمحافظة على الحديث . وقد بدى جمع الحديث في حياة الرسول ثم كثر ذلك بعده خصوصا من أمثال أبي هريرة ، فقد كان قوى الذاكرة حاضر البديهة ، يكاد يلازم المسجد ، والسيدة عائشة فإنها كانت من حفظة الحديث عن زوجها . وكان لها ذاكرة واعية ، معنية بالتدقيق ، لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه . وكعب الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس .

وكان المسلمون يرجعون في مسائلهم إلى القرآن والحديث وبذلك ظهرت

أهمية أحاديث الرسول . فقد كان يسأل الصحابة عند اجتماعهم هل عند أحد حديث في هذه المسألة ، وكذلك سار التابعون . حتى كان الخلفاء أنفسهم يهتمون بجمع الحديث والحث على تدوينه . فقد أمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر بن حزم بقوله « انظر ما كان من حديث رسول الله فاكته ، فإني خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء . ولا تقبل إلا حديث النبي ، ولتفشتوا العلم ، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرّاً » . ثم بدى في أواسط القرن الثاني من الهجرة في وضع مجاميع للسنة ، وفي قصد الطلاب إلى تعلم الحديث ، كما فعل الإمام مالك في المدينة ، وعبد الله ابن وهب في مصر ، وسفيان الثوري في الكوفة ، وعبد الله بن مبارك بنجراسان .

وفي هذا الحين ألف الموطأ وأمثاله . وفي القرن الثالث الهجري تم جمع الحديث . وقد غنى الجامعون بالسند . فلم يذكروا حديثاً إلا بسنده . وقد كثر الحديث في ذلك العهد حتى إن مسند أحمد بن حنبل يحتوى على نحو ثلاثين ألف حديث . وقد توفي سنة ٢٤١ هـ . وكذلك فعل البخاري ومسلم . وقد عرفت كتبهما بالصحيحين . وكان المحدثون لا يصححون الحديث إلا إذا صح سنده . ولكن مع الأسف دخل في الحديث بعض الإسرائيليات ، وبعض ما كان يرويه القصاص من غير تدقيق .

ومن المؤسف أيضاً أن العلماء عنوا بنقد السند أكثر مما عنوا بنقد المتن . وقد وضعت قواعد للتحقق مع صحة الحديث فقالوا مثلاً إنه يحكم بضعف الحديث إذا تعارض مع وقعة تاريخية معروفة ، أو إذا كان الراوى من الشيعة

والحديث يطعن في أحد الصحابة أو كان من الخوارج والحديث يطعن في أهل البيت ، أو كان الحديث مروياً عن واحد فقط ، أو كان الحديث يخالف مبادئ القرآن وتعاليمه . أو كان الحديث يتضمن عقوبة شديدة لشيء تافه ، أو نحو ذلك .

والأحاديث المجموعة مختلفة في أسمائها ، فمنها المتواتر وهو ما رواه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل قرن من القرون . ومنها الآحاد . وقد قسموا الأحاديث إلى ثلاثة أقسام . مشهور وهو ما رواه آحاد في القرن الأول ثم ذاع بعد ذلك ورواه عدد كبير في القرن الثاني والثالث . وحديث عزيز ، وهو ما لم يرو عن أقل من طريقين ، وحديث غريب وهو ما كان في سلسلة سنده شخص واحد .

وقد جد المسلمون جداً عجيباً في جمع الحديث وترتيبه وتبويبه . ولم يألوا جهداً في الرحلات إلى أقصى البلاد لجمعه ولم يقتصروا في الاستفادة منه فيما يعرض لهم من أحكام .

أهم ركن للإسلام

وقد أثبت الدكتور ماكس مولر مكتشف اللغة السنسكريتية أن الناس كانوا في أقدم عهودهم على التوحيد الخالص وأن الوثنية عرضت عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين بغياً بينهم ، وهذا يخالف عقيدة النشوء والارتقاء التي تدعى أن الناس عبدوا الأصنام أولاً وعددوها ثم لم يصلوا إلى التوحيد إلا أخيراً وأن الوجدانية ارتقاء لنشوء الوثنية .

وعقيدة الوجدانية عقيدة صعبة لا يستطيعها إلا المجاهدون الراقون . وكثيراً

ما ينحدر الناس عنها إلى شيء من الوثنية ولذلك حارب الإسلام الوثنية في شتى مظاهرها من عبادة آباء أو عبادة أشجار وأحجار أو عبادة أوثان أو عبادة أموات وأضرحة — ومع هذا كله فقد ظلت الوجدانية صعبة إلا على من هدى الله . وعقيدة الوجدانية هذه هي أرقى ما وصلت إليه الإنسانية ولكن تحقيقها كما قلنا عسير فهي تتطلب منهم اعتقاد أن الله وحده هو الذى يستحق العبادة . « إياك نعبد وإياك نستعين » . وأن ما عذاه لا يصح أن يؤله ولكن الناس على توالى العصور ألخوا غير الله فمنهم من آله الأشجار والأحجار ومنهم من آله الأضرحة والأولياء ومنهم من آله الملوك والخلفاء ومنهم من آله المال والجاه غافلين عن حقيقة الدين ، غافلين عن حقيقة الوجدانية . ولكن مع الأسف كانت صعوبة الإيمان بالله واحد من عالم الغيب سبباً فى فتح الباب للعقول الضعيفة فى العصور المختلفة — فأمنت بالسحر والطلسمات وكثير من الخرافات ، والعقيدة الصحيحة تقتضى صاحبها نسبة السلطة لله وحده والقدرة لله وحده . ومن قديم حارب عمر بن الخطاب الذين بدءوا يعودون إلى الوثنية فقطع الشجرة التى كان عندها بيعة الرضوان لما رأى الناس يتمسحون بها ويعتقدون فيها . وقال للحجر الأسود لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ، وتلاه ابن تيمية وأتباعه فى إزالة الأضرحة ومشاهد القبور وظل العلماء والمخلصون على هذا المنوال يحاربون كل نوع من أنواع الوثنية فى العصور المختلفة . إلى الشيخ محمد عبده حديثاً ومحمد ابن عبد الوهاب وأتباعه قبله .

وعقيدة الوجدانية فى الإسلام ليست مجرد نظرية فلسفية ميتافيزيقية كما

يعتقد كثير من الغربيين إذ يعتقدون أن الله خلق العالم ثم عرج إلى السماء ولا شأن له به بل يعتقد المسلمون أن الله يعمل في العالم دائماً فكل ما يصير وكل ما يتجدد من عمله المستمر . « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » والمسلم لا يكون متديناً إذا لم ينسب إليه كل عمل من الأعمال وحياة الإنسان وعلاقته بربه تستلزم عند المسلم الاستعانة بالله دائماً لأنه هو الذى يغير الظروف التى حوله دائماً بما يسره ويسوءه ويحرك قلوب الناس بما يسرها وما يسوءها . والدين فى نظر الإسلام ليس مسألة شخصية ولا مسألة فردية وإنما هو مسألة شخصية واجتماعية .

والعلاقة بين الإنسان ومخلوقات الله علاقة متينة ، فكلها من خلق رب العالمين : فبين الإنسان وبين هذه المخلوقات وحدة نسب بربها إذ هو خالقها وخالقه ، والعلاقة بين الإنسان وهذه الطبيعة علاقة صداقة . يتحجب إليها لتفشى إليه بسرها . وهى أيضاً دلالة على وجود الله وعظمته . « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » . والقوانين الطبيعية فى نظر الإسلام تسيطر على العالم بكافة مظاهره وتؤلف سلسلة متصلة ومستمرة فى العلاقات التى توافق الواحدة منها الأخرى وتوائمها .

فحيث نجد طفلاً لا ين له — نجد لبناً رضعه فإذا نمت السن كان اللحم وما إليه — وينمو التطور فى الوقت نفسه من عدم الكمال إلى

الكامل نفسه . وما القوانين سوى « سلطات تنفيذية » ذات إرادة لها هدف مقصود ، ومن ثم فهي تعمل لحفظ النظام وصيانته . وتمثل القوانين كذلك الإرادة المحققة .

والطبيعة هي ما تسمى الخليفة ، لأن الطبيعة نشأت عن قوانين سبق إعدادها من قبل . والطبيعة حادثة مؤقتة منذ خلقها ووجودها وكلها تخضع لإرادة الله . « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » والقوانين الطبيعية هي بعض ما يدعى « الملائكة » وهي المبادئ التنفيذية لهذا العالم ، والسلطات التنفيذية التي بواسطتها تتحقق المشيئة السببية .

وامتثال أوامر الطبيعة هو امتثال وخضوع للمشيئة التي تسبب القوانين وهو ما يدعى الدين ، أو الإسلام ، أى الخضوع والامتثال لله . وهذا الخضوع والامتثال هو المبدأ العالى الحق . وبهذا وحده توجد الخلقية ، ويبرر الوجود .

وخالق الكون ، ومالك المشيئة السببية هو ما يدعى الله . فهو الذى خلق المشروعات ودبر الخطط وأثر فيها . وتسبيحها هو خضوعها للقوانين التى بثها الله فيها .

وكان رسول الله يقبل المولود الجديد ويقول « إنه حديث عهد بربه » . ولما هاجر إلى المدينة على ناقته أراد بعضهم على أبواب المدينة أن يبرك الناقة عنده — فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « دعوها فإنها مأمورة » وفى القرآن الكريم « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومز، الشجر ومما يعرشون » .

والله يستطيع أن ينفذ القوانين الطبيعية وأن يقف عملها « قلنا يا نار
كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » .

وهو بصفته الخالق لا حدود لقوته وهو ليس بحادث أو مخلوق . ولما
كانت أفكارنا المقصورة على الماديات والمحسوسات لا يمكن أن تتطور إلا على
أساس من التجارب الطبيعية والمظاهر الطبيعية فليس في استطاعتنا أن نحيط
بمعرفة الله وإدراكه تمام الإدراك . وإنه من الغباء قطعاً إثارة مناقشة حول الله
نفسه . وإنما نحن نعرف فقط شيئاً عن مشيئته وإرادته ووجوده ، نعرف ذلك
كله عن طريق القوانين الطبيعية . وكلما ازدادت معرفتنا بالقوانين الطبيعية
ازددنا معرفة بمشيئته وإرادته أى بالله نفسه .

وتمثل الطبيعة غير العضوية أقل خطوات التطور الطبيعي ويمثل الإنسان
أوسع تلك الخطوات . وتندرج الأشياء في الكمال من جاد إلى نبات إلى
حيوان إلى إنسان .

* * *

ويلي عقيدة الوجدانية الإيمان برسالة محمد والنبين من قبله
« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن
للخائنين خصيماً » .

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته »
« قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار » .

« قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات
والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي » .

« ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدي ورحمة وبشرى للمسلمين .
 « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهم واحد » .
 « وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً » .
 « قل ما كنت بدعاً من الرسل » .
 « إن أتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين » .
 « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » .
 وهذه الرسالة مؤيدة بشهادة عيسى .

« وإذا قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد » .
 — ولهذا كانت دعاءنا الإسلام ها قول « لا إله إلا الله محمد رسول الله »

* * *

ربلى هاتين العقيدة باليوم الآخر .
 « إن إلى ربك الرجعى »
 « إنه هو يبدى ويعيد » .
 « ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون » .
 « وإلى الله المصير » .
 « هو يحيى ويميت وإليه ترجعون » .
 « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون » .

وكان لهذه العقيدة، في اليوم الآخر سلطان كبير على عقول الناس وردع للمجرمين عن إجرامهم وتشجيع للمحسنين على إحسانهم ، ومراقبة الله سرّاً وعلناً ومحاسبة الضمير على كل عمل والخوف من النار في الآخرة وزادت هذه الحالة عند بعض الناس فغلبوا جانب الخوف كالحسن البصرى الإسام الكبير فيحكمون عنه أنه كان يُرى دائماً كأنه عائد من جنازة وكان كثير التخويف بالنار وعذابها وكذلك الغزالي ومن تبعه بالغوا في الترهيب حتى خلعوا قلوب الناس وكان الصوفية أعدل في حكمهم لسلطنة شعور الحب عليهم فكانت رابعة العدوية تقول :

أحبك حين حب الهوى وجباً لأنك أهل لذاك
والقرآن الكريم سلك طريقاً وسطاً بين الترغيب والترهيب .

وقد دعا المسلمين إلى الإيمان باليوم الآخر تيقنهم من أن كثيراً من أعمال الخير في الدنيا لا ينال صاحبها عليها ثواباً وكثيراً من أعمال الشر لا ينال صاحبها عليها عقاباً ، والعدل يقتضى أن يثاب المحسن ويعاقب المسيء وليس هذا كما يقول الشيوعيون ناتجاً من سوء النظام فكل نظام اجتماعي لا يخلو من ظلم اجتماعي في الدنيا كما يقول الشيوعيون وأصحاب النشوء والارتقاء .

* * *

ثم يلي ما تقدم الإيمان بكتب الله الأخرى وملائكته ورسله « لا نُفرق بين أحدٍ من رسله » . ولم يكن في العقائد الأخرى تسامح وإقرار بالنبين الآخرين كالذى قرره القرآن من الاعتقاد بالله ورسله وكتبه ، فيرى الإسلام أن كثيراً من الكتب الدينية كالتوراة والإنجيل لم تحفظ كما نزلت

وإنما دخل عليها التغير والتبدل ، كما يرى الإسلام أن كل أمة بعث فيها رسول « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » . منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » ، وأن القرآن آخر هذه الكتب وأن محمداً آخر الرسل . (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) الآية .

كما يجب الاعتقاد بأن الله جلالة وسعته يعلم من أمرهم كثيراً إلا أنهم مخلوقات روحية منهم الموكلون بالعرش يحفظونه ، ومنهم رسل الله إلى أنبيائه . ومن الأسف أن كان لعقيدة الملائكة والشياطين في الإسلام أثر كبير خطير وخصوصاً في الشياطين وما زادوا فيها من أوهام .

ويتصل بهذا عقيدة الإسلام في القضاء والقدر ، والتوكل على الله ، قال تعالى في القضاء والقدر :

« وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر » « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً » . قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » .

« قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرراً إلا ما شاء الله » .

« لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

« وما من دابة في الأرض إلا على علم الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » .

« لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » .

« ولا تحمل من أثني ولا تضم إلا بعهده » .

« وما يُعمر من مُعمر ولا يُنقص من عمره إلا في كتاب » .
 « إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً » .
 « إن أجل الله إذا جاء لا يُؤخر » .
 « عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » .
 « وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين » .
 « من يهد الله فهو المهتد ومن يُضلل فاولئك هم الخاسرون » .
 « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن
 جهنم من الجنة والناس أجمعين » .
 — وفي التوكل على الله جاء .
 « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .
 « وتوكل على العزيز الرحيم » .
 « الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .
 « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً » .
 وقد كانت عقيدة القضاء والقدر والتوكل سليمة في عهد الرسول وكبار
 الصحابة فكانت لا تمنعهم من غزو وحرب وفتوح بلدان وتغلب على أمم .
 وقد فهموها فهماً لا يمنع من الأخذ بالأسباب كما جاء في الحديث
 « اعقلها وتوكل » .

فكانوا يؤمنون بارتباط الأسباب بمسبباتها فإلى يروى والنار تحرق . وفي القرآن :
 « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » — وفيه مئات من الآيات تدل على
 ارتباط الأسباب بالمسببات حتى جاء الأشاعرة فلم يربطوا بين الأسباب ومسبباتها

فلا تأثير عندهم للماء في الري ولا للنار في الإحراق قالوا وإنما المؤثر هو الله تعالى عند حدوث الأسباب لا بها . وقالوا بتكفير من اعتقد أن الله تعالى أودع قوة الري في الماء وقوة الإحراق في النار . وإنما الإيمان والاعتقاد بأن الري جاء من جانب المبدأ الفياض بلا واسطة وصادف مجيئه شرب الماء من غير أن يكون للماء دخل في ذلك — وبذلك فكوا الأسباب عن مسبباتها . فكان لهذا من الأثر البالغ ما جعل المسلمين^٢ فيما بعد يبالغون في عقيدة القضاء والقدر — ويربطون الحوادث بالخرافات والأوهام لا بالأسباب والمسببات فالزعم إنما ينجح بالقدر ويفسد بالقدر لا بما أثبتته العلم وما يجره الإهمال . وهكذا أصبحت عقيدة القضاء فيما بعد صادة عن العمل . .

وفرق كبير بين العقيدة في القضاء والقدر وبين الجبر . فالقضاء والقدر الصحيحان يؤمنان بربط الأسباب بمسبباتها ويحملان صاحبهما على العمل ثم لتكن النتيجة بعد ما تكون وعلى هذه العقيدة كان أكبر الشجعان الفاتحين من أمثال خالد بن الوليد وتيمورلنك والإسكندر ونحوم ، لا يهابون الموت اعتماداً على أن ما قدر يكون . أما الجبر فيرى الإنسان كالريشة في مهب الريح وما قدر لا بد أن يكون عمل الإنسان أو لم يعمل ، تشجع أو لم يتشجع . وهذه العقيدة على هذا النحو دخيلة على الإسلام مما جعل كثيراً من الأوربيين يجعلون من عيوب الإسلام العقيدة في القضاء والقدر والتوكل على الله ولو أنصفوا لعدوها بحالتها الحاضرة من عيوب المسلمين لا من عيوب الإسلام .

وخطا الإسلام في الرق خطوة واسعة فهو لم يجزه إلا لمن يؤسر في حرب

شرعية ، أما اختطاف الولدان والبنات بشن الغارات على القبائل واتخاذهم عبيداً فعمل جاهلي لم يجزه الإسلام . وقد سوى الإسلام بين ذوى الألوان المختلفة سوداً وبيضاً فقال الرسول : « ليس لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » . وقرر للأرقاء الحقوق التي للأحرار ، بل جعل للرقيق مزايا ليست للأحرار بإعفاء الأرقاء من نصف العقوبات التي يحكم بها على الأحرار وجعل العتق واجباً في كفارة اليمين وكفارة الفطر في رمضان إلى غير ذلك ، وأوجب على المسلمين حسن معاملة الأرقاء ، قال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتهم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم » وسأله رجل كم أغفرو عن الخادم - فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « اعف عنه في كل يوم سبعين مرة » . وضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً له ، فجعل العبد يقول أسألك بوجه الله فلم يعفه فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وانطلق إليه ، فلما رأى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك فقال له الرسول : « سألك بوجه الله فلم تعفه فلما رأيتني أمسكت يدك قال الرجل فإنه حر لوجه الله فقال النبي لو لم تفعل لسفعت وجهك النار » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أرقاؤكم إخوانكم استعينوهم على ما عليكم وأعينوهم على ما عليهم » . وقال الإمام الزهري : متى قلت للمملوك أخذك الله فهو حر .

وليس يصح قياس هذه الخطوة الواسعة بما فعلت الأمم في هذه الأيام .
 وإنما يقاس على ما كان الرقيق عليه قبله في أيامه ، فقد كان المصريون القدامى
 والبابليون والبراهمة والفرس يتخذون الرقيق سلعة ويعاملونهم معاملة وحشية ،
 واتخذ اليونان أيضاً وأقره كبار فلاسفتهم كأرسطو وأفلاطون ، بل زعم
 أرسطو أن أرواحهم كأرواح الحيوانات . وتوسع الرومانيون في الاسترقاق
 إلى حد بعيد . وكان آباء الكنيسة النصرانية يكاثرون الكونتات في اقتناء
 الأرقاء ، فإذا علمنا هذا علمنا الخطوة الواسعة التي خطاها الإسلام في
 شأن الأرقاء .

وشرع الإسلام الجهاد ، والجهاد كلمة إسلامية تستعمل بمعنى الحرب وهي
 مصدر جاهد يجاهد مجاهدة وجهاداً مأخوذة من الجهد وهو الطاقة والمشقة ،
 فالجهاد كما قال الراغب الأصفهاني « استفراغ الوسع في مدافعة العدو — والجهاد
 ثلاثة أضرب مجاهدة العدو للظاهر ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس ،
 وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى « وجاهدوا في الله حق جهاده » — « وجاهدوا
 بأنفسكم وأنفسكم في سبيل الله » — « بين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا
 بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » الآية

وقد شرع الجهاد في الإسلام في ثلاثة مواضع :

الأول — إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان

الثاني — إذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم

الثالث — إذا استنفر الإمام قومًا لزمهم النفير معه بدون ذكر الأدلة

وقد أثبتت التجارب أن الحرب سُنّة من سنن الاجتماع البشرى وأثر لسنة تنازع البقاء وتعارض المصالح والمنافع والأهواء ، بل هى سنة من سنن بعض الحشرات التى تعيش عيشة التعاون والاجتماع كالنمل فهو يغزو ويبيد ويستترق ويستخدم رقيقه فى خدمته وترفيه معيشته . ويدل التاريخ أيضاً على أن شعوب أوروبا أشد البشر ضراوة وقسوة فى الحرب فى أطوار حياتهم كلها من همجية ووثنية ونصرانية وصليبية ومدنية مادية . ومن علمائهم وفلاسفتهم من يرى منافع الحرب أكبر من مضارها ولا تزال جميع دولهم تنفق على الاستعداد لها فوق ما تنفق على غيرها من مصالح الدولة والأمة وترهق شعوبها بالضرائب الكثيرة فإذا لم تجد استدانات .

وقد كان من تعاليم الإسلام منع جعل الحرب للإكراه على الدين أو للإبادة أو للاستعباد الشخصى أو القومى أو لسلب ثروة الأمم والتمتع بالشهوات ومنع استعمال القسوة فى الحروب كالتمثيل بالأعداء ومنع قتل من لا يقاتل كالنساء والأطفال والعباد ومنع التخريب والتدمير الذى لا ضرورة له .

ومع هذا قال بعض الأوربيين « إن الإسلام لم يمتد بهذه السرعة إلا بالسيف فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن بإحدى اليدين والسيف بالأخرى » . وهو خطأ واضح فهم لم يستعملوا السيف إلدفاعاً عن أنفسهم وكفّاً للعدوان عليهم ثم توسعوا فى الفتح بحكم نشر الدعوة .

ثم ذهب جماهير الفقهاء إلى أن القتال لدفع الأعداء وصد الاعتداء على الدين أو الوطن فرض عين ، ويجب على المسلمين إذا فقد بلد من بلاد الإسلام أن يستعدوا لاستعادته مهما كلفهم ذلك من نفوس وأموال إلى أن

يظفروا بذلك . وإذا أعلن الإمام النفي العام وجب على كل فرد أن يطيعه بما يقدر عليه من نفس أو مال كما تقدم . ويجب طاعته فيما دون ذلك بالأولى .

وقد سمي فقهاء المسلمين كل البلاد التي فتحها المسلمون ويجب عليهم دفع العدوان عنها دار الإسلام وما غداها دار الحرب . ووضع الإسلام أساساً للنظام الاجتماعي ووضع أساساً لذلك عقيدة أن كل شيء في السماء أثر في الأرض إنما خلق للإنسان .

« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » .

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .

« وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » .

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم » .

« الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة » .

« هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » .
— وهو تعالى الذي أنشأ الأسرة :

« والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم » .

— وسخر لنا الأنعام

« وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون » .

— وخلق لنا الشمس والقمر والسحاب والمطر

« وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً » .

— وسخر لنا ما ملكته أيدينا من عبيد

« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن .. إلى أن يقول : أو ما ملكت أيماهن » .

— وسخر النساء للرجال وسوى بينهم في المعاملة .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » .
« ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » .

— ونظم الزواج والطلاق .

« هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين » .

« وإن خفيتم ألقوا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء

مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم .
 — وجعل لهن من الحقوق وعليهن من الواجبات الاجتماعية ما للرجال وعليهم .
 « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا
 وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبَهْتَانٍ يَفْتَرِيهِ بَيْنَ
 أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ » .
 — وأجاز زواج المؤمنات والكتائيات دون المشركات .
 « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَ وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ
 وَلَوْ أَحْبَبْتَكُمْ .

— وفي الطلاق وردت الآيات .
 « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » .
 « وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفْ
 مَا فَرَضْتُمْ » .
 « وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ
 يَصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ » . « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا
 حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا » . « وَإِنْ
 عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » . « وَإِنْ تَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ » .
 — ويحرم على الرجل أو المرأة أن يقتلا أولادهما .
 « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » .
 « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » .
 — وألغى التبنى .

« ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله » .

— وأوجب العناية باليتامى .

« ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير » .

« وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين » .

« وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا

إليهم أموالهم » .

— وأوجب البر بذى القربى .

« وبالوالدين إحساناً وذى القربى » .

— وأوجب إكرام الرقيق .

« وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا

فقراء يُغنهم الله من فضله والله واسم عليهم » .

وهذا النظام ربط العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة وبين الأسر جميعاً .

وكان تعداد الزوجات إلى أربع وإباحة التسرى ضرورة من الضرورات ، إذ

كان الإسلام قد أمر بالجهاد : والجهاد عادة يقضى على الرجال دون النساء

فنتج من ذلك كثرة عدد النساء عن الرجال : واقتضى ذلك اختصاص عدد

من النساء برجل واحد : ولكن مع الأسف قلّ الجهاد أو بطل على توالى

الزمان وظل التشريع كما هو فنتج عن ذلك انحلال الأسرة ، فطبيعى أن

البيت الواحد إذا كان فيه حرائر متعدّدات وملك يمين متعدّد أيضاً كثر

الخلاف بين الحرائر بعضهن وبعض ، وبين الحرائر والإماء ، وبين الأولاد

لتعدد أمهاتهم ، خصوصاً أن من طبيعة الرجل أن يفضل بعضهن إما لجمالهن

وقد ضغط الإسلام على تعاليم خاصة أهمها توحيد الله وعدم الإشراف به شيئاً .

وربما كان ملخص تعاليم الإسلام التي تختلف عن التعاليم الجاهلية في آيتين : الأولى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين » الآية والثانية قوله تعالى « قل تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » الآية . وفى التوحيد يقول الله تعالى « قل هو الله أجدد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »

« وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم »
« الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم »
« وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما فى السموات وما فى الأرض كل له قانتون » .

وهذا الإله الواحد صدرت عنه المخلوقات كلها .

« الحمد لله رب العالمين »

« الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون »
« والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم »
« بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون »
« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى (٣)

تجرى في البحر مما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، آيات لقوم يعقلون »

وهو يقر أن عقيدة الوحدانية أتت بها جميع الأنبياء من عهد آدم إلى عهد محمد وأن الناس هم الذين غيروا في هذه العقيدة وبدلوا — قال تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا »

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم اليّنات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »

* * *

وأحاط الإسلام تعاليمه التي ذكرنا بإطار قوى من الإشراف سماه « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » ويعنى به أن ما تعارف الناس عليه من فضائل ، وما فطروا عليه يسمى المعروف ، وما أنكره الناس من رذائل بطبعهم يسمى المنكر . وجعل كل ذى قدرة وكفاية مسئولاً عن أعمال الجمعية الإسلامية خيراً كانت أو شراً . فيجب أن يحضوا على الخير وينهوا عن الشر ، والمسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم . وعمل هؤلاء أشبه بعمل البرلمانات اليوم في الأمم المتحضرة تنبه على ما يجب أن يعمل بأسئلتها واستجواباتها . وجعل القرآن دليل رقى الأمة تمسكها بهذا المبدأ فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف

وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ولعن اليهود إذ أضاعوا هذا المبدأ فقال :
« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ،
ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس
ما كانوا يفعلون » وجعل الإنسان في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،
وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر . فهو فرض على كل قادر ذى كفاية ، وفيه
علاج للأمة من بعض أدوائها ، وإذا تركته الأمة كان ذلك علامة على
استفحال الداء في جسمها . ومهما اشتد الأمر على المسلمين فالعلاج لا يزال
ممكناً وطريق السلامة لا يزال مفتوحاً آمناً ، ولا يعوزنا إلا التمسك بهذا
المبدأ فهو يشعر الإنسان بالعزة وأنه ليس مسئولا عن نفسه فقط ولكنه
مسئول عن نفسه وعن الجمعية الإسلامية التي ينتسب إليها ، فإذا شعر بذلك
أماط الأذى بكل قدرته ، وكافح في سبيل نشر الخير ودفع الشر .
وقد أتى المسلمون أكبر ما أوتوا من شدة شعورهم بالفردية واعتقادهم انهم
ليسوا مسئولين إلا عن أنفسهم ، وفي الحديث : « مثلكم كمثل راكبي
سفينة اقتسموها وأراد أحدهم أن يكسر ملكه فإن أخذوا على يده نجا
ونجوا وإلا هلك وهلكوا » وهذا المبدأ يكمل الشورى فبعد ان يستبين
الأمر يجب الخض عليه والأمر بتنفيذه وهذان ركنان قويان في الإسلام
شورى تبحث عن الحق ، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ينفذونه .

* * *

ولم يضع الإسلام تعاليم اقتصادية وسياسية وأخلاقية ثابتة مستقرة
لأن هذه الأمور كلها قابلة للتغيير بحسب تغيرات الأحوال وإنما

وضع بعض أسس اقتصادية يرى من المصلحة تحقيقها . فقد حرم الربا وأوجب الصدقات وأحل البيع لأنه يرى أن الربا كائناً ما كان ينفع أصحاب رؤوس الأموال لا الفقراء والذي يهيمه هو إيصال المال إلى الفقراء فدعوى أن الربا إنما حرم على الأفراد لا على البنوك والشركات دعوى يراد بها مسايمة الفكر الأوربي الحديث .

وكذلك جعل الله نظام الميراث موزعاً توزيعاً كبيراً على الأولاد والأخوات وذوي الأرحام والعصبات وغيرهم حتى لا تقع رؤوس الأموال في يد فرد كما يفعل بعض البلاد الأوربية في قصرهم الإرث على الابن الأكبر وفي هذا ضمان لأن المال بعد أجيال ثلاثة يوزع توزيعاً كبيراً — وبين مصارف الزكاة في قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » ولم ينص من الأخلاق إلا على ما كان غير قابل للتغير بتغير الزمان كالعدل والإحسان والحفاظة على أموال اليتامى .

* * *

وكل دين من الأديان لا بد له من شعائر تحيي القلب وتساعد على تنظيم المجتمع . والإسلام أكد العمل كما أكد العقيدة وأبان أن العقيدة لا بد أن تتبع بعمل فهو دائماً في القرآن يتبع الذين آمنوا بقوله وعملوا الصالحات لأن العقيدة إذا كانت صحيحة ولكنها أفلاطونية لا تترجم إلى عمل كانت لا قيمة لها . وهذه الشعائر هي في الإسلام . الصلاة والصوم والزكاة والحج . فالصلاة ليست أهميتها في مظاهرها وحركاتها وسكناتها وإنما أهميتها في إحياء

قلب المسلم وهي ترمى إلى ثلاثة أشياء : أن يخضع القلب لجلال الله وعظمته ويعبر اللسان عن تلك العظمة وذلك الخضوع أفصح عبارة بما يتلو ما تيسر من قرآن وأن تؤدب الجوارح حسب ذلك الخضوع ، وأن يقوم الإنسان بين يدي الله تعالى مناجياً ويقبل عليه مواجهاً ، وأن يستشعر ذله وعزة ربه وأتم ما يكون ذلك بالسجود . وهي وسيلة من وسائل بحلى الله على العبد وطهارة قلبه .

وفي الصلاة يقول الأستاذ ولیم حیمس : « يبدو لى أن الصلاة ستظل قائمة أبد الدهر على الرغم من كل ما أحدثه العلم إلا أن يحدث تغير فى الطبيعة العقلية عند الناس ، فالدافع إلى الصلاة نتيجة حتمية لمحاولة الإنسان أن يثبت وجوده الذاتى الداخلى فى عالم مثالى وفى صدر كل إنسان شوق إلى هذا العالم وأكثرنا يرى أن فقدان مثل هذا الملاذ الداخلى معناه التردى فى هوة من الفزع أقول : « أكثرنا » لأن الناس تختلف مواقفهم من هذا الهدف المثالى فهو عند بعضهم أساس وعند غيرهم أدنى من ذلك ، وأكثر الناس تدينًا هم الفريق الذى اختص بقسط أوفر من هذا الشعور . ولكنى واثق أن من يدعون فقدانهم له إنما يخدعون أنفسهم . »

والصلاة سعى إلى الحقيقة من طريق غير طريق الفكر . وكل صلاة جماعية فى روحها حتى الناسك يعتزل الناس ليجتمع بالله وفى الاجتماع تكبر قوة الملاحظة عند الإنسان وتعمق عاطفته . وقد رتب الإسلام للاجتماع درجات فجعل بعضه يومياً وجعل بعضه سنوياً إذن فالصلاة — فردية كانت أو جماعية — تعبير عن شوق الإنسان لاستجابة يحس بها والعالم من حوله صامت . وفيها تؤكد الذات وجودها فى لحظة فنائها . أما الوضع الذى يتخذه المصلى فليس موطن

نزاع « والله المشرق والمغرب . . . » الآية ، ولكن وجهة المصلى عامل هام في حضر تفكيرهم ، ولذلك اتخذ الإسلام قبلة معينة ليضمن وجود الوحدة في الشعور الجماعى .

* * *

وبلى ذلك الزكاة وهي اثنان ونصف فى المائة يعطيها الغنى للفقير لتؤلف بين القليلين ويشعر الغنى ببؤس الفقير وحاجته إلى المعونة . ثم الصوم وهو مكمل للزكاة ، إذ يشعر الصائم بما يلاقه الفقير من عناء يستحبه على العطاء ولذلك قال رسول الله (ص) « لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » ثم كان من شرائط صحة الصوم كف اللسان عن الرفث والفسوق .

وبعد ذلك يأتى الحج وهو اجتماع جماعة عظيمة فى مكان واحد وزمان واحد يذكرون حال المنعم عليهم ويتداولون فيما بينهم مشاكلهم وكيفية تعاونهم فيستفيدون ويفيدون خصوصاً وأن اجتماع المسلمين فى صلاة الجمعة أو صلاة الميدين غير كاف لتحقيق هذه الفضيلة على أكمل وجه .

هذه أهم الفرائض التى أتى بها الإسلام وبعض الشرائع لإصلاح الفرد كالصلاة الفردية وبعضها لإصلاح المجتمع كالزكاة والصوم والحج وفى كل خير ، وليست لهذه الأعمال قيمة إلا إذا مست القلب وهزته وربطت بحبال متينة بين القلب وبين الله وبين القلب وبين الناس . فإذا تم للمرء صحة عقيدته وإقامة الشعائر التى شرحنا تم إسلامه وإلا كان بناء مبنياً على ركن دون ركن .

ومن مندأ الإسلام أن الأعمال الصالحة ما لم تستند على إيمان بالله ورسوله فلا قيمة لها ولذلك لما سأل رسول الله (ص) عدى بن حاتم عن أبيه قال إنه في النار لأنه وإن أتى بفضيلة كفضيلة الكرم وأتمذ الموعودة من الموت فإن أعماله الطيبة هذه لم تصدر عن إيمان بالله ولا عن حسن نية . وقد علق الإسلام أهمية كبرى على نية العمل فقال رسول الله (ص) : « إنما الأعمال بالنيات » وقال في موقف آخر : « نية امرئ خير من عمله » . كذلك إذا اعتند العقائد الصحيحة ولم يشفعها بعمل صالح كانت عقائد في الهواء لا قيمة لها إذ لم تدعمها الأعمال الصالحة ، فالإسلام دائماً يربط بين العقيدة والعمل « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً » وهكذا .

* * *

ووضع الإسلام نظاماً للحكم ليس بالحكم الأرستقراطي ولا الديموقراطي ولا الشيوعي حتى ولا الثوقراطي ، فالثيوقراطية نظام الحكم فيها ديني ينفذ القائم على رأسها تعاليم إلهية معينة ، ليس مسؤولاً عنها الحاكم إلا أمام الله وليس مسؤولاً أمام الشعب ، والارادة الالهية هي التي اختارت من بين الناس ملكاً عليهم إما مباشرة أو بواسطة اختيار أفراد . وتسمى النظرية الثانية نظرية العناية الإلهية . وعلى كلا الأمرين فالملك مؤيد بروح من عند الله الذي اختاره وعهد إليه بمراعاة صالح الشعب المملك عليه . وهذا الملك محاسب أمام الله فقط لا أمام الشعب وعلى هذا قال لويس الخامس عشر في مرسوم أصدره عام ١٧٧٠ « إننا تلقينا التاج من الله وسلطة عمل القوانين من اختصاصنا وحدنا ، دون تبعية أو توزيع » . وقال غليوم ملك ألمانيا في

عام ١٩١٦ : « إن الملك يستمد سلطانه من الله ولا يقدم حسابه إلا إليه وإننى على هذا المبدأ أضع سياستى وأعمالى » . فمن الخطأ أن يسمى النظام الإسلامى نظاماً ثيوقراطياً فالإسلام أرسل إلى الناس كافة ودعا إلى أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى فكل الأرض وطن المسلم . ووجب تناصر المسلمين مهما كانوا .

وأساس الحكم فى الإسلام . هو الشورى قال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » . وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه فى أمر أسارى بدر وفى غزوة الخندق وفى صلح الحديبية وعمل بما أشاروا به .

ثم إن الإسلام لم يضع نظاماً خاصاً للخلافة بل تركه لاختيار أهل الحل والعقد وترك للمسلمين أن يختاروا تفاصيله فى قانون، مكتب أو متعارف وأن يراعوا البيئة التى نشأوا فيها ليضعوا ما هو الصالح لهم — كل ما فى الأمر أنه يجب أن يراعوا فى دستورهم وأحكامهم الأصول التى وضعها الله تعالى فى التحليل والتحريم ، فإذا قلنا إن الإسلام ترك الحكم مؤسساً على نظام شورى مراعى فيه صالح الشعوب والظروف المحيطة بهم لم نُبعد . والخليفة أو الملك ليس مسؤولاً فقط أمام الله بل مسؤولاً أيضاً أمام أهل الحل والعقد بل أمام الشعب كله . وقد خاطب الله المسلمين فى كل ما يتعلق بالحكم مثل : « فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها » — « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » .

وعمرُ قَبْلَ أن تحاسبه عجوز ، وحاجه مسلم صغير لَمَّا اطلع على عورة منه من ظهر البيت لا من بابه ؛ وفي هذا كله يخالف النظام الإسلامى النظام الشيوقراطى الذى يجعل الملك مسؤولا وحده أمام الله وحده .

وقد أراد الرسول صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى مات فيه أن يعين من يلى الأمر من بعده ، ففى الصحيحين أن رسول الله (ص) لما احتضر قال : « هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده » وكان فى البيت رجال منهم عمر بن الخطاب فقال عمر إن رسول الله (ص) قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن ، 'حسبنا كتاب الله' فاختلف القوم واختصموا فمنهم من يقول قربوا إليه يكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده ومنهم من يقول القول ما قاله عمر فلما أ كثروا اللغو والاختلاف عنده عليه السلام قال لهم قوموا فقاموا . وترك الأمر مفتوحاً لمن شاء جعل المسلمين طوال عصرهم يختلفون على الخلافة حتى إلى عصرنا هذا بين السعوديين والهاشميين . وقد ظل الإسلام قوياً متيناً مدة عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما مات بدأت معاول الهدم : فالعرب مع مزاياها المتعددة تتصف بعيوب : أهمها عدم الطاعة : وهو دور تاريخى ، يكاد يكون طبيعياً ، فكل عربى يرى لنفسه حق السيادة وعدم الخضوع . وقد كانوا يخضعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم لاعتقادهم بالسلطة الإلهية ، فلما مات لم يذعنوا لمن أتى بعده ، كما كانوا يذعنون للرسول من قبل .

* * *

« وحمل الإسلام نظاماً للميراث بينه فى كتابه وشدد بالمطالبة بالعدل . سواء

في ذلك عدل الفرد أو العدل في المجتمع قال تعالى :
« اعدلوا هو أقرب للتقوى »

« وأقسطوا إن الله يحب المقسطين »

وبهذه التعاليم كلها امتاز الإسلام عما كان حوله من الأديان الأخرى ،
في الأمم الأخرى : من روم وفرنس وحبشة وغيرهم .

فقد كان أساس هذه الأديان صحيحاً في أصله . ولكن اعتراها من الفساد
والانحطاط وفقدان الروح ما جعلها تحتاج إلى إصلاح كبير بشهادة مؤرخي
الحالات الاجتماعية في هذه الأمم . والإسلام يقرر أن تعاليمه لم يأت بها النبي من
عنده ولكنها وحى نزل عليه من ربه . وهذا الوحي أنواع :

قال تعالى : « ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب
أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء »

وهذا الوحي أنواع بعضه لا تختص به الرسل بل ولا الإنسان بل إن الحيوانات
تعمل بفرائضها بوحى من الله كما قال تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن
اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون » وكل خطرات نفس
الإنسان والإيعاز إليه بعمل الخير إيجاء من الله . أما الرسل فلهم شأن أرقى من
هذا ، بأن يرسل الله ملكاً كجبريل يحمل رسالته إلى النبي بآية قرآنية أو
محدث قدسى . وقد حدث النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه عن هذا فقال
إنه كان يأتيه أحياناً على شكل إنسان كدحية الكلبي وأحياناً يأتي على شكل
صلصلة جرس فيفصم عرقاً في اليوم الشديد البرد ثم ينفصل عنه وقد وعى عنه
ما يقول .

على كل حال إن تعاليم القرآن ، ليست من عند محمد وإنما هي من عند الله بواسطة ذلك الوحي . وأسلوب القرآن نفسه دال على ذلك مثل (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) و (قل هو الله أحد) و (إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا) و (قل أوحى إليَّ إنه استمع إلى نفر من الجن) وهكذا من الأساليب التي تدل على أنه كان النبي (ص) يتصل بالملأ الأعلى بشكل لا نعرفه ، ويتلقى العلم عن الله بشكل لا نعرفه أيضاً . هذه النظرة التي ذكرناها من أن الإسلام وحي من الله على رسوله يمكن أن تؤدي إلى إحدى نتيجتين :

النتيجة الأولى : أن يطيع المسلمون هذه الأوامر فما أتت به ، وكلها تقريباً تعاليم كلية ثم يستعملوا عقولهم في تطبيق الجزئيات عليها ويجتهدوا أيضاً فيما لم يأت فيه نص من الوحي تمشياً مع هذه النصوص الكلية .
والنتيجة الثانية : أن يقف المسلمون عند هذه النصوص ولا يتعدوها إلى الاجتهاد فما لم تنص عليه . ونتيجة هذا الرأي إغلاق باب الاجتهاد .
فن أجل هذا سمى القرآن تنزيلاً ، قال تعالى : « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » وقال تعالى : « من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله » .

وقد نزَّل الله القرآن على قلب محمد بهذه الطريقة مقسماً في ثلاث وعشرين سنة على حسب ما كان يعرض من أحداث . فأحياناً تنزل الآية أو الآيتان في الموضوع ، وأحياناً تنزل السورة كلها مرة واحدة كما حكوا عن سورة

الأنعام . وكانت الآيات إذا نزلت تكتب وتحفظ إما في الصدور أو في السطور . ولذلك استنكر بعض المشركين هذه الحالة فقالوا : (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة)

ويظهر أنه أبيح للقبائل المختلفة أن تتلاه بلهجاتها ومن ذلك نشأت القراءات المختلفة . وقد أحاز الرسول ذلك . أجازته الصحابة من بعده .
والحق أن المسلمين الأولين انقسموا إلى قسمين : منهم من كان يرى الرأي الأول ومنهم من كان يرى الرأي الثانى . وخير مثال على ذلك : عمر بن الخطاب وابنه عبد الله بن عمر . فقد كان عمر حريصاً في الاجتهاد جريئاً في أعمال العقل . حتى إنه كان يفهم النص ويفهم علته فإذا انعدمت العلة قال بانعدام المعلول كما فعل في آية المؤلفة قلوبهم . وكان ابنه عبد الله يمثل المحافظين . وربما أيد الرأي الأول أن رسول الله (ص) أجاز عمر في اجتهاده وأجاز معاذ بن جبل في اجتهاده أيضاً عند ما لم يكن نص . وربما أيد هذا الرأي أيضاً ما ورد في القرآن الكريم من آية النسخ كقوله تعالى : (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا) ففي الثلاث والعشرين سنة تغيرت الظروف التي استدعت بعض الأحكام ثم تغيرت الظروف فتغيرت بعض الأحكام . بل ربما كانت المسألة تحتاج إلى أمر ، وتغير الظروف فتحتاج إلى نهى ، كالذى قال رسول الله (ص) « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزورها » وربما كان هذا هو السبب في أن بعض الآيات فيها حكم يخالف حكم الآية الأخرى ، وقد اضطر المفسرون إلى النص على أن بعض الآيات منسوخ وبعضها ناسخ . فإذا حدث هذا في ظرف ثلاث وعشرين سنة في حياة

النبي (ص) فما بالك إذا اختلفت السنون ومر أكثر من ألف عام ،
وتغيرت الظروف بالفتح الواسع ، وتغيرت البيئات من حارة إلى باردة ، ومن
بداوة بسيطة الى مدنية معقدة ، والى معاملات لم تكن معروفة كالسلم ونحوه .
وواجه المسلمون في القديم مدنيات قديمة كمدنيات الفرس والروم والهند ومصر
وفي الحديث المدنية الغربية معتقداتها وتراكيبها . ألا يظن الناظر أن النبي (ص)
لو كان حيًا وواجه هذه الظروف لنزلت عليه آيات كثيرة من آيات النسخ
والله الكريم الرحيم لم يخلد الأمة الإسلامية من تشريع من يقابل هذه الحياة
الجديدة بالاجتهاد المطلق . وكان من نعم الله أن وجد المجتهدون المختلفون أمثال
أبي حنيفة والشافعي ليواجهوا هذه المدنيات القديمة ويقابلوها بأحكامهم المستمدة
من روح القرآن وتعاليمه . ولكن خلف من بعدهم خلف ضيقوا واسعاً وأغلقوا
باباً مفتوحاً . (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

ولذلك رمى بعض المستشرقين الإسلام بالجمود ، وعذرهم في ذلك ما رأوا
من عدم استعمال المسلمين عقولهم ووقوفهم عند تقليد آبائهم ، مع أن آيات
الأحكام في القرآن ، التي جاءت في التشريع قصداً قد لا تتجاوز المائة ،
وأحداث الزمان التي تتجدد في كل عصر وأوان تعد بالألوف
ومما يؤيد ذلك دعوة القرآن الكريمي إلى استعمال العقل مثل (أفلا
يتدبرون) ، (أفلا يعقلون) ، (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) ،
(إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) وشبه الذين لا يستعملون عقولهم بالأنعام
قال تعالى عنهم إنهم (صم بكم عمى) و (مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق
بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وقال (لهم قلوب

لا يفقهون بها ولهم أعيت لا يصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل (وقال (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) وقال (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً)

ودعا الى نوع من الغذاء يناسب العقل من النظر في آيات الله في السماء وفي الأرض وفي الفلك التي تجري في البحار وفي اختلاف اللسان والألوان ونحو ذلك . فالله الذي مجّد العقل هذا التمجيد لا يأتي بتعاليم تحجّره وتجمده ، بل كانت أفعال النبي (ص) في جمعه كبار الصحابة وسؤاله بعضهم في مسائل دينية تدل على صحة هذا الاجتهاد كالذي فعل مع عمر في استشارته في الأذان ونحو ذلك

ولو بنى الإسلام على أساس غير متين لطار كما طار غيره . نعم ، إن الصين بقيت زمناً أطول منه على وثنياتها . ولكن ، يلاحظ أن الصين كانت في قارة واحدة بينما كان الإسلام في ثلاث قارات وأنها لم تحط بالأعداء من حولها كما أحيط هو ، ففي وقت واحد كانت ضربات التتار وضربات الصليبيين وغيرهم .

إن العلم الحديث مع تقدمه الباهر لم يستطع أن يفسر أسرار الحياة ، إلا أنفتحا هنا وتفتحا هنالك ، وعجز عجزاً تاماً عن تفسير الباقي .

أما الإسلام فقد استطاع أن يحل في الإنسان الضمير الديني ، ويحل به المشاكل كلها بحذافيرها . واستطاع أن يفهم ضم الحياة الأخرى إلى الحياة الدنيا ، فيفهم من ذلك ، أن مجرمًا يسعد ، ومستقيماً يشقى ، لأن هنالك

ضميمة أخرى إلى الحياة الدنيا تحدث التعادل بين حياة المجرم والمستقيم .
لكل هذه الأسباب ، نرجو أن إحساس الغربى بالشقاء وبالعجز وبالخيرة
عن فهم سر الحياة ، يلجئه أخيراً إلى أن يرى المنقذ من كل ذلك ، ولعله
لا يجد غير الإسلام .

* * *

جاء بهذا الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم وقد ولد في مكة عام ٥٧١ م
تقريباً ومع أنه هو النبي الذي أدركه التاريخ فإن كثيراً من أحداثه في
طفولته وشبابه مجهولة كل الجليل ومات أبوه قبل ولادته وماتت أمه وهو في
السادسة من عمره ، ولما بلغ الثانية عشرة رحل مع عمه أوى طالب إلى الشام
فقابل في أثناء رحلته راهباً مسيحياً اسمه (بَحِيرَا) وتزوج وهو في الخامسة
والعشرين من خديجة وهى سيدة قرشية تناهز الأربعين من بنى أسد وكانت
قد تزوجت قبل النبي بزوجين وكانت ذات ثروة وجاء فكانت من أوفر
أهل مكة غنى وكانت تستخدم رجالا من قريش كان آخرهم محمداً (ص)
ولم يتزوج غيرها في أثناء حياتها فكفاه الله مؤونة اليتيم والفقر .

« ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى » فلما
كفى مؤونة الفقر استطاع أن يتفرغ للتأمل فكان يخرج إلى غار حراء
ويقى فيها الليالى ذوات العدد يتأمل فيما عليه العالم عامة وقومه خاصة من ضلال
مبين ولـكن أين الصواب ، وفي ليلة سمع صوتاً يقول : « اقرأ باسم ربك
الذى خلق ، خلق الانسان من علق » ، ثم تتابع عليه الوحي وذهب إلى
بيته وقلبه يضطرب خوفاً حتى دخل على خديجة وهو يقول زمولنى زمولنى

ودخل عليها مرة أخرى وهو يقول دثروني دثروني ، فأمنت به . وليس أدل على صدق الرجل من أن يؤمن به أقرب الناس إليه كخدبة وعلى ابن أبي طالب وقد أمر أن يبلغ قومه رسالته فبلغهم فاستخفوا به وقالوا ساحر أو مجنون وما زال يدعوهم ويعذبونه ، فلما ضاق صدره أمر بعض أصحابه أن يهاجر إلى الحبشة فخرجوا في هجرتين كانوا في الأولى إحدى عشرة أسرة ثم لحقت بهم ثلاث وثمانون أسرة أخرى من بينهم أسرة عثمان بن عفان ، فتلقاهم النجاشي بقبول حسن ثم أسلم عمر بن الخطاب فأعلن إسلامه فوجد الإسلام فيه ناصراً قوياً . وفي هذه الأثناء كانت حادثة الإسراء والمعراج . وفي سنة ٦٣٠ قدم سوق عكاظ نفر معظمهم من الأوس والخزرج فعرض عليهم محمد الإسلام فقبلوا وبايعهم ووفد إليه في سنة ٦٣٢ خمسة وتسعون منهم امرأتان فبايعوه واحتكموا إليه في الخلاف الناشب بين الأوس والخزرج فوفق بينهم ، واتخذ يثرب مسكناً له ولقومه . وقد أمر نحو مائتين من أصحابه أن يهاجروا إلى المدينة وأعد العدة بعد ذلك هو وأبو بكر للهجرة أيضاً ، وأوجد في المدينة لما هاجر إليها توحيداً سياسياً نظامياً وآخى بين المهاجرين والأنصار ثم اعترضوا قافلة تجارية كانت عائدة من رحلتها إلى الشام فخاف أهل مكة لأن هذا الطريق هو سبب معيشتهم وانهزموا في بدر ولم تصبر قريش على عار بدر فخاربت المسلمين من جديد في غزوة أحد وجمعت جموعها وعلى رأسهم أبو سفيان . وأصيب النبي (ص) في هذه الموقعة فشج رأسه وسال دمه وهزم المسلمون فقالت قريش إن هذه بتلك . وفي سنة ٦٣٧ تألفت أحزاب كثيرة من قبائل مختلفة

توالى القرشيين فنصح سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة فمكثت الأحزاب شهراً تتناوش ثم انصرفت وعاد محمد (ص) إلى المدينة وناصب اليهود العداء لأنهم كانوا يتآمرون مع الأحزاب — عرض عليهم الإسلام فلم يقبل بنو قريظة فحكم الرسول بضرب أعناقهم وأمر بنى النضير بالجلأ . ونظمت حياة المسلمين بالمدينة تنظماً اجتماعياً قوياً . وفى سنة ٦٢٨ سار محمد يصحبه ١٤٠٠ من المؤمنين إلى مكة وجرت بينه وبين القرشيين مفاوضات انتهت بتوقيع صلح الحديبية وبعد سنتين من ذلك فتحت مكة فدخل محمد الكعبة وأمر بأصنامها فحطمت وطهر البيت الحرام منها وكان عددها على ما قيل يبلغ نحو ٣٦٠ صنماً ولما أمكنه الله من قريش عفا عنهم وأطلق سراحهم . وفى السنة التاسعة من الهجرة أقام محمد (ص) حامية فى تبوك على حدود غسان وكثرت الوفود على المدينة حتى سميت سنة الوفود وفى السنة العاشرة للهجرة دخل محمد مكة ظافراً منتصراً فى مكب الحج .

هذا من ناحية الأحداث . أما من ناحية ما عمله من إصلاح فإنه بتعاليم وتنظيماته استطاع مع ما نشأ عليه من جو خائق وعبادات متعفنة أن يوحد بين جزيرة العرب فى لغتها ودينها وأن يجعل الأمة العربية أمة بعد أن كانت قبائل لا تعرف معنى أمة ، ورفع من شأن نصف المجتمع وهو المرأة ولاقى فى سبيل ذلك كثيراً فلم ييأس . وتعاليمه التى أتى بها تعاليم إنسانية لا تخضع لظروف الزمان والمكان ومن أجل هذا كانت تعاليمه خالدة فالإنسان أخو الإنسان والأبيض أخو الأسود والملك أخو الرعية وأوعز إلى المسلم أن يكون قوة فعالة لاستئصال الشر وتعميم الخير وتتمام الانسجام بينه وبين من يعيش (٤)

معهم — وطالب المسلم أن يحقق العدل وأن يعيش بخير نفسه وخير من معه ؛
ولأن تعاليمه إنسانية كانت دعوته موجهة إلى الناس جميعاً لا فرق بين شرق
وغربي ، فالاجتهاد الذي شرعه كاف في تعديل التعاليم حسب البيئة والظروف
وهو بهذا مصلح لما فسد من الأديان مقوم لما مال منها ومن أجل هذا
استطاع الإسلام أن يبقى مع مثل هذه الهزات التي أصيب بها المسلمون
في مختلف العصور ، وقد تعرض القرآن الكريم لبعض صفات الرسول مثل :

« النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » .

« قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله » .

« قل إنما أنا بشر مثلكم » .

« قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا » .

« قل إني لن ينجيني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغا

من الله ورسالاته .

« الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة
والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم
عليهم الخبائث .

« هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم » .

« ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون

إلا أنفسهم » .

« فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر .

« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين »

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تتولوا عنه وأنتم معرضون » .
 « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين إلخ الآيات .
 كما رودت أحاديث صحيحة كثيرة لبيان بعض أخلاقه صلى الله عليه وسلم .
 وربما كانت سيرته في المدينة التي تعرض لها القرآن والأحاديث أوضح من
 سيرته في مكة ومع ذلك فلم يُبدأ في تدوين سيرته إلا في أوائل القرن
 الثاني الهجري حين كتب محمد بن إسحق تاريخه واختصره ابن هشام
 في سيرته . والمتتبع للسير في العصور المختلفة يتجلى له أنها عظمت وكبرت
 على مرور الزمان حتى كأنها هرم مقلوب . وكل متأخر يجتهد في زيادة
 الأوصاف والأحداث عن المتقدم .

ومع أن القرآن ينص على أنه ليس إلا بشراً كسائر الناس فقد وصفوه
 بصفات الأنبياء الذين جاءوا قبله حتى ما جاء في الكتب غير الوثيقة .
 كأنه عز عليهم أن ينسب إلى أحد غيره من المعجزات ما لا ينسب إليه .
 صلى الله عليه وسلم .

* * *

مات رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن يوصى بالخلافة لأحد من
 بعده : .. فقال قوم إن أحق الناس بالخلافة أبو بكر : لأن رسول الله رضيه
 لأمر الدين بإمامة المسلمين في الصلاة : فليرضوه هم في أمر الدنيا : أعنى الخلافة :
 وقال قوم : أحق الناس بالخلافة أهل بيته : عبد الله بن عباس أو علي بن
 أبي طالب : .. ومن جهة أخرى : قال قوم : إن أحق الناس بها هم المهاجرون
 الأولون من قريش : وقال آخرون إن أحق الناس بها هم الأنصار : ..

كان مجال الخلاف الأول في بيت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يدفن : والخلاف الثاني في سقيفة بني ساعدة حيث كان الأنصار يطالبون بالخلافة : وأخيراً تم الأمر لأبي بكر على مضض : فكان من أول ما واجهه حروب الردة : وسببها أن كثيراً من العرب لما مات الرسول أبوا أن يخضعوا لأحد غيره : وأبوا أن يدفعوا الزكاة لأنهم عدّوها إتاوة لا تليق بالأحرار : وكان مظهر ذلك ما عبر الخطيئة عنه إذ يقول :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر

ذلك أن العرب ليست تخضع عادة إلا لمن أتى بالسلطة الدينية قال ابن خلدون في مقدمته : « والسبب في ذلك أنهم خلّقوا التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلبة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشغلهم من الدين المذهب للغلبة والأنفة الرادع عن التحاسد والتنافس فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لا يظهرون الحق ثمّ اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبرائتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهمة لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات . »

ومن مظاهر هذا ما كان من خلاف الصحابة على من يتولى الأمر بعد الرسول . وكان هذا ضعف لياقة منهم إذ اختلفوا قبل أن يدفن الرسول . ولكن كان عذرهم في ذلك الصل على ضم الشمل ، وجمع الكلمة .

* * *

على كل حال اتسعت هوة الخلاف ، فلما علم أبو بكر وعمر باجتماع الأنصار في سقيفة بنى ساعدة ذهبوا إليها ، وخطب أبو بكر خطبة موفقة أقنع فيها الأنصار بأولوية المهاجرين الأولين ، وبذلك كفى المهاجرون خلاف الأنصار ، ثم كان أن كفى أبو بكر أمر على ، فقد كره كثير من الصحابة أن يجمع بين النبوة والخلافة ، ولعلمهم بشدة على في الحق وعدم تساهله . وقد أقام الاسلام نظام الشورى : قال تعالى : وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، ولكن المبدأ يمكن تفسيره تفسيرات مختلفة بحسب مقتضى الحال ويتسع حتى يشمل النظمات البرلمانية الحديثة ولعل هذا هو السر في أن نظام الشورى لم يحدد وترك للمسلمين . وقد أقام النبي هذا الركن في زمنه بحسب مقتضى الحال فقد كان المسلمون قلة وأولوا الحل والعقد قليلون يسهل اجتماعهم في مسجد واحد ويؤخذ رأيهم في الأمور العارضة فكان النبي لا يبرم أمراً هاماً حتى يستشيرهم فقد استشارهم بالفعل في غزوة بدر ولم يغز قريشاً حتى وافقوا على ذلك واستشارهم جميعاً يوم أحد وهكذا كان يستشيرهم في كل أمر إلا حيث ينزل الوحي ، فلما اتسع الإسلام بعد الفتح وأسلم كثيرون من الأماكن البعيدة عن المدينة وكان في كل قرية أو قبيلة رجال من أهل المكانة يصح أن يؤخذ رأيهم لم يكن من السهل استشارتهم وترك الأمر مفتوحاً لأنه

لو وضع قاعدة فيه لاتخذها المسلمون ديناً بتحجرون عليه . فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم حصل هذا الاختلاف فبايع عمر أبا بكر ثم بايعه الناس وكان في هذا مخالفة لركن الشورى ولذلك قال عمر انها غلطة وفي الله المسلمين شرها . وكذلك كانت غلطة بيعة أبي بكر لعمر وإن كان قد استشار كبار الصحابة في ذلك فبعضهم حمده وبعضهم خاف من شدته فقال أبو بكر إنه يرانى ألين فيشتد .

قال ابن خلدون (سببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر ، قال صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) وبسبب ما سبق إليها من أحد الخلقين يتعد عن الآخر ويصب اكتسابه ، فصاحب الخير إن سبقت إلى نفسه عوائد الخير . وحصلت له ملكته بعد عن الشرّ وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشرّ إذا سبقت إليه أيضاً عوائده — وأهل الحضرة لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم قد تلونت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم ، وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات والذات ودواعيها ، وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضرة أقل بكثير ، فهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء

الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها ، فيسهل علاجهم عن علاج الحضر ، فلما جاء الأمويون أبطلوا هذا الركن الأساسي ، ووضعوا مبدأ الاستبداد فلما جاء العباسيون أسس الخلفاء سلطتهم على العظمة الشخصية فعل الأكَاسرة وبذلك انهار مبدأ الشورى .

على كل حال كان توفيقاً من الله ببيعة أبي بكر فقد كان صادقاً مخلصاً حازماً وكان موقفاً في عدم قبوله السكوت عن العرب الذين لم يشاءوا دفع الزكاة إذ لو فعل مع نصيحة عمر له بالاغضاء لتمادوا في البعد عن الإسلام شيئاً فشيئاً ، ولذلك صمم أبو بكر على حرب العرب الذين منعوا الزكاة وسميت هذه حروب الردة وهي ليست ردة بالمعنى الفقهي المتعارف فلم يرتد العرب إلى الشرك بل اعترفوا بالوحدانية وبرسالة النبي وإنما لم يشاءوا أن يدفعوا الزكاة لأنهم عدوها ضريبة تشعر بإذلالهم خصوصاً وأن بعض عمال الزكاة كانوا يجبرونها في شيء من القسوة ، ومن جهة أخرى حقد بعض الزعماء على رسول الله إذ رأوه قد نجح في الدعوة الإسلامية فظنوا أنهم يستطيعون أن يفعلوا ما فعل فادعوا النبوة وادعوا أنه أوحى إليهم بدين جديد ينهى عن الوثنية وفي أول خلافة أبي بكر واجه كما قلنا الخلاف على الخلافة كما واجه ارتداد البدو ، فجرد أبو بكر نفسه للقضاء على هذه الخلافات ودحر دعاة الردة وأعانه على ذلك يده المنفذة خالد بن الوليد فثار بنو حنيفة في اليمامة ثم ثار غيرهم في غيرها

وكانت قبيلة أسد وغطفان تنزلان قريباً من المدينة وانهزوا فرصة هياج جزيرة العرب وذهب جيش المسلمين لمحاربة الروم وارتدوا أيضاً وهجموا على

المدينة فوجه أبو بكر إليهم من يصدّهم واستمر في الدفاع نحو شهرين حتى رجع أسامة بجنوده من غزو الروم فعهد إذ ذاك إلى خالد بن الوليد بحربهم فهزموا واضطروا إلى الاستسلام في الحال ثم كان من المرتدين أيضاً من بلاد البحرين وعمان وهي المنطقة الساحلية التي تمتد على طول الخليج الفارسي وكانت عاصمتها هجر فسار خالد إليها وأخضع أهلها بعد مقاومة طويلة عنيفة ثم انتقل إلى عمان ومعظم أهلها من صيادي السمك وقرصان البحر فأخضعهم عكرمة ثم سار عكرمة من عُمان إلى حضرموت واليمن فأطفأ عكرمة نارها بعد حروب طويلة .

وهكذا استطاع أبو بكر أن يخضع جزيرة العرب كلها ويقضى على ثورة المرتدين .

ثم جاء بعده عمر وكان لوناً آخر من ألوان البطولة فكان قوياً عادلاً مهيباً ينال من نفسه ومن أولاده ومن الناس . والمسلمون يتصورون عمر رجلاً طويل القامة ضخم الجسم مهيب الطلعة عادلاً حتى في نفسه وولده بيده هراوة يضرب بها أهله ومن خرج من المسلمين عن جادة الصواب في قليل أو كثير، وكان من أكثر ما عمله إخضاع الفرس وإزالة دولتهم فكان من أهم الوقائع وقعة القادسية وهي بلدة غربيّ النجف وعلى مسافة ثمانية عشر ميلاً ونصف من الكوفة وكانت وقعة حاسمة خاضها القائد المشهور المنى بن حارثة وقد قتل في المعركة فخلفه سعد بن أبي وقاص ، كذلك تم فتح الشام والجزيرة وفلسطين ومصر على يده وليست قيمة عمر الكبرى في فتح هذه البلاد ولكن في وضع نظمها السياسية والمدنية والاجتماعية خصوصاً وأنه لم ينشأ

من قوم متمدينين حتى إن أكثر الفقهاء يعتمدون في تشريعهم الاجتماعى على التقاليد التى سنّها عمر عند فتحه الفتوح .

ولما حضرت عمر بن الخطاب الوفاة عهد كما قيل إلى ستة يختار منهم خليفة وهم صهر النبى (ص) على وثمان والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وكان ينبغى أن يختاروا أ كفاءهم ولو اختير على أو الزبير بن العوام لتغير وجه التاريخ ولكنهم اختاروا اليهم ناظرين فى اختياره إلى أن العرب كانوا قد سئموا حكم عمر فى شدته وهراوته وقد سار عثمان فعلا فى السنين الست الأولى سيرة عادلة رحيمة ولكنه فى الست الأخيرة كانت قد كبرت سنة وخضع لأقاربه من الأمويين فترك تصريف الأمور لرئيسهم مروان بن الحكم الأموى ، وهذا عين جميع الأمراء الرئيسيين من الأمويين ، فأغضب ذلك كثيراً من الصحابة وخصوصاً عليا والزبير وطلحة وغيرهم فأرادوا أول الأمر أن يحرروا الخلافة من هذه السلطنة فنصحوا عثمان بالاعتزال فأبى ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى كان عثمان فى المدينة وليس معه إلا نفر قليل من الأصدقاء وكان من أكبر الشخصيات البارزة فى محاربته وتأليبها الناس عليه عائشة بنت أبى بكر ، واستطاع خصومه جميعاً أن يثيروا الأمصار عليه ، واجتمع أهل المدينة حول بيته ورفضوا أن يتزحزحوا عنه وثار المصريون أيضاً لما علموا أن كتاباً كتب باسم عثمان إلى عامله عبد الله بن أبى سرح يأمره فيه بالفتك بالزعماء عند عودتهم . وأخيراً تقدم رجل من المصريين قتلته وطالب الثأرون بتسليم القاتل فلم يجابوا وبويع يعده على بن أبى طالب وقام بطلب

الثأر وتسليم القتلة معاوية بن أبي سفيان ووقع النزاع بينه وبين علي واختار معاوية دمشق مركزاً ، وكان العرب من قديم يعرفون هذه البلاد وقد تعودوا الطاعة والخضوع للأمير والملك وكان جيش معاوية أنظم وأطوع من جيش علي الذي كان أكثره عرباً لا يلتزمون طاعة ولا يؤمنون بنظام ، وأخيراً وبعد وقائع كثيرة هزم علي ثم قتل واستتب الأمر لمعاوية .

وهنا نقف وقفة عند مقتل عثمان فقد كان حادثة مروعة حقاً مؤثرة في حياة المسلمين فما بعد أن أكبر تأثير وقد توقع بعيدو النظر السوء في المستقبل من هذه الحادثة وأكثر فيها الشعراء قال حسان بن ثابت .

أتركنمو غزو الدروب وراءكم وغزوتونا عند قبر محمد
فلبئس هدى المسلمين هديتم ولبئس أمر الفاجر المتعمد
وقال- حباب بن يزيد الهاشمي .

لعمر أيبك فلا تجزعنْ لقد ذهب الخير إلا قليلا
لقد سفه الناس في دينهم وخلي ابن عفان شراً طويلا
اعاذل كل امرئ هالك فسيرى إلى الله سيرا جميلا

وكان من أهم ما نقم الناس على عثمان أن طلب منه عبد الله بن خالد ابن أسيد الأموي صلة فأعطاه أربعمئة ألف درهم وأعاد الحكم بن أبي العاص بعد أن نفاه رسول الله وأعطاه مائة ألف درهم ، وتصديق رسول الله بموضع سوق المدينة على المسلمين فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم ، وأقطع مروان فذك ، وقد كانت فاطمة طلبتها بعد وفاة أبيها ، تارة بالميراث وتارة بالنحلة . فدفعت عنها . وحمل المراعى حول المدينة كلها من مواشى

المسلمين كلهم إلا عن بنى أمية ، وأعطى عبد الله بن أبي السرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية بالمغرب . وهى من طرابلس إلى طنجة — من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين . وأعطى أباسفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال فى اليوم الذى أمر فيه مروان بن الحكم بمائة ألف . وقد كان زوجه ابنته أم أبان . لحاء زيد بن أرقم صاحب المال بالمفاتيح فوضعها بين يدى عثمان وبكى . فقال عثمان : أتبكى أن وصلت رحى ؟ قال لا ولكن أبكى لأنى أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقتة فى سبيل الله فى حياة رسول الله . والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً . فقال . الق المفاتيح . فإنا سنجد غيرك وأتاه أبو موسى الأشعرى بأموال كثيرة من العراق ، فقسمها كلها فى بنى أمية ، وزوج الحارث بن الحكم بنت عائشة فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً ، ونفى أباذر رحمه الله إلى الربدة لمناهضته لمعاوية فى الشام فى كنز الذهب والفضة وضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه ، وعدل عن طريقة عمر فى إقامة الحدود ورد المظالم وكف الأيدى العادية ، والانتصاب لسياسة الرعية ، وختم ذلك كله بما وجدوه من كتابه إلى عامله بمصر يأمره فيه بقتل قادة الثورة* وقد أجاب بعض المعتزلة عن هذه المطاعن بأجوبة مشهورة ، على

* وقال فى ذلك عبد الرحمن الجهمى :

أحلف بالله رب الأنام	ما ترك الله شيئاً سدى
ولكن خلقت لنا فتنة	لكى نبتلى بك أو تبتلى
فان الأمين قد بينا	منار الطريق عليه الهدى
فا أخذوا درهما غيلة	ولا جعلوا درهما فى هوى
وأعطيت مروان خمس البلاد	فهبات سميك معن سعى

أنا نرى أن هذه الأحداث لم تبلغ المبلغ الذى يستباح به دمه وكان يكفى أن يخرجوه من الخلافة ولا يعجلوا بقتله
وكما قال على . « استأثر (عثمان) فأساء الأثرة وجزعتم فأسأتم الجزع
ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع . »

وقد أكبر الصحابة قتل عثمان قال سعيد بن زيد .
لو أن أحداً انقض للذى صنعتموه به ن لكان محقوقاً أن ينقض .
وقال عبد الله بن سلام : « لقد فتج الناس على أنفسهم بقتل عثمان
باب الفتنة لا يعلق عنهم إلى قيام الساعة » وقال ابن عباس « لو اجتمع
الناس على قتل عثمان لرموا بالحجارة من السماء » .

وقالوا إن زياد بن أبيه أوفد ابن حصين على معاوية فخلا به ليلة فقال
له : يا ابن حصين قد بلغنى أن عندك ذهناً وعقلاً فأخبرنى عن شيء أسألك
عنه قال سئى عما بدالك . قال : « أخبرنى ما الذى شئت أمر المسلمين وملائهم
وخالف بينهم ؟ قال نعم قتل الناس عثمان . قال ما صنعت شيئاً قال فسير على
إليك وقتاله إياك قال ما صنعت شيئاً قال فسير طاحه والزير وعائشة وقتال
على إياهم قال ما صنعت شيئاً قال ما عندى غير هذا يا أمير المؤمنين قال فأنا
أخبرك إنه لم يشتت بين المسلمين ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التى جعلها
عمر إلى ستة نفر وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهرهم على
الدين كله ولو كره المشركون فعمل بما أمر الله به ثم قبضه الله إليه وقدم
أبا بكر للصلاة فرضوه لأمر دينهم إذ رضى رسول الله لأمر دينهم فعمل سنة
رسول الله وسار سيرته حتى قبضه الله واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته ثم

جعلها شورى بين ستة نفر فلم يكن رجل منهم إلا رجاها لنفسه ورجاها له قومه وتطلعت إلى ذلك نفسه ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف .

والحق أن قتل الخليفة الثاني عمر والخليفة الثالث عثمان والخليفة الرابع على فتح على الناس فيما بعد باب شر كبير وهذه الحوادث وخاصة قتل عثمان مسئولة عن قتل بعض خلفاء بنى أمية وقتل كثير من خلفاء بنى العباس وقتل كثير من سلاطين المماليك وهكذا . مع الخلاف بين قتل عمر وعلى وقتل عثمان لأن قتلها كان حادثة فردية أو مؤامرة جزئية أما مقتل عثمان فقد كان ثورة شعبية للأقطار الإسلامية .

زد على ذلك أن هذه الحادثة قسمت المسلمين إلى فرق أربع أو خمس بعد أن كان أمرهم واحداً ودينهم واحداً فافترقوا إلى فرق : شيعة عثمان وشيعة على والمرجئة ومن لزم الجماعة والحرورية فكان أهل الشام شيعة عثمان وكذلك أهل البصرة وقال أهل الشام ليس أحد أولى بطلب دم عثمان من أسرة عثمان وقرابته ولا أقوى على ذلك من معاوية وقال أهل البصرة ليس أحد أولى بطلب دم عثمان إلا طلحة والزبير لأنهما أهل الشورى وأما شيعة على فإنهم أهل الكوفة وأما المرجئة فهم الشكاك الذين شكوا وكانوا في المغازى فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان وكان عهدهم بالناس ورأيهم واحد ليس بينهم اختلاف فقالوا تركناكم وأمركم واحد ليس بينكم اختلاف وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون بعضكم يقول قتل عثمان مظلوماً وكان أولى بالعدل وأصحابه وبعضكم يقول كان على أولى بالحق وأصحابه كلهم ثقة

وعندنا مصدق فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ولا نشهد عليهما ونرجى أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذى يحكم بينهم وأما من لزم الجماعة فمنهم سعد بن أبى وقاص وأبو أيوب الأنصارى وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة فى عشرة آلاف من أصحاب رسول الله (ص) والتابعين قالوا جميعاً تتولى عثمان وعلياً ولا نتبرأ منهما ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالإيمان . ونرجو لهم ونخاف عليهم وأما الحرورية فقالوا نشهد على المرجئة بالصواب ثم خلطوا بعد ذلك وكفروا كل من خالفهم .

وهكذا افترق المسلمون بعد أن كانوا مجتمعين بسبب قتل عثمان ونمت هذه الفرق واختلفت فيما بعد حتى بلغت نحو سبعين فرقة كلها تنتحل الدين وكلها فرق دينية بعد أن كانت فرقاً سياسية لمحض النزاع على الخلافة يضاف إلى ذلك ما تسببه هذا الحادث — من قيام طلحة والزبير لمغالبة على ومنازعته بدعوة الطلب بدم عثمان — ومكن ذلك معاوية من الغلبة على الجميع . ولكن ما سبب هذه الفتنة ؟ إن تعليل معاوية لهذه الفتنة هو أن عمر وكل الأمر إلى ستة نفر فكل تمنأها لنفسه وتمأها له قومه ، ويعمل ذلك بن خلدون فى تاريخه بقوله : « لما استكمل الفتح واستكمل لليلة الملك ونزل العرب بالأمصار فى حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر وكان المختصون بصحابة الرسول (ص) والاقتداء بهديه وآدابه المهاجرون والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم . وأما سائر العرب من بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا من تلك الصحبة

بمكان إلا قليلا منهم وكانت لهم في الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم . فلما انحسر ذلك العباب وزاد العدد واستفحل الملك كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمجاهدين والأنصار من قريش وغيرهم فأنفقت نفوسهم منها ووافق أيام عثمان فكانوا يظهرون الطعن في ولائه بالأمصار والملاحظة لهم باللحظات والخطرات والاستبقاء عليهم في الطاعات والتجنى بسوء الاستبدال منهم والعزل والفيض في النكير على عثمان وفشت المقالة في ذلك في أتباعهم وتنادوا بالظلم من الأمراء في جهاتهم وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة فارتابوا لها وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل أمرائه وبعثوا إلى الأمصار من ياتيههم بصحيح الخبر (ثم انتهى ذلك كله بقتل عثمان) .

ومن رأى المرحوم الأستاذ عبد الحميد الزهراوى أن العرب كانت قبائل متفرقة متعادية يأكل القوى منها الضعيف فما لبثوا حتى اجتمعت كلمتهم واحددت وجهتهم ولانت منهم قسوة . فلما مات رسول الله (ص) يظهر أن القليلين من الذين كانوا لم يتخلوا عن المساوىء ولم يتحلوا بالحاسن . قد صاروا كثيرين بدليل ما حدث من حروب الردة وهذا يدعونا ألا نفرس الصحابة بالتفسير المشهور . وهو كل من رأى النبي وآمن به بل نحن نفرس الصحابة بما تساعد عليه اللغة فهم الذين صحبوا النبي (ص) صحبة حقيقية يصح أن يطلق عليها لغة وعرفا اسم الصحابة فهؤلاء وأمثالهم هم الصحابة الحقيقيون وهؤلاء وأمثالهم الثقات العدول وأما أولئك الأعراب الذين كانوا يفدون عليه ولم يكونوا يلبثون عنده إلا عشية أو ضحاها فيقال

لهم مسلمون لمحمد ولا يصح على هذا التفسير الحقيقى أن يقال إنهم صحابة وإذا ثبت هذا فالاختلاف الذى جرى بين الصحابة لا شك أن جرثومته من فئة لم تأخذ بنصيب وافر من صحبة النبي ولم تتصلح من التهذيب الحمدي . من هذا استنتج .

(١) أن القبائل البدوية كانت آلة بيد رجال من قريش وأكثر أفرادها لم يكونوا قد رأوا النبي (ص) فضلاً عن أن يصحبوه .

(٢) والقبائل البدوية كانت متعادية فى الجاهلية ولما تأخت فى الإسلام كان عرق العداوة يضرب فى بعضها أحياناً فكانت كل قبيلة تشايح رئيساً من رؤساء قريش وتتمنى له الدولة ابتغاء أن تتميز لديه على أعدائها الأقدمين .

(٣) وهذه القبائل البدوية كان قد أضربها جهد العيش وكانت تتربص فى البلاد التى افتتحتها أن تتصلح من نعيمها وكانت تتحين أن تنقلب رتبة الخلافة التى معناها اقتفاء أثر النبي (ص) إلى رتبة سلطنة وملك ومعناها اقتفاء آثار الملوك الذين كانوا يعرفون سيرهم وسير كبرائهم فى البذخ والاستثثار وتوارث المناصب بالأنساب والخيال لا بالمواهب والعمل .

إن الأمم العجمية من روم وفرنس وسريان وعبرانية وغيرهم من لم يدخل فى الدين منهم لا ظاهراً ولا باطناً ومن دخلوا فيه ظاهراً فقط كانوا لا يألون جهداً يث الساس ليهدموا ذلك المجد العربى الذى شادته تلك الدعوة المحمدية على أيدي أنصارها الحقيقين ومن دخل فيه ظاهراً وباطناً كانوا جهلاء بهذا ولم ينتزع من قلبهم حب عادات سالفة لهم قومية أو دينية .

فاختل بعض الاختلال ذلك المحيط الذى كان بالأمس أصبح محيط على

وجه الأرض ولم يكن اختلاله في أيام أبي بكر ولا عمر إلا طفيفاً وأما في أواخر خلافة عمر فاشتد ذلك المرض الذي حاق بذلك المحيط وما برح يشتد فيما بعد حتى سقطت قبة الخلافة في أواخر أيام علي . ويرى ولهاوزن أن من أسباب الفتنة قلة ما كان يوزع على المحاربين من الفئ . ولم يعوض عن ذلك كثرة الغنائم في الفتوح — بحجة أن المال هو مال المسلمين لا مال الله . وقد ابتدع عمر هذه الفكرة لتقوية مال الحكومة ولكن أحداً لم يثر عليه لشدة وحزمه فلما استلنوا جانب عثمان كانت الفرصة سانحة للثورة . . . ويرى رفيق بك العظم أن المسلمين لم يتلافوا أمر هذه الفتنة لأمرين : الأول عدم توفر الشورى والاختيار في البيعة بحيث أخذت الخلافة شكلاً ترك تغرة كبرى للولوج إليها من طريق القوة والتغلب فأوجد نزاعاً مستمراً من أجلها في الأمة أفضى إلى مصير الأمر بيد الغالب والغالب لا يتقيد بالشورى ولا يجارى رغائب الأمة بالضرورة . والثاني اصطباغ الدولة منذ نشأتها بصبغة دينية مهدت السبيل لأولياء أمر الأمة بعد الخلفاء الراشدين للأخذ على أيدي الرعية وأفواهاها باسم الدين وجعل الحياة السياسية للأمة حياة دينية لا سبيل معها لنوابغ الأمة وعقلاؤها للتنقل بها في مدارج الرقي الطبيعي الذي تقتضيه حالة كل عصر سواء كان في حياة الأمم السياسية أو حياتها الاجتماعية لا سيما بعد أن قالوا بجرمة الاجتهاد ووقفوا عند حد محدود من الفروع . وهذا ما جعل ذلك الضعف الكامن ينمو في جسم الأمة نمواً جعلها تأنس بحياة السكون والاستسلام وتعطى أزمتها إلى الأمراء والحكام حتى في عصر زال فيه الاعتقاد بوجوب الطاعة العمياء للأمراء وجوباً دينياً

ومع هذا الخلاف الشديد بين المسلمين فقد استطاع معاوية وأهل بيته من الأمويين أن يقضوا على هذه الخلافات بشق الوسائل ويؤسسوا إمبراطورية من أوسع الإمبراطوريات تملأ فيها مآذن المساجد في الهواء ويؤذن المؤذنون فيملأون الجو بأذانهم وبذلك اتسعت رقعة العالم الإسلامي فاستولوا على أكثر الأندلس وفتحوا عدداً من المدن في جنوبي فرنسا وفي تمام المائة سنة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كان العرب يحكمون مملكة واسعة أكبر من المملكة الرومانية تمتد من حدود الصين إلى شلالات النيل السفلى ومن الجنوب الغربي في أوروبا حتى غربي آسيا وأواسطها . وعاصمة هذه المملكة دمشق . كما استطاعوا أن يغيروا أكبر مظهرين من مظاهر المملكة وهما : تحويل الدواوين إلى عربية وتخلصهم من الدخلاء الذين كانوا يضطرون إليهم في تدوين الدواوين . والثاني صك النقود . وقد ظلوا طوال هذه العهود يتعاملون بالنقود الرومانية والفارسية فلما اطمأنوا واتسع ملكهم بدءوا يصكون نقودهم بأنفسهم وبذلك أصبحت هذه المملكة الواسعة مملكة بمعنى الكلمة وقد بلغت هذه المملكة أقصى سعتها في هذا العصر الأموي ثم أخذت تنشق قليلاً قليلاً في العصر العباسي وفيما بعد ذلك من عصور .

ومعاوية انتقل الأمر من خلافة إلى ملك عضود . والفرق بينهما أن الخلافة أساسها اقتفاء أثر الرسول (ص) والاعتماد في حل المشاكل على شورى أهل الحل والعقد واختيار الخليفة منهم حسب ما يرون أنه الأصلح . أما الملك فيشبه الملوك الأقدمين من فرس وروم ، واستبداد بالرأى وقصر الخلافة على الأبناء أو الأقرباء ولو لم يكونوا صالحين لذلك وهذا كله

ما فعله معاوية . ونموذج الخلافة ما قاله الأعرابي لعمر : « لو رأينا فيك
إعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » ونموذج الملك ما قاله عبد الملك بن مروان : « من
قال بلسانه هكذا قلنا بسيوفنا هكذا . » والحق أن معاوية ساد الناس بالغلبة
لا بالاختيار ثم استبد بتسيير الأمور .

ثم عهد بالخلافة إلى ابنه يزيد ولو لم يكن أكفأ الناس ثم ساس الناس
سياسة ميكيا فيلية استبدادية لا عهد للناس بها من قبل وجرى المسلمون
بعد ذلك على أثره من بيت عباسي بعد بيت أموي وهكذا . وضاع معنى
الخلافة التي سار عليها الخلفاء الراشدون كما ضاع معنى العدل الذي تشدد
الإسلام في العمل والتعامل به . وأصبح الأمر أمر سياسة حسما تتطلبه
الغلبة لا عدل حسما يتطلبه الإسلام .

فلما جاء يزيد خرج الحسين بن علي عليه واشتد الخلاف بينهما وانتهى
الأمر بقتل الحسين ، وما كان يظن أن القوم يجرءون على قتله وهو سبط
رسول الله وكان قتله فاتحة شر كبير على الإسلام فقد قسم المسلمين : شيعة
يلتهبون عاطفة لأهل البيت ، وسنية يرونهم خارجين على سياستهم يستحقون
عليها التأديب والقتل وبكم المسلمون الحسين ولا يزالون يذكرونه ويتألمون بجميعة
إلى اليوم . وتعقد الشيعة في العاشر من المحرم اجتماعات مؤثرة فيضربون صدورهم
بأيديهم وبالسلاسل ويشجون رؤوسهم بالحديد ، فيهلك بعضهم . ومن
ذلك الحين كان الشيعة ينصبون عليهم إماما من أهل البيت والأمويون
والعباسيون ينصبون عليهم خليفة من البيت الأموي أو العباسي وكل يرى
أنه أحق بالأمر ويكون بين الإمامين صراع ينتهي بقتل الإمام الشيعي .

وحسبك دليلاً على شدة هذا الصراع أن الأمويين قتلوا في عهدهم ستة وثلاثين من أهل البيت . ويسار العباسيون سيرتهم ففي عهد السفاح والمنصور قتل تسعة عشر رجلاً من أهل البيت وقد جمع أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الكبير « مقاتل الطالبين » الذي يبلغ نحو ثمانمائة وخمسين صفحة أسماء من قتلوا من غير ذكر لتاريخهم ولم يكن ذلك إلا إلى عهده وقد توفي سنة ٣٥٦ . وبعد قليل من مقتل الحسين كانت المأساة الأخرى وهي قتل عبد الله بن الزبير في عهد عبد الملك بن مروان ، ولم يمض على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاث وستون سنة ، وولى عبد الملك الحجاج لمقاتلة ابن الزبير فاستأذن في نصب المنجنيق على الكعبة فنفر أخيارها وهتك أستارها ورمى أحجارها وقال الشاعر :

خرجنا لبيت الله نرمى ستوره وأحجاره ، زفن الولائد في العرس
 دلفنا له يوم الثلاثاء من منى بجيش كصدر الفيل ليس بذى رأس
 وكانت حادثة فظيعة إذ جرؤ فيها الحجاج وجنده على رمي الكعبة
 بالمنجنيق وكانت مقدسة مهيبة حتى قبل الإسلام فكان الناس يتعجبون من
 الحجاج ويقولون « خذل في دينه » . ولما رمى الكعبة بالمنجنيق ارتجت
 ووهنت وارتفعت سحابة ذات برق ورعد فسقطت صاعقة على المنجنيق
 وأحرقتة وقتلت من أصحابه اثني عشر رجلاً فذعر أهل الشام من ذلك
 وكفوا عن القتال فقال الحجاج أنا ابن تهامة وهي بلاد كثيرة الصواعق
 فلا يروعنكم ما ترون فإن من قبلكم كانوا إذا قربوا قريباناً بعثت نار
 فأكلته فيكون ذلك علامة تقبل القران . وأتى بمنجنيق آخر وعاد الرمي

وفي ذلك قال ابن الزبير الأسدي :

أيها العائد في مكة كم من دم أجرته في غير دم
إنه عائدة معصمة وبه يقتل من جاء الحرم

واستمر في قتاله ورميه الكعبة حتى قتل ابن الزبير إذ أصابته جراح فمات منها بعد أيام وحمل رأسه إلى الحجاج ثم إلى عبد الملك وصلب جسمه في مكة ولما مر عبد الله بن عمر بجسمه قال : « رحك الله أبا خبيب فقد كنت صواماً قواماً ولكنك رفعت الدنيا فوق قدرها وأعظمتها ولم تكن لذلك بأهل » . ثم إن الحجاج دخل المسجد ولمّ شعثه وجمع أشلاء القتلى وغسل دمه .

وكان مما أخذ على الحجاج أنه كان ينوى أشد من ذلك فلما خرج من مكة إلى المدينة قال : « الحمد لله الذي أخرجني من أم الفتن ، أهلها أخبث أهل ولولا ما كان يأتيني من كتب أمير المؤمنين فيهم لجعلتها مثل جوف الحخر أعواداً يمودون بها ورمة قد بليت ، يقولون منبر رسول الله وقبر رسول الله » . وانهت المأساة بالجرأة على الكعبة بعد تقدسها وانتهاك المسجد الحرام والشهر الحرام والبلد للحرام وتزلزل الدين في نفوس المسلمين . وكان من رجال الدولة الأموية عبد الملك بن مروان وكان شديداً قوياً استطاع أن يقضى على الخلافات وحكم بلاده حكماً مطلقاً ودعا إلى بلاطه الأخطل الشاعر النصراني من قبيلة تغلب .

وفي عهد ابنه الوليد اتسعت الفتوح التي حصلت على يد قتيبة ابن مسلم فقد فتح فتوحاً واسعة فيما وراء النهر واجتاز العرب في الغرب في عهد

الوليد جبل طارق واستطاع أن يتخلص من النصارى الذين كانوا يحتكرون الأعمال الإدارية في الدولة مثل أسرة سرحون بن منصور التي كانت تسيطر على الشئون المالية من عهد معاوية إلى عهده وبنى الجامع الأموي في دمشق إذ كان المسلمون إلى ذلك الحين يكتفون بمسجد صغير متواضع وعظمت في أيامه ثورة الخوارج وثورة ابن الأشعث وقتلهم الحجاج حتى أخضعهم . ومن رجالات الأمويين أيضاً عمر بن عبد العزيز وكان أمة وحده ، خالف الأمويين في نزعتهم واستبدادهم فأحاط نفسه بفقهاء متضلعين في الإسلام يستشيرهم ويعمل برأيهم ، وكانت أمه تنسب إلى عمر بن الخطاب فسمته عمر ، وكان يعتز بهذا النسب ويشرب أن يسير سيرته في العدل ، فلما بدأ خلافته رأى أن الإصلاح الداخلى للبلاد التي دخلت في الإسلام خير من الاستزادة في الفتوح ، ولذلك أمر قواده بالتراجع ، واستمال العلويين الذين كانوا مضطهدين أشد الاضطهاد من الأمويين ، وصالحهم وأبطل سب على الذي كان يجرى على المنابر يوم الجمعة باستمرار ورد إليهم بلدة فذلك التي احتفظ بها النبي لنفسه في حياته ولم يورثها أبو بكر وعمر فاطمة بنت النبي استناداً على حديث : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا صدقة » .

كذلك استمال النصارى فعوضهم عن كنيسة القديس يوحنا في دمشق ، التي كان الوليد وضع يده عليها ، بكنيسة القديس توما في القوطة بعد أن كانت قد تحولت إلى جامع ، وخفف من الجزية المفروضة على النصارى في قبرص وأيالة وعامل الموالي المسلمين معاملة العرب المسلمين فرفع عنهم الجزية التي كان قد فرضها عليهم عمر بن الخطاب ، وسمح للمسلمين أن يملكوا الأراضي

والدنيا مدبرة . وحكم الأمويون البلاد حكماً قليلاً عربياً فكانوا يقربون بعض القبائل وينكحون بالأخرى وولاتهم مثلهم .

وفي هذا العصر اشتد التمازج بين النزعة العربية والنزعة الاسلامية من جهة وتقاليد الأمم المفتوحة كمصر وفارس ، فكانت العادات القديمة ينظر إليها بعين الاسلام فما وافق منها قبلت وإلا رفضت ، فانبثت بين المصريين مثلاً عادات كثيرة رومانية وانبث في العراق عادات كثيرة فارسية ، حتى الفقهاء أنفسهم كالشافعي في مصر والأوزاعي في بيروت وأبي حنيفة في العراق تأثروا بالقوانين الرومانية والفارسية التي كانت معروفة قبل الاسلام في تلك البلاد . وأخيراً سقطت الدولة الأموية فكان سقوطها عبرة للمسلمين ، ولعل من أهم أسباب سقوطها أنه على أثر قتل يزيد بن معاوية للحسين طويت قلوب الشيعة على الإحن وودوا لو أتيحت فرصة للخروج على الأمويين وظلوا يعملون في الخفاء في بذر الدسائس والمؤامرات فانتشرت الدعوة ضد الأمويين انتشاراً عجيباً ، وكان مما زاد كرههم قصر الأمويين من عهد معاوية الخلافة وتولية العمل عليهم وعلى من يلوذ بهم .

والأمويون اعتبروا أنفسهم غاصبين للخلافة فلم يتمكنوا منها إلا بالقوة والفسر ، والغاصب دائماً خائف والمغصوب دائماً يسترعى عواطف الناس ، حتى في أيامنا هذه إذا اضطهد رجال السياسة أحداً حباه الرأي العام بعطفه . فاضطر ذلك الأمويين إلى التجسس على العلويين وإرهابهم والتكيل بهم وهذا ما جعل عبد الملك بن مروان يستعمل منتهى القسوة في إخماد هذه الفتن ويده اليمنى في ذلك الحجاج وتنسب إليه الخطبة التي يقول فيها : « ألا وإني

لا أداوى أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم . تكلفوننا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم فلا تزدادوا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم . هذا عمرو بن سعيد قرابته قرابته وموضعه موضعه قال برأسه هكذا فقلنا بأسيافنا هكذا . ألا وإنا نحمل منكم كل شيء إلا وثوباً على أمير أو نصب راية . ألا وإن الجامعة (العُلّ) التى جعلتها فى عنق عمرو بن سعيد عندى . والله لا يفعل أحد فعله إلا جعلتها فى عنقه . والله لا يأمرى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه . ولئن شك بعض الرواة فى هذه الخطبة فإنها تعبر تعبيراً صادقاً عن عبد الملك ، ثم إن أقارب الحسين ونسله الذين كانوا أطفالاً أيام مقتل الحسين قد كبروا فيما بعد وصاروا رجالاً قادرين على العمل ضد الدولة الأموية إما بأيديهم أو بدسهم أو بقلبيهم .

وسبب آخر فى سقوط الدولة الأموية وهو أن بنى أمية لم يراعوا جانب رجالهم العظام فاستغلّوهم ثم سجنوهم أو أهلكوهم ؛ فوسى بن نصير فاتح الأندلس وخالد بن عبد الله القسرى ويزيد بن المهلب وقتيبة بن مسلم وأمثالهم كلهم كانوا رجالاً عظاماً وخدموا الدولة خدمة كبرى وكانوا أحق بالتبجيل والتعظيم ، ولو كانوا فى أوروبا اليوم لأقيمت لهم التماثيل وأشيد بذكورهم كل الإشادة ، ولكننا نرى موسى بن نصير قد زج به فى السجن ثم مات أشنع موة ، ويزيد بن المهلب نكل به ، وقتيبة بن مسلم فاتح ما وراء النهر لم يكافأ . على عمله أية مكافأة بل عذب وأهين ، وهذه الأعمال وأمثالها تضعف من نفس المستعدين للنبوغ والعمل الباهر فإذا وجدوا غيرهم من النابغين قد كوفئوا شر مكافأة فت ذلك فى عضدهم .

وسبب ثالث وهو أن المملكة الإسلامية في العهد الأموي قد اتسعت رقعتها كثيراً فكان من الصعب ضبطها وحسن إدارتها فتدخلت إدارتها ، ولم يكن كثير من الولاة من الخلفاء بالعظمة التي يستطيعون بها وضع هذه الرقعة الواسعة في أيديهم فذهب فيها الفساد .

وسبب رابع وهو أن الخلفاء كما روى عنهم مالوا إلى الترف والنعيم ميلا ازداد بالتدريج مع الأيام ، فبعضهم في أول أمره أباح شرب الخمر في مجلسه ثم تطور الأمر إلى أن شربوها هم أنفسهم .

وكان الشعر الأموي سجلا لما كان هنالك من أحداث . فالأحقاد القبلية قد عادت واتخذت أشكالا جديدة أكثر عنفاً ، وكان الصراع بين قيس وكتب قد اشتد طوال عشرات السنين فظهر ذلك في العصر الأموي . وكان شاعر البلاط وهو الأخطل يختمهم مع منافسيه جرير والفرزدق في الهجاء المقتدع ، وانقسم الشعراء إلى الفرق السياسية ، كما افترق الناس فكان عبد الله بن قيس الرقيات شاعر عبد الله بن الزبير ، والسكيت كان يناضل عن حق آل النبي في الخلافة .

وبعد أن كان التشبيب بالنساء مقصوراً على مقدمات القصائد ظهر عمر بن أبي ربيعة في مكة في عهد عبد الملك يضم القصائد الطويلة في الغزل وجعلها وقفاً على التغزل بمليحات النساء وخصوصاً الحاجات منهن من غير إعلان للجوى ولوعة الفراق كما كان الشأن عند الجاهليين . وأمعن أهل مكة والمدينة في الترف لما نُحُوا عن السياسة ، وفتح الوليد الثاني الخليفة في دمشق باباً جديداً في الشعر العربي وهو القصيدة الخمرية ، نغم كان الأعشى يقول في

الخر ولكن لم يبلغ ما بلغه الوليد ، فإخا قلنا إن الوليد الثانی مخترع فن الخر
 في الإسلام حقاً — وهو الفن الذي نما وازدهر في ظل العباسيين — لم نبعد .
 وكان إمامه في ذلك عدى بن زيد النصراني الذي لمع نجمه في آخر عهد
 المذاذرة في الحيرة . وأسرف الوليد في الخر والنساء وترف الحياة ونعيمها وأنفق
 كل ما كنزه هشام من المال فشدد على الولاة والعمال في إرسال الأموال
 لإرواء شهواته .

ثم أخيراً قتل في يوم كيوم عثمان ، وفي يده مصحف كمصحف عثمان .
 وقد اتخذ الأمويون جميعاً الشعراء كما تتخذ الأحزاب اليوم الجرائد والمجلات
 للدعاية لها والذود عنها ، فاتخذ معاوية الأخطل وكان هوى جرير في آل
 الزبير فاستقدمه الحجاج وأكرم وفادته واستماله بإحسانه إليه فمدحه بقصائد
 عدة ثم وفد جرير على عبد الملك فأنشده القصيدة المشهورة في مدح بني أمية
 وهي التي يقول فيها :

أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
 وكان هوى الفرزدق مع علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب
 وقال فيه :

هذا الذي تعرف الطحفاء وطائنه والبيت يعرفه والحل والحرم
 هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقي الطاهر العلم
 وكان هوى نصيب الشاعر الأسود مع بني أمية خصوصاً عبد العزيز بن
 مروان وهشام بن عبد الملك ، وقد أحبه عبد العزيز فابتناعه ثم أعتقه . وكان من
 أشد الناس تعصباً للبيت العلوي كثيراً عزة وقد غالى في التشيع وذهب

مذهب الكيسانية وقال بالرجعة والتناسخ وصرح بمذهبه وجادل فيه خصومه ،
ومع ذلك لم يضطهده الأمويون بل عاملوه معاملة حسنة وأجلوه حتى
لا ينالهم أذاه .

وإلى جانب الشعر كان الغناء فى الحجاز وكانت الحجاز تصدر المغنين
والمغنيات لقصور الخلفاء ومن أولهم معاوية كان يهوى سماع حكمة الشعر تصدر
مع جمال الألحان . وذكر صاحب العقد أن بديحا المغنى غناه شعراً فى فتاة
كانت تتولى خضابه فقال :

أليس عندك شكر للى جعلت ما ابيض من قأتمات الشعر كالحلم
وجددت منك ما قد كان أخلفهُ صرف الزمان وطول الدهر والقدم
فطرب معاوية طرباً شديداً وقال كل كريم طروب . واشتهر من المغنيات
فى العصر الأموى سلامة القس وقد أخذت أصول الغناء عن معبد وابن
عائشة وجميلة وسميت بسلامة القس لأن عبد الرحمن بن أبى عمار الخثعمى
أحد قراء المدينة شغف بها وكان يلقب بالقس لتقاه وورعه ، وقد اشتراها يزيد
ابن عبد الملك حينما وفد إلى المدينة . وعرف بالمهارة فى الغناء طويس المغنى
وكان يجيد النقر على الدف وكان يميل لمجالسته والاستماع لإنشاده أبانُ بن عثمان
حاكم المدينة .

واتخذ الخلفاء مجالس السمر يتحدثون فيها عن الأدب ويحضرها نخبة من
كبار الشعراء ، وكانت هذه المجالس عارية عن الشراب أولاً ثم أباحوها ثم
شربوها ، واجتمع الشعراء بباب معاوية وباب الحجاج وغيره من الخلفاء
والولاة والقواد وهكذا من كثير مما لا يعرفه الإسلام .

كل هذه الأسباب تجمعت وكانت سبباً في سقوط الدولة الأموية وقيام العباسيين بعدهم ينكلون بهم ويفتكون بكل من عثروا عليه منهم .

وكان من رجال الدولة العباسية أبو جعفر المنصور وهو يشبه معاوية في الدولة الأموية قوى حازم وعلى يده تأسست الدولة ، ثم هارون الرشيد وقد كان حاد العاطفة متقلبها : تتحرك عاطفته الدينية فيكثر الصلاة ويحج ماشياً ، ثم تثور عاطفة الشهوية فيشرب ويمعن في الشراب ويحظى بالجوارى الحسان . وربما عرفت أوروبا الإسلام عن طريقه وتصورته من صورته بل ربما تصورت العالم الشرق كله ممثلاً فيه وفي ألف ليلة وليلة الذى اشتهر صيته بينهم وفيه صور كثيرة لا يرضى عنها الإسلام . ووزراؤه البرامكة كانوا كزياد بن أبيه والحجاج في الدولة الأموية إلا أن زيادا والحجاج نزعتها عربية والبرامكة كانت نزعتهم فارسية فهم من أصل فارسى وثنى يعبد النار ، فقد استعمل فيهم أيضاً عاطفته فكان لهم في الأرض حتى كانت لهم كل السلطة ثم غضب عليهم فقتل منهم جعفرًا وبعض أشياءه فصلبه بعد أن حز رأسه . ثم كان خلفه المأمون وقد كان له عقل واسع حمله ان يخدم الثقافة من طريقة اهتمامه الشخصى بالعلوم اليونانية خلال العشرين سنة التى حكمها ، فكان يشتري الكتب اليونانية حيثما اتفق ويشجع على ترجمتها ثم التأليف منها ، وحاول أن يجمع في مكتبته التى فى بلاطه والتى بيئت بالحكمة كنوز العلوم اليونانية والفارسية والهندية ، وعنى بالعلوم الرياضية ومنها علم الفلك فترجمت له مصنفات أقليدس ونقلت كتب بطليموس فى الفلك وتصويره للأرض ، وقد أمر المأمون بمراجعة جداول بطليموس هذا وأصلح منها ، وكان

ذا شغف بالمناظرات الكلامية كما حكى لنا كتب: "دل فهو يقرب المتكلمين إليه ويدخل في الجدل، مهم كما كان أبوه الرشيد يقرب الشعراء، وأيد المعتزلة ونصرهم على أهل السنة، ولما أمعن الفقهاء في شكل العبادات دون روحها واخترعوا العلل في الهروب منها أمعن الصوفية في تقديم الجانب الروحي للعبادات وفشا التصوف حتى ظهر الحلاج يدعو إلى وحدة الوجود فأفتى العلماء بقتله فقتل، ولكن قتله كان إحياء فانتشرت الفكرة وكثر التصوف وفر أتباعه إلى خراسان حيث ظهر فيها بعد الشعر الصوفي الفارسي والتركي. وكان على رأس هؤلاء جلال الدين الرومي الذي وضع كتاب المثنوى، على نظرية الحلاج في وحدة الوجود، وكان ذا أثر كبير عند الفرس والأتراك حتى عدوه القرآن الثاني وكان أساساً لطريقة المولوية التي، كثر أتباعها بين الفرس والأتراك.

وسار العباسيون سيرة الأمويين من عصبية لبیت العباس ضد البيت الأموي ومن فتنك بالأمميين وقتل كل من ظهر من الطالبين.

ولئن كان المثل الأعلى للخلفاء الأمويين هم الفساسة والمناذرة ورؤساء القبائل في الجاهلية والإسلام فقد كان المثل الأعلى للعباسيين هم الأكاسرة ولذلك نقلوا العاصمة من دمشق إلى بغداد التي أسسوها في العراق، وكان البرامكة لهم كوزراء الفرس إذ كانوا من أصل فارسي كهنوتي في نوبهار إحدى الصوامع البوذية في بلخ، وقد زعم بعضهم فيما بعد أن هذه الأسرة كانت من كهنة الفرس عبدة النار.

وكان اتساع المملكة الإسلامية في العهد العباسي سبباً في تمزيقها إرباً فخرج كثير من الولايات عنها ولم تعد الوحدة الإسلامية كما كانت فتوالى الانتفاضات

على صل الخليفة فانفصلت تونس والأندلس وابن طولون في مصر... إلخ
وتبع نشوء الولايات انحلال الخلافة على يد الأتراك واستمرت عوامل الانحلال
على توالى الأيام . وكان الإسلام في الأندلس وشمال إفريقيا كإسلام
في الشرق عصبية لا تزال تثير القبائل إلى الحروب غير أن عدو الشرقيين من
الفرس والأتراك وعدو الإسمانيين المسلمين من النصارى والمولدين كانوا يثيرون
الاضطرابات والفتن من حين إلى آخر ولذلك مالبت الأمة الإسلامية أن
ضعفت بعد القوة ، فالموحدون الذين ضموا في ملكهم الأندلس وأفريقية
كأبها إلى تخوم مصر وكانت مملكة واسعة لم تجتمع لأى من الدول الإسلامية
من قبل مالبت أن أصابها الانحلال بسبب العوامل التى ذكرناها وانتهى
الأمر بطردهم على يد الإسمانيين من الأندلس .

وأحاط العباسيون الخلافة بنوع من التقديس الدينى على النمط الفارسى ،
وشجعوا من الشعراء من أشاد بذكرهم وأعلن أحقيتهم بالخلافة وبذلوا المعطاء
لهم دون غيرهم . ويقول بعض المستشرقين ، إن مبدأ انهيار المملكة الإسلامية
كان على عهد الرشيد والسبب فى ذلك على ما يظهر أن الدولة الأموية قامت
على العصبية العربية فلما جاءت الدولة العباسية أذلت العصبية العربية وأعلت
شأن العصبية الفارسية وخاصة لما أعطيت السلطة للبرامكة فى عهد الرشيد . فلما
جاء المعتصم أضعف العصبية العربية والفارسية معاً بحجبه الأتراك والتعصب لهم ،
ورأى الأتراك أن سلطان الخلفاء يحارب العصبية فخافوا على أنفسهم وأذلهم ،
فنهزم من قتلوه ومنهم من سملوا عينيه حتى ضعفت الخلافة وزالت من
الوجود . وإنما تحمل الرشيد هذه المسئولية لأنه على يديه ويد ابنه المأمون

كانت تقوية الفرس على العرب .

وكان من أثر كثرة الفتوح وامتزاج العرب بالفرس وغيرهم من أهل الديانات الأخرى أن وجدت طائفة لا تفقه حقيقة الإسلام وتريد أن ترجع دينها السابق فسمى هؤلاء الأخيرون « زنادقة » . واجتهدت الدولة حفظاً على عقيدة الإسلام أن تقتل وتسرف في القتل وظهر ذلك أثناء القرن الأول الإسلامي ثم بلغ ذروته في القرن الثاني حيث كان مبدأ ظهور الدولة العباسية ، وكان بطل هذا الميدان الخليفة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين ، واتي هذه الفرصة لمحاربة التعصب الفارسي والشعوبية . وبلغ منه أن قتل في وقعة واحدة مئاة وأحرق كتبهم وكانت تدعو إلى مذهب ماني الذي يسمى أتباعه بالمناوية ، وكان أكثر الزنادقة من أصل فارسي يتعصب للفرس ، وقد سمي أبو جعفر المنصور ابنه محمداً بالمهدي لإيهام الناس أنه المهدي المنتظر الذي يزعمه الشيعة ، فتشدد المهدي في تقصى الزندقة والعقوبة عليها زعماً بأنه يرجع إلى عقيدة الإسلام الأولى وسيرة السلف وقتل من أجل ذلك كثيرين منهم بشار بن برد وصالح ابن عبد القدوس وغيرها . وتسليح المهدي بهذا السلاح ليقترض من أعداء العباسيين والموالين للأمويين بحجة الزندقة كسباً للرأى العام فكان في ذلك إضعاف للإسلام ، كما اتهم أكبر الناس عقلاً وأكثرهم حرية وأصحهم تفكيراً بمثل ذلك ، كعبد الله بن المقفع وأضرابه ، وصارت الدولة تحارب كل من اتسم بحرية في الفكر وذكاء في العقل وطلب إصلاح للخليفة أو الدولة مما أضر الإسلام ضرراً بليغاً .

وأسرفوا في الترف والنعيم وشرب الخمر والنساء تبعاً للحالة الاجتماعية في

ذنهم وكان مثل هذه الحالة تمثيلاً صادقاً بشار برد ولذلك عد مجدداً وقرن
 بالملهل وامرئ القيس والنايفة الذياني والأعشى وعمر بن أبي ربيعة . فأما
 الملهل فهو أول من هلهل الشعر أى رققه وحسنه ، وأما امرؤ القيس فقد
 ابتكر التشبيهات البديعة ووصف مجالسه مع النساء ، وأما النابغة فقد ذكر
 أنه مخترع الاعتذارات ووصف مجالس الملوك ، وأما عمر بن أبي ربيعة فقد
 ابتكر وصف أحوال النساء في مجالسهن ، وأما بشار فقد جدد الشعر مراعاة
 لزمناه مع جزالة ألفاظه ومتانة لفته وذكره مفاخر القبائل وأيامها وانتصاراتها
 وهو مجدد أيضاً لأنه ملأ شعره بالمعاني الجديدة والعادات الحضرية من
 نسيب رقيق وخريرات وزهريات وهجاء مقذع مع بعض العناية بالمحسنات
 اللفظية والمعاني العلمية . وقد سن ذلك كله للمولدين فقلدوه ولكنهم لم
 يبلغوا شأوه بل كل منهم اقتصر على ناحية واحدة من نواحيه ؛ فسلم الخاسر
 وأبو نواس في جزالته ، ومسلم بن الوليد في نسائياته ، وأبو تمام في معانيه .
 ثم أتى أبو نواس فتوسع في باب النساء والخمر بما لم يسبق إليه وابتكر
 فن الغزل بالذكر ، فكان هذا كله خروجاً على نمط الإسلام وتعاليمه في
 المغة وضبط النفس . وجرى الشعراء على أثره فقلدوه في غزله بالذكر حتى
 الفقهاء والصالحون وقلده الصوفية حتى في خرياته . وهذه نزعة جديدة
 لا يقرها الإسلام .

وقسم العباسيون بسياستهم الناس إلى أغنياء مترفين وفقراء مدقمين ولاهين
 لهواً تاماً وجادين جداً تاماً ليحصلوا على قوتهم فترى نظام الطبقات واضحاً
 كل الوضوح ، فجنة ونار ونعيم مفرط وبؤس مفرط وإمعان في الترف للخلفاء

والأمراء ومن يلوذ بهم من الأدباء والعلماء وبعض التجار ، وإمعان في البؤس والفقر والشقاء لأكثر الناس . وحتى غنى الأغنياء في كثير من الأحيان لم يكن حصناً بالأمان بل هو عرضة لغضب الخلفاء والأمراء ، فهم يصادرون في أموالهم فقصور الخلفاء والأمراء وأمثالهم واسعة كل السعة مترفة كل الترف ، فابن المعتز يصف في ديوانه بَنِيَّةً للخليفة المعتضد اسمها الثريا فيقول :

حلت الثريا خير دار ومزل فلا زال معموراً وبورك من قصر
فليس له فيما بنى الناس مشبه ولا ما بنى الجن في سالف الدهر
إلى أن يقول :

جنان وأشجار تلاقى غصونها فأورقن بالأثمار والورق الخضر
نرى الطير في أغصانها هواتفا تنقل من وكر لهن إلى وكر
إلى أن يقول :

وبنيان قصر قد علت شرفاته كيف نساء قد تربعن في الأزور
وأنهار ماء كالسلاسل فجّرت لترضع أولاد الرياحين والزهر
وميدان وجش تركض الخيل وسطه فيؤخذ منها ما يشاء على قدر
عطايا إله منعم كان عالماً بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر
وقد وصف الخطيب البغدادي قصر المقتدر بالله الذي تولى من سنة ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ بمناسبة زيارة رسول الروم له قال : « إنه كان المقتدر أجد عشر ألف خادم خصى من صقلبي ورومي وأسود وهذا جنس واحد ممن تضه الدار فدع الغلمان الحجرية والحواشي من الفحول ، وقد أمر المقتدر أن يطاف بالرسول في الدار وفتحت الخزائن والآلات فيها مرتبة كما

يفعل بخزائن العروس ، وقد علقت الستور ونظمت جواهر الخلافة في قلايات على درج وشيت بالديباج الأسود . ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثر تعجبه منها ، وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم عليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده ، وكان عدد ما علق في القصور من الستور الديباج المذهبة بالطرز الذهبية الجليلة المبصرة بالجلمات والفيلة والخليل والجمال والسباع والطرود والستور الكبيرة البضغائية والأرمينية والواسطية والبهنسية السواذج المنقوشة والديقية المطرزة ٣٨ ألف ستر . . . وأدخل رسل صاحب الروم إلى الدار المعروفة بخان الخيل وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهباً وفضة بغير أغشية ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال والديباج باليراقع الطوال وكل فرس في يد شاكرى بالبزة الجليلة ، ثم أدخلوا دار الوحش وكان فيها من أجناف الوحش التي أخرجت إليهم قطعان تقرب الناس وتشممهم وتأكل من أيديهم ، ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشى على كل فيل ثمانية نفر من السند والزرايين بالنار ، فهال الرسل أمرها ، ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع خمسون يمنة وخمسون يسرة ، ثم أخرجوا إلى الجوسق المحدث وهي دار بين بساتين في وسطها بركة رصاص قلعي حوالها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضة المجلوة ، طول البركة ثلاثون ذراعاً في عشرين ذراعاً ، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهب وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيها نخل وعددها ٤٠٠ نخلة وطول كل واحدة خمسة

أذرع وقد لبس جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الجمّارة بحلق من شبه مذهبة . . . وفي جانب الدار يمنة البركة تمائيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فارساً قد ألبسوا الديباج وغيره وفي أيديهم مطارد على رمالح يدورون على خط واحد جنباً وتقريباً فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد . وفي الجانب الأيسر مثل ذلك . ثم أخرجوا بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصراً إلى الصحن التسعيني وفيه الغلمان الحجرية بالسلاح الكامل ، ثم وصلوا بعد ذلك إلى حضرة المقتدر بالله إلخ » .

وقد أنشأ عضد الدولة البويهى بستاناً بلغت النفقة عليه وعلى سوق الماء خمسة آلاف ألف درهم وكان راتب أبي طاهر وزير عز الدولة من الثلج في كل يوم ألف رطل وكان الوزير المهلبى يُبتاع له في ثلاثة أيام ورد بألف دينار يفرش به مجالسه . وانتشرت مجالس الشراب ووضعت بها القواعد والقوانين والآداب كالذى حكاه كشاجم في كتابه أدب النديم .

وقد مات في سنة ٣٠١ أبو الحسين على بن أحمد الراسى عن :

٤٤٥٥٤٧ ديناراً ذهباً عينا .

٣٢٣٢٣٧ درهما عينا .

٤٣٩٧٠ مثقال وزن الأواني الذهبية .

١٩٧٥ رطل وزن الأواني الفضية .

٤٤٢٠ مثقال من العود المطرى .

٥٠٢٠ » من العنبر .

٨٦٠ نالفة من نوافج المسك .

١٦٠٠	مثقال من المسك المنثور .
١٣٩٩	مثقال من البرمكية .
٣٦٦	مثقال من الغالية .
٨٨	ثوبا من الثياب المنسوجة من الذهب .
١٣	سرجا .
٢	حجران عظيمان من الياقوت .
٧٠	خبة من اللؤلؤ .
١٣٥	رأس من الخيل .
١١٤	من خدم السودان .
١٢٨	من الغلمان البيض .
١٩	خادما من الصقالبة والروم .
٤٠	غلاما بآلاتهم وسلاحهم ودوابهم .
٢٠٠٠٠	دينار قيمة قماش من الكس
١٢٨	من المهارى والبغال .
١٢٥	خيمة من الخيام الكبار .
١٤	هودجا .
١٤	صندوقا من الفضائر الصينى والزجاج المحكم الفاخر .
	وخلف عضد الدولة البويهى ٢٨٧٥٢٨٤ دينار .
	ومن الورق والنقد والفضة ١٠٠٨٦٠٧٩٠ درهم .
	ومن الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبلور والسلاح والمتاع شيئا كثيرا .

وهكذا كان الحال في مصر والأندلس والقيروان يلقد أمراؤها أمراء بغداد .
وبجانب ذلك فقر العلماء فعبد الوهاب الغدادي المالكي أفته العلماء في
زمنه وصاحب المصنفات في الفقه كان فقيراً مدقعا . فلما وصل إلى مصر مات
لأول ما وصلها من أكلة اشتهاها فأكلها فزعموا أنه قال وهو يتقلب :
« لا إله إلا الله ، إذا عشنا متنا » . وهذا أبو حيان التوحيدى حاله ما حاله ،
وهذا أبو سليمان المنطقي لا يجد أجرة مسكنه إلى كثير من أمثال ذلك .
ولو نحن نظرنا إلى ذلك مقارنين حالهم بحال النى صلى الله عليه وسلم
والخلفاء الراشدين من بعده لنالنا العجب كل العجب مما وصل إليه بعض المسلمين
من الترف .

ولم يكن من مميزات الدولة العباسية اتساع رقعة المملكة الإسلامية ولكن
كان من طابعها الخاص تقديس الخليفة العباسى تقديساً لم يعرف في عهد
الخلفاء الراشدين ولا الدولة الأموية واعتصام الخليفة العباسى بالبردة النبوية ،
ومن مميزات أيضاً ظهور التصوف والمتصوفة كفرقة دينية . نعم كان الزهد
معروفاً في أهل الصُّفَّة في عصر النبي (ص) وفي بعض المسلمين في العصر الأموى
كالحسن البصرى ، وكان التصوف ليس مستتباً إلا إلى الإسلام فلما جاءت
الدولة العباسية ظهر التصوف في شكل آخر وظهرت فرق التصوف بعضها
نازع نزعة الفلسفة اليونانية وبعضها آخذ عن النصرانية وبعضها آخذ
عن الهندية .

كان الزهد قبل ذلك مأخوذاً عن الإسلام ليس له عنصر آخر غير القرآن
والحديث ، فأخذوا الطريقة والمريد كما كان عند النصارى الكاهن والمهتدى ،

وأخذوا منهم نظام الرهينة مع أن القرآن يقول : «ورهبانية ابتدعوها» وفي الحديث « لا رهبانية في الإسلام » وأخذوا من النصارى أيضاً حلقات الذكر ونظامها ، وكان اسم المتصوف أولاً يطلق على الزهاد المتقشفين أمثال أحمد بن حنبل ثم أطلق على هؤلاء المبتدعين المقلدين للأئمة الأخرى ، فأطلق على إبراهيم بن أدهم وأصبحت بحياته قصص تشبه قصص بوذا من هجر الملك ولبسه جبة الراعي ، وأصبح يمكن تقسيم التصوف وإرجاعه إلى عناصر مختلفة بعضها نصراني وبعضها يوناني وبعضها هندي ولكل فرقة رئيس ، كما ظهرت فرقة المعتزلة وعلى رأسها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وقد كان من عملها فلسفة الدعوة الإسلامية ؛ ذلك أن الدعوة الإسلامية التي أتى بها محمد (ص) دعوة بسيطة ساذجة لا فلسفة فيها ، تناسب حالة العرب وقت الدعوة ، فجاء المعتزلة ورأوا الأديان الأخرى من يهودية ونصرانية وبوذية وزرادشتية قد فلسفت أديانها وتسلمت في براهينها بالأسلحة الفلسفية فكان لا بد للمعتزلة أن يقابلوهم بالمثل فيحاجوهم بالفلسفة ثم عرضوا مبادئ الإسلام على الفلسفة كوحدة ذات الله وصفاته ومثل وجوب العدل على الله ووجوب مكافأة المثلث بالثواب والجزم بالعقاب باعتقاداً على قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، ثم تمسكهم بالقول بخلق القرآن ونحو ذلك .

وقد كانت عقائدهم حرة ولكن من الأسف أن اعتنقها بعض الخلفاء كالمأمون والواثق والمعتصم فحملوا الناس كرهاً عليها واستمعوا للدسائس تقال أو تحاك حول مشاهير العلماء وامتنحن الناس بخلق القرآن ، والسلطة إذا تدخلت في شيء أفسدته ، فكره الرأي العام ذلك ، وعدوا بطلا كل من

وقف في وجه الحكام ثم عذب أو أهين — وأخيراً جنت عليهم هذه القسوة فاكتمسح الرأى العام هذه العقيدة مع الأسف وتلقى المتوكل الرأى العام فقضى على الاعتزال ونصر المحدثين . وهكذا من ضروب الفرق التي شتتت الإسلام وأهله وأبعدته عن البساطة الأولى، وفرق كبير بين حجج القرآن وحجج اليونان فحجج القرآن مبنية على المشاهدة وإشعار القلب بقدرة الخالق من مثل قوله تعالى :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت .

« وإلى السماء كيف رفعت .

« وإلى الجبال كيف نصبت .

« وإلى الأرض كيف سطحت » .

وحجج لليونان مبنية على المنطق من مثل :

هذا العــــــــالم حادث .

وكل حادث لا بد له من محدث .

ونحو ذلك من ضروب الأقيسه المنطقية ، وفعل الشعور في الإنسان أقوى من فعل العقل الذي يعتمد عليه مذهب المعتزلة . وكما حورب المعتزلة بواسطة الخلفاء كالمتموكل حوربوا أيضاً من العلماء أمثال الأشعرى الذي تعلم على الجبائى المعتزلى ثم رد على المعتزلة وشنع عليهم حتى دحرمهم . ومع الأسف كانوا يمتازون إذ قورنوا بمنهج أهل الحديث بحرية العقل والتفكير وعرض الإسلام على محك المنطق ومن غير شك كان يكون أمر المسلمين أحسن حالا وأكثر حرية لو انتصروا على المحدثين فإن انتصار المحدثين كان معناه مع الأسف

الركود والاعتماد على النقل أكثر من الاعتماد على العقل وعلى أقوال المؤلفين أكثر من المبتكرين ، ولهذا قل أن تجد في المؤلفين مبتكراً فإن عدت رجلاً كابن خلدون أو جمال الدين الأفغاني عدت ندرة تقاوم وتحارب لا تؤيد وتعصد .

وطريقة الإسلام الاعتماد على ال Induction أعنى الاستقراء فهو يتتبع المسائل الجزئية ما أمكن، ثم يستنتج منها القاعدة الكلية كما فعلوا في النحو والصرف فكانوا يتتبعون الجزئيات المعروفة ليستنتجوا منها قاعدة (الفاعل مرفوع) . أما الفلسفة اليونانية أو فلسفة أرسطو فعمادها على ال Deduction أى الاستنتاج فهم يضعون القاعدة الكلية ثم يستنتجون منها النتائج الجزئية كقولهم إن الأجسام تتمدد بالحرارة فالحديد جسم إذن فالحديد يتمدد بالحرارة . . . وهكذا . وقد أدتهم طريقة الاستقراء هذه إلى الأمان في الشك والتجربة فزى كثيراً مما كتبه الجاحظ في كتاب الحيوان يبتدىء بالشك ثم يعرض على محك التجربة ، ولا بأس عنده أن يخطئ أرسطو فيما قاله ويفضل عليه أعرابيا بدويا فيما قاله . وسار النظام على هذا حتى في الأحاديث النبوية فكان يشك فيها أولاً ثم يعرضها على مقتضى العقل ليعرف أصحها هي أم غير صحيحة ؟ فكان الغزالي والجاحظ أسبق إلى الشك من ديكارت ، وكان مسكويه أسبق من داروين في تقريره مذهب النشوء والارتقاء في كتاب تهذيب الأخلاق ، وكان الطوسي أسبق من إينشتاين في فهم الزمنية ، غابة الأمر أن مواد العلم الأولية كانت لهؤلاء المتأخرين أوفر والزمن لهم أعون والحقائق عندهم أكثر اتضاحاً والتعبير أبين ويسودهم مذهب التحليل أكثر من مذهب التركيب ، فما يقوله علماء العرب في جملة يقوله

المتأخرون من الأوروبيين في كتاب وهكذا . وقد نسبوا إلى روجريكون أنه أول من قال بالاستقراء في النهضة الأوروبية الحديثة مع انه خريج الجامعات العربية في إسبانيا . وعيب العرب أنهم لم يجدوا من يمجدهم . ومزية الأوروبيين أنهم يمجدون دائماً من يعلى شأنهم وهكذا الشأن في ابن خلدون فإنه سبق ديكرت في تأسيسه علم الاجتماع ، والفرق بين كتب الاثنين أنه أيضاً بنى كتابه على مذهب الاستقراء الذي سار عليه العرب أكثر مما سار على مذهب الاستنتاج الذي سار عليه الأوروبيون .

* * *

والمنقصة الثانية للعرب منقصة العصبية القبلية ، فقد حارب الإسلام هذه العصبية ودعا إلى الوحدة وقال ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية ، ومع ذلك ما لبث العرب أن عادوا إلى عصبيتهم كما كانوا في الجاهلية . والتاريخ الإسلامي مملوء بحوادث العصبية في الشرق والأندلس وحيث كان العرب .

قال ابن خلدون في أول الجزء الثالث مصدراً الكلام على الدولة الأموية « كان لبني عبد مناف في قريش جمل من العدد والترف لا يناهضهم فيه أحد من سائر بطون قريش وكان فخذهم — بنو أمية وبنو هاشم — حياً جميعاً ينتمون لعبد مناف وينسبون إليه وقريش تعرف ذلك وتسأل لهم الرياسة عليهم ، إلا أن بنى أمية كانوا أكثر عدداً من بنى هاشم وأوفر رجالاً ، والعزة إنما هي بالكثرة وكان لهم قبيل الإسلام شرف معروف . ولما جاء الإسلام ودهش الناس بما وقع من أمر النبوة والوحي وتنزل الملائكة وما وقع من خوارق الأمور نسي الناس أمر للعصبية مسلمهم وكافرهم ؛ أما المسلمون فنهام

الإسلام عن أمور الجاهلية كما في الحديث : « إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وخرها لأننا وأنتم بنو آدم وآدم من تراب » . وأما المشركون فشغلهم ذلك الأمر العظيم عن شأن العصائب ، ولذلك لما افترق أمر بني أمية وبني هاشم بالإسلام إنما كان ذلك الافتراق بحصار بني هاشم في الشعب لا غير ، حتى كانت الهجرة وشرع الجهاد ولم يبق إلا المعصية الطبيعية التي لا تفارق وهي نكرة الرجل على أخيه وجاره في القتل والعدوان عليه فهذه لا يذهبها شيء ولا هي محظورة بل هي مطلوبة ونافعة في الجهاد . ثم إن شرف بني عبد مناف لم يزل في بني عبد شمس وبني هاشم فلما هلك أبوطالب وهاجر بنوه مع رسول الله (ص) وحمزة كذلك ثم من بعده العباس والكثير من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم خلا الجو حينئذ من مكان بني هاشم بمكة واستغلظت رياسة بني أمية في قريش ثم استحكمتها مشيخة قريش من سائر البطون في بدر وهلك فيها عطاء بني عبد شمس عتبة وربيعة والوليد وعقبة بن أبي معيط وغيرهم .

فاستقل أبو سفيان بشرف بني أمية والتقدم في قريش وكان رئيسهم في أحد وقائدهم في الأحزاب وما بعدها . وقد من رسول الله (ص) على قريش بعد أن ملكهم . وشكت مشيخة أمية بعد ذلك لأبي بكر ما وجدوه في أنفسهم من التخلف عن رتب المهاجرين الأولين وما بلغهم من كلام عمر في تركهم شورا . فاعتذر لهم أبو بكر وقال أدركوا إخوانكم بالجهاد وأنفذهم لحروب الردة فأحسنوا الغناء عن الإسلام . ثم جاء عمر فرمى بهم الروم وأرغب قريشاً في النفير إلى الشام فكان معظمهم هنالك ، واستعمل يزيد بن

أبى سفيان على الشام وطال أمد ولايته إلى أن هلك في طاعون عمواس ،
فولى مكانه أخاه معاوية وأقره عثمان من بعد عمر ، فاتصلت رياستهم على
قريش في الإسلام برياستهم قبل الفتح ، وما زال الناس يعرفون ذلك لبني أمية .
ولما هلك عثمان واختلف الناس على علي كانت عساكر على أكثر عدداً لما كان
الخلافة والفضل إلا أنها من سائر القبائل من ربيعة وعين وغيرهم وجموع
معاوية هي جند الشام من قريش شوكة مضر وبأسهم نزلوا بثغور الشام
منذ الفتح فكانت عصبية أشد وأمضى شوكة ، ثم كسر من جناح على
ما كان من أمر الخوارج وشغله بهم إلى أن ملك معاوية وخلع الحسن نفسه
واتفقت الجماعة على بيعة معاوية عند ما نسي الناس شأن النبوة والخوارج
ورجعوا إلى أمر العصبية والتغالب ، وتعين بنو أمية للغلب على مضر وسائر
العرب ومعاوية يومئذ كبيرهم فاستوت قدمه واستفحل شأنه واستحكمت في
أرض مصر رياسته وتوثق عقده وأقام في سلطانه عشرين سنة ينفق من
بضاعة السياسة التي لم يكن أحد من قومه أوفر فيها منه يداً من أهل
الترشيح من ولد فاطمة وبنى هاشم وآل الزبير وأمثالهم ، ويصانع رموس العرب
وقروم مضر بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكره ، وكانت غايته
في الحلم لا تدرك وعصابته فيها لا تنزع ومراقته فيها تزل عنها الأقدام . »

وقد ألف المقرئ كتاباً لطيف الحجم سماه « النزاع والتخاصم فيما بين
بنى أمية وبنى هاشم » وقد ذكر فيه ما يدل على أن النزاع بينهم قديم ،
فمثلاً كانت المنافرة بين هاشم بن عبد مناف بن قصي وبين ابن أخيه أمية
ابن عبد شمس ، وسببها أن هاشماً كانت إليه الرفادة مع السقاية لأن أخاه

عبد شمس كان يسافر ، وكان أمية يقيم بمكة وكان أمية رجلاً مقلداً ، ولعبد شمس ولد كثير فاصطلحت قريش على أن يولى هاشم السقاية والرفادة ، وكان هاشم رجلاً موسراً ، وكان إذا حضر موسم الحج اعتبر الحجاج ضيوفه فأكرمهم وأطعمهم وسقاهم . وكان أمية قد صنع في الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحد من العرب : « زوج ابنه أبا عمرو بن أمية امرأته في حياته . وأبو معيط ابن أبي عمرو بن أمية زاد في هذا المقت . ونافر حرب بن أمية عبد المطلب ابن هاشم من أجل يهودى كان في جوار عبد المطلب فما زال أمية يفرى به حتى قتل وأخذ ماله في خبر طويل ، وتمادت العداوة بين البيتين إلى أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام بمكة . يدعوا قريشاً إلى توحيد الله تعالى وترك ما كانت تعبد من دون الله . فعاداه جمع كبير من أمية ثم كان الحكم بن أبي العاص بن أمية . وكان عاراً على الإسلام .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة يشتمه ويسمعه مايكره ، ثم أسلم يوم الفتح فلم يحسن إسلامه ، وكان مغموطاً عليه في دينه . وما زال منفيًا في زمن رسول الله (ص) وخلافة أبي بكر وعمر ثم أعاده عثمان وكان ذلك مما أنكر الناس عليه . وكان أعظم الناس شؤماً على عثمان . وقد مات في خلافة عثمان ، وضرب على قبره فسطاط ، وقالت له عائشة يوماً : « أشهد أن رسول الله لعن أباك وأنت في صلبه » . وكان يقال له طريد رسول الله وهو والد مروان بن الحكم الذي صارت الخلافة إليه بالغبلة . ومن ولد مروان هذا عبد الملك بن مروان الذي يقول : « لست بالخليفة المداهن ولا بالخليفة المأفون . يعنى بالخليفة المداهن معاوية ، وبالخليفة المأفون يزيد بن معاوية .

ومنهم أبو سفيان : صخر بن حرب بن أمية الذي قاد الأحزاب وقاتل رسول الله يوم أحد ، وقتل كثيراً من حيار أصحابه ؛ منهم حمزة بن عبد المطلب بن هاشم ، وقاتل رسول الله يوم الخندق . فلما تمكنوا من الخلافة حكموا الناس بهذه العصبية ، ونكلوا بالهاشميين بما كان بينهم منذ الجاهلية من عداوة . وظل الحال على هذا المنوال حتى زالت دولتهم وكل هذا يفسر ما كان من خلاف بين علي ومعاوية ، وقتل يزيد للحسين وتوالى القتل على ذرية علي . « ١٥ » .

ثم انقسم المسلمون إلى فرق مختلفة تبلغ نحو السبعين ؛ فرقة تشيع لعل وفرقة تشيع للعباسيين وهكذا ، وانقسمت كل فرقة إلى فرق مختلفة فرعية ، سميت باسم خاص كالكيسانية والسبئية في التشيع ، والنظامية والجاحظية في الاعتزال وصبغوا أنفسهم بالصبغة الدينية بعد أن كانوا أحزاباً سياسية تتنازع على الحكم .

وقد كان أمر المسلمين واحداً في صدر الإسلام وفي الحديث : « إن أهل الكتاب افرقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة تفرق على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة » والمراد بعدد سبعين كثرة الخلاف كما في الآية : « إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » . فالإسلام دين التوحيد وما أمر المسلمون إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ويكونوا أمة واحدة لا يفرقهم نسب ولا لغة ولا وطن ، وقد نهوا عن التفرق كما نهوا عن الكفر ولكن ظهر الإسلام في الأميين فلم تكد الأمم والشعوب تتبين تعاليمه حتى دخلوا فيه أفواجا ، ثم جاء قوم مثقفون في أديانهم ودخلوا في الإسلام ،

وطبقوا بعض ما عرفوا منه على ما كانوا يعرفون من أديانهم وفلسفوا الدعوة فكان هذا كله من أسباب تفرق أهله شيعاً ومذاهب ودولا كل حزب بما لديهم فرحون حتى عدوا على التوحيد نفسه بالتوجه إلى غير الله ودعوة سواء .
وبجانب التفرق في العقائد تفرق في المذاهب ولا يعرف الجمهور من هذه المذاهب إلا أربعة .

وأما التفرق باختلاف اللغة والجنس والوطن فله في العصر الحاضر دعاة من المتفرنجين هم أشد آفة من دعاة التفرق للمذاهب ؛ فمنهم من يفتخر بالفراغة ومن يفتخر بالفينيقيين وقد كان هذا الخلاف يقبل ويحتمل لو صحبته الحرية والسامح ولكن منى قوم بالعصبية تعصبوا لفرقتهم ضد غيرهم وأباحوا لأنفسهم ما لم يبيحوا لغيرهم فكان الخلاف سبباً للنزاع والفرقة .
وكان على يد المتوكل التنكيل بالفئة الحرة التفكير المسماة بالمعتزلة ، ونصرة أهل الحديث وعلى رأسهم أحمد بن حنبل .

وكان طبيعياً بعد ذلك أن يسود العالم الإسلامي - الجود فلا يستمعون لمصلحة ولا يلبون دعوة إصلاح ومبدؤهم القديم على قدمه ، من أمثلة ذلك أن السلطان سليم الثالث العثماني قد تولى منصب السلطنة وقد اضطرب أمر الدولة العثمانية وأشرفت على السقوط لتغلغل الفساد في جسم الفرقة الإنكشارية وانحلال قوى الدولة بالتحلل قوى الجندية العثمانية وانحطاط نظامها إذا قيس بنظام الجند الأوروبي الذي ظهر يومئذ بمظهر جديد مبني على الأصول العلمية والاختبارات الفنية ، فخشى السلطان إن هو لم يأخذ بأصول الجندية الجديدة ولم يرتب جيشه ترتيب الدول الأوروبية له أن تكتسح هذه الدول

مملكته العظيمة إذ ظهرت له بوادر الخطر يومئذ باحتلال نابليون لمصر وتحفز الروس للوثوب على القسطنطينية ونزوع أهل المورة للثورة ، فعزم عزماً أكيداً على تنظيم الجندية العثمانية وقبول الإصلاحات الأوروبية في البحرية والعسكرية وإلغاء الجندية الأنكشارية ، ورأى أن تعريض حياته الشخصية للخطر مع جنود الأنكشارية خير من تعريض المملكة لهجوم الدول الأوروبية ومصير الدولة العثمانية للزوال ، فقاومه علماء الدين مقاومة شديدة وفي مقدمتهم عطا الله أفندي شيخ الإسلام في عصره وحرصوا عليه العامة وأثاروا عليه الضغائن بحجة أنه يريد التشبه بالإفرنج ، وما زالوا يكافحونه مع الأنكشارية ويكافحهم حتى تغلبوا عليه وخلعوه ثم قتلوه . وجرت بعد ذلك أمور يطول شرحها على عهد خلفه السلطان مصطفى والذي يليه السلطان محمود . وقد تشجع 'سلطان محمود فأهرق سيولا من الدماء في القضاء على نظام الأنكشارية وأهلها شر قضاء ، وكذلك ما أشيع من أن الخديو إسماعيل في مصر جمع طائفة العلماء ونصحهم بأن يختاروا من المذاهب الفقهية الأربعة ما يناسب الحالة الحاضرة فأبوا إلا أن يكون الفقه فقه أبي حنيفة تقليداً للسلطنة العثمانية فأعرض عنهم وأنشأ المحاكم الأهلية والمحاكم المختلطة وقصر عملهم على سائل الأحوال الشخصية وسميت محاكمهم بالمحاكم الشرعية وهكذا .

ثم منى المسلمون بعد ذلك بالأتراك وحكمهم وسلطانهم ، جلبهم المعتصم سنة ٢١٨ ، واستقدم سنة ٢٢٠ قوماً من بخارى سمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من البلاد التي نسميها تركستان وما وراء النهر لما عرف عنهم من الشجاعة في القتال ، فأظهروا الشغب في بغداد فبنى لهم (سُرٍّ من رأى)

ومكّن لهم في الأرض ، وكما كانوا قوة للدولة في أول أمرهم كانوا آخر الأمر مصيبة كبرى على المسلمين . وبعد أن كان السلطان أول الأمر للعرب وحدهم كما هو الشأن في عهد الأمويين . كان النزاع بين العرب والفرس في عهد العباسيين الأولين ثم كان بين الفرس والعرب والأتراك من عهد المعتصم . وهم عنصر شجاع في الحرب يصل الإسلام إلى ظاهرهم وقتلا يصل إلى قلوبهم ، يعتزون بجنسيتهم ولا يقيمون وزناً لجنسية غيرهم فلم تمض اثنتا عشرة سنة حتى كان السلطان كله بيد إيتاخ التركي فكان في يده الجيش كله من مغاربة وأتراك وموال وبزبر وعرب ، ثم لعبوا بالخلفاء كلهم بالكرة ثم كان من أمرهم أن قتلوا المتوكل أول الأمر ، ثم أمروا المنتصر أن يخلع أخويه المعتز والمؤيد وأمروا المستعين أن يخلع نفسه ، واشتعلت الفتن واختاروا من الخلفاء من كان ضعيف الإرادة قليل الحيلة حتى ينعموا بالسلطان بجانبه ، ومع ذلك قتلوا بعضهم وسملوا أعين بعضهم واتهكوا الحرمات وصادروا الأموال وكان الوالي منهم يسرف على نفسه ما يسرف ثم يبني مسجداً أو سيلاً أو ضريحاً أو نحو ذلك ظناً منه أن هذا يغفر له كل ما تقدم .

ومنى المسلمون منهم بالعسف والقسوة والجور والاستبداد . ولم يكن لهم شأن يذكر في الناحية الفكرية إلا ما ندر . فإذا عنوا بشيء من الدين فظاهره لا باطنه ، وقشوره لا لبه . فإن رأيت تدهوراً في العقيدة وإيماناً بالخرافات والأوهام وكثرة في السلب والنهب إلى جانب كثرة في الأضرحة والتقاهاات والسبل وما إلى ذلك فاعلم أنه صنيع هؤلاء الأتراك .

وكانت الضربة القاسية للإسلام والمسلمين على يد المغول قال الخيصى في تاريخه .

« نهب التتر سواد آمد وارزن وميا فارقين وقصدوا مدينة اسعرد فقاتلهم أهلها فبذل لهم التتر الأمان فوثقوا منهم واستسلموا فلما تمكن التتر منهم بذلوا فيهم السيف وقتلهم حتى كادوا يأتون عليهم فلم يسلم منهم إلا من اختفى وقليل ما هم وساروا في البلاد لا مانع لسيقتهم ولا أحد يقف بين أيديهم فوصلوا إلى ماردین فنهبوا ما وجدوا من بلدها . . . ثم وصلوا إلى نصيبين والجزيرة فأقاموا عليها بعض نهار ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به ومضى طائفة منهم على طريق الموصل فوصلوا إلى قرية تسمى المونسة فنهبوا فلما فرغوا أخذوا يلاعبون على الخيل ويضحكون ويغنون بلغتهم . . . وقيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو العزبة أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد لا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس . واستولوا على اربل ولم يقف في وجوههم فارس وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها .. انظر تاريخ الخيصى ص ٣٧٦ .

وفي سنة ست وخمسين وستائة وصل الطاغية هولاکو بن نولى بن جنکيزخان إلى بغداد بجيوشه وبالكرج وبسكر الموصل فانكسر المسلمون أمامه لقتلهم ونزل قائده ياجونوس على بغداد من غربيها وهولاکو من شرقيها ثم خرج المستعصم لتلقيه في أعيان دولته وأكابر الوقت فضربت رقاب الجميع وقتلوا الخليفة ورفسود حتى مات ودخلت التتار بغداد واقتسموها وكل أخذ ناحية وبقى السيف يعمل أربعة وثلاثين يوماً وقل من سلم فبلغت القتلى ألف ألف وثمانمائة ألف وزيادة فعند ذلك نادوا بالأمان . وكان مجيء

هولاكو فيما يقال بدعوة الوزير ابن العلقمي الرافضي إذ كان يعتقد أن هولاكو سيقتل المعتصم ويعود إلى حال سبيله وعندئذ يتمكن الوزير من نقل الخلافة إلى العلويين . وقد نهب المغول دار الخلافة حتى لم يبق فيها لا ما قل ولا ما جل ثم أحرقت بغداد بعد أن قتل أكثر أهلها . ثم عدى هولاكو الفرات بجيوشه لمحاصرة حلب فلما دخلوها وضع السيف يومين وأبادوا الخلق وقصد قلعة دمشق وحاصرها التار وبالأخرة نزل أهلها وسكنها التار وسلموا قلعة بعلبك وأخذوا نابلس وغيرها بالسيف .

« وبعد أن كان العرب متجانسين في عاداتهم الساذجة البدوية ذابت فيهم العادات الرومية فمقدوا المجالس كما كان يعقدها القياصرة وتأنقوا في الملابس والسباق والزواج وأنشأوا الأعياد فكانت مجالس الخلفاء فرشها الأثاث القطنى فى الصيف والصوفى فى الشتاء على أتم أسلوب وأخف طريقة ويروون عن هشام أنه خرج حاجاً فجعل ثيابه على ظهر ستمائة جمل ورووا أنه لم يلبس ثوباً قط يوماً وفاء إليه . ويروى عن سليمان بن عبد الملك أنه قال لجارية له حجازية كيف ترين هياتى قالت أنت أجمل الناس قال أنشدنى على ذلك فقالت :

أنت خير المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان

أنت خلو من العيوب ومما يكره الناس غير أنك فان

فلما جاء العباسيون نقلوا إليهم مدينة الفرس بشرابها والتغزل بنسائها وخمرها والغزل بالمذكر والاحتفال بالنيروز والاحتفال بالورود والرياحين وإدخال الأطعمة المختلفة كالفالودج واللوزينج ونحوها والتزويد فيما يقولون وهكذا . . ولما جاء الأتراك أدخلوا عاداتهم أيضاً من فخخة وعجرفة وتعظيم بجنسهم

واحتقار لغير جنسهم واهتمام بظواهر الإسلام لا بباطنه ، وخشونة في المعاملة إلى غير ذلك .

وهكذا أصبحت الأمة الإسلامية مسرحاً لكل هذه الأخلاق والعادات بعد أن كانوا عرباً سذجاً فطريين .

وقد كان الصحابة والتابعون الأولون لا يعرفون فرقاً كبيراً بين الظاهر والباطن بل يمزجون الظاهر بالباطن فيقيمون الشمائر ويقدررون النية وفي الحديث «إنما الأعمال بالنيات» ولكن تغالى الفقهاء في أعمال الظاهر حتى اخترعوا الحيل للتخلص من أحكامها ونسى بعضهم الباطن نسياناً تاماً فظهرت المتصوفة تغلو في الباطن كما غلا للفقهاء في الظاهر وساعد على وجود المتصوفة ظلم الحكام ولجوء المتصوفة إلى الهرب من ظلمهم والاعتماد على الآخرة إذ لم تحسن الدنيا واستغل الشيعة أمر الظاهر والباطن فادعوا أن القرآن له ظاهر وباطن وأن الباطن إنما يصل إليه من الطريق اللدني الأئمة المعصومون والعلماء الراسخون وإنما العامة تفهم القشور فقط والظواهر فقط ولذلك سموها بالباطنية . والحق أن هذه النزعة الصوفية ظهرت في آخر أيام الدولة الأموية على يد الحسن البصرى في البصرة ثم ظهرت في العهد العباسى على يد جابر ابن حيان الكيمى الشيعى وأبى العتاهية في الكوفة ثم انضمت هذه الجماعات حلقات في بغداد فهم يلقون دروسهم في مساجدها وفي الأوساط الخاصة المختلفة . واستعاروا من رهبان النصارى أرديتهم الصوفية البيضاء ومن أجل ذلك سمو بالصوفية وكان على رأس هؤلاء الحاسبى الذى ولد في البصرة ثم نزل بغداد وما زال الفقه يغلو في الظاهر ولا يتعرض للباطن حتى أصبح

قشوراً كما كان التصوف يغلو في الباطن وكان مرتعاً خصبا للخرافات والأوهام والتحرر من الشعائر وارتكاب الموبقات ، واخترعوا بجانب التصوف الموسيقى والذكر والشطح والرقص وغير ذلك . وكان لهم أثر كبير في النظام الإجتماعي المتهاافت وكان من نتائج هذا الصراع الشديد بين الفقهاء والمتصوفة وتقرب الفقهاء من السلاطين لخدمتهم وتوغير صدورهم على الصوفية أن آل الأمر إلى سجن بعضهم كما فعل بمحيي الدين بن العربي وقتل بعضهم كما فعل بالخلاج والسهروردي . وإذا قلنا أن الوجدانية الخالصة عقيدة صعبة والتسك بها عسير فقد بدأ المسلمون ينسونها فبدأوا يعظمون الخلفاء الأمويين تعظيم قبائل العرب لشيخوها . وبدأ العباسيون يعظمون الخلفاء تعظيم الفرس لأكاسرتها ثم تعظيم أمراء الأتراك كتعظيم العباد للسادة وأدأهم الترف إلى أن يعبدوا الشهوات والمال كعبادة الله ثم يعبدوا الأولياء والأضرحة كما كان الجاهليون يعبدون آباءهم وانهارت وحدانية الإسلام العظيمة الجليلة التي تبعث في نفوس أهلها العزة والسمو . وكما تميزت الدولة الإسلامية إلى دول صغيرة كذلك مزقتها الثورات الداخلية لما شاع في الدولة من ظلم وفساد وكثرة تعيين الأمراء والحكام وعزلهم . من ذلك مثلاً ثورة الزنج في العراق . ذلك أن جماعة من شطار العبيد الهاربين من ساداتهم الذين أصلهم من أفريقيا الشرقية كانوا يعملون متعهدين لبعض البصريين في كسح السباح قرب البصرة فظهر رجل فارسي يدعى علي بن محمد وكان يزعم أنه ينتسب إلى علي بن أبي طالب وفاطمة من طريق زيد ابن علي ودعا العبيد إلى خروجهم على ساداتهم لتحسين حالهم وضمان حريتهم وكسب الثروة لهم . وجاهر بعقيدة الخوارج

التي ترفض كل تمييز جنسى وألف جيشاً عظيماً لم يستطع أن يقف أمامه سكان البصرة وأسسوا بلدة تسمى المختارة واستعمل اللذين في بنائها فسير المعتمد أخاه الموفق بن المتوكل لقتال الزنج وقد أوقعوا بسكان البصرة وقت صلاة الجمعة ونهبوا المدينة وأخيراً لم يوفق الموفق في ردعهم فاضطر لمصالحتهم ثم كانت ثورة الصفارية والظاهرية في إيران وكان الثوار من الخوارج وقد أسسوا مقاطعة فيما بين إيران وأفغانستان واستعملوا اللصوصية والنهب في ذلك الأقليم وكان في خدمة هذا الزعيم رجل اشتغل في حداثته بعمل الصفر يدعى يعقوب الصفار وكان هذا من الشجاعة بحيث أوقع الرعب في نفوس الناس واستمر هو وصحبه حتى فتحوا مقاطعة سجستان وهراة ثم هزمهم الموفق بعد حروب طويلة وقضى على تلك الجماعات الخارجة التي أفسدت أغنى جزء من أراضى الخلافة

كذلك كان من أكبر الثورات ثورة القرامطة في عهد الخليفة المعتضد فسببوا هزة جديدة للعالم الإسلامى وكان زعيم هذه الحركة يدعى حمدان قرمط ويظهر أن هذه الكلمة آرامية معناها المعلم السرى . أنشأ مركزاً لأتباعه قرب واسط وسماء دار الهجرة تقليداً لما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان من دعوته الشركة فى الأموال فكان المريدون يقيمون ولائم يسمونها ولائم المحبة يشتركون فيها متبعين فى ذلك على الأرجح فرقة الصابئة الفنوسطية التى كانت تسكن تلك الديار ثم خلفه داعية أعظم هو ذكرويه الدندانى وقد نجح فى تحريك الأعراب المقيمين فى حدود سوريا وتسمى بأمر المؤمنين وأفسدت القرامطة جميع المدن السورية ولم يسلم من جيشهم إلا دمشق . وقام بعده

أخوه أحمد بالخلافة ولكنه أسر وقتل في بغداد وماهى إلا فترة قصيرة حتى وفق القرامطة إلى مد سلطانهم في بلاد العرب وأنشأوا في منطقة البحرين مدينة جديدة عاصمة لهم سميت المؤمنية بدلا من (هجر) العاصمة القديمة وحكموا هذه البلاد بدعوى أنهم مفوضون من قبل الإمام المستر وأخيراً استولوا على مكة ونزعوا الحجر الأسود من الكعبة وحملوه إلى المؤمنية بالأحساء وظل فيها حوالى ثلاثين سنة . وهكذا كانت الثورات الخربة في كل قطر في العراق وفارس والشام ومصر وشمالي أفريقيا :

وجاء بعد ذلك الحشاشون فكانوا ضغنا على إبالة وجاءوا بعد أن ارتكب البويهيون كثيراً من المفاصد وقاتل بعضهم بعضاً قتالاً عنيفاً وهذه الفرقة كانت من أكبر الأعداء الداخلين للبلاد الإسلامية نشروا فيها الذعر سنوات طويلة واتخذوا التشيع ستاراً لمناهضة الحكومات المختلفة . وكان من أكبر دعايتهم الحسن بن الصباح ويذكرون أنه كان في شبابه صديقاً لنظام الملك وعمر الخيام ورحل إلى مصر وثقف ثقافة شيعية على يد الفاطميين وعرف أتباع الحسن بالنزارية لأنهم انحازوا إلى نزار بن الخليفة المستنصر الفاطمي واتخذوا ملجأ لهم قلعة ألمات الجبلية على مسافة خمسين فرسخاً شمالي قزوين ونظم جماعته على الطريقة السرية التي عرفت بها الفاطمية وقسمهم إلى درجات أعلاها المقربون وعرفوا بالتمصب الشديد ونشر في الأتباع أن في قتل رجل من أعداء الإيمان الحق وهو الإيمان الفاطمي الخير كل الخير فلهم إذا ماتوا رضوان الله وجنات النعيم ، وسمى هؤلاء القتلة بالفدائيين وكانوا يتعاطون الحشيش ولذلك سمو بالحشاشين ومدوا نفوذهم إلى فارس

وسوريا ولم تستطع الدولة السلجوقية أن تقضى عليهم وقضوا هم على نظام الملك الوزير المشهور وأوجدوا الرعب في نفوس الخلفاء والأمراء .
 واستطاعوا أن يقوضوا أركان الدول الإسلامية المتداعية وبسببهم وسبب المظالم والحروب القائمة بين الأسرة الواحدة انقضى حكم السلجوقيين في سرعة بالغة وققدوا سلطانهم فقداً تاماً .

وكان من نتاج الدولة السلجوقية ظهور عالمين كبيرين كان لهما أثران متناقضان ولكنهما يتفقان في النتيجة وهما الغزالي وعمر الخيام . فأما الغزالي فقد كان نهباً مقسماً بين الدين والعقل وأخيراً جذبته الصوفية إليها وقضى إحدى عشرة سنة في عزلة كان معظمها في الشام ألف في أثناءها كتاب إحياء علوم الدين وقد ألف القلوب على الصوفية بعد أن كانوا مضطهدين ، وكان لسناً بليغاً قوى التأثير فحبب التصوف إلى الناس مما شجعهم على التصوف وابتداع فرق متصوفة كثيرة كما كان من آثاره الإيقاع كثيراً على نعمة الترهيب تقليداً للحسن البصري ، وتخويف الناس من الموت وما بعد الموت وتعظيم سلطان القضاء والقدر وتفضيل الكشف على التجارب العقلية . فإن قلنا إن الإسلام الحاضر هو إسلام أبي الحسن الأشعري والغزالي لم نكن بعيدين عن الحقيقة .

وأما عمر الخيام فقد نسب إليه من الأشعار ما حجب للناس الإباحية والعكوف على الخمر والنساء والأزهار ويشك كثيراً في نسبة هذه الرباعيات إلى عمر لوجود بعضها في شعر شعراء آخرين وعدم مناسبتها لما اكتشف من مؤلفاته في الفقه وما وراء الطبيعة وغيرها .

وزاد الحال سوءاً سوء الحالة الاقتصادية فكانت هذه الحالة من أسوأ الحالات ، يملك الحاكم أو الملك الأراضي ويعطى من شاء الإقطاعات ليزرعها في حياته مع حفظ رقبتها مملوكة للإمام كسنة عمر بن الخطاب ثم أفرطوا في زيادة الضرائب وكثرة المصادرات والنهب والسلب حتى لم يستطع أحد أن يكون آمناً على نفسه وماله وكل ما تحصل ينفقه الملك أو الأمير على شهواته من خمر ونساء وما إليها حتى لا نستغرب من أول العهد الأموي إلى العباسي إلى الفاطميين إلى الأتراك معدل الوفيات في الملوك فهو نازل جداً يقل عن مستوى العمر العادي لإفراطهم في شهواتهم .

والحياة الاقتصادية هي عماد الحياة الاجتماعية فإن حسنت حسنت وإن ساءت ساءت ولذلك كانت الحياة الاجتماعية سيئة بسوء الحياة الاقتصادية وكان العلماء إنما يجدون رزقهم في الاتصال بالملوك والتملق إليهم ومن لم يصل إلى بابهم كانت عيشته على وقف صغير وإلا عاش عيشة فقيرة فليس بعيد أن نقول إن مصائب المسلمين أكثرها من سوء تصرف الحكام من تملق العلماء ولذلك كان الملوك غالباً يحتضنون العلماء ويرتكزون عليهم ويسخرونهم في مصلحتهم من تهدة للرعية وأن الله قسم الأرزاق فالغني غني بالقدر والفقر فقير بالقدر والسلطان ظل الله في أرضه وظلم الملوك من ظلم الرعية وهكذا من التعاليم التي تخدم الملوك وتسئ إلى الرعية وتفسدها بالتذلل والتملق والنفاق .

وقد قلنا من قبل إن عقيدة الألوهية صعبة إلا على الخاصة وإن المسلمين لم يلبسوا أن نسوا الوجدانية وعادوا إلى الوثنية وكذلك كان فقد عظمت

القبور وقدس الأولياء واتخذت الأضرحة معابد وعبد الحكام والأمراء من دون الله ولذلك كان من دعاة الإصلاح مثل محمد بن عبد الوهاب والشيخ محمد عبده من هاجم القبور والأضرحة والأولياء والاستشفاع بهم عند الله لأنهم زأوا هذه كلها بدعاً دخلت في الإسلام فأفسدت العقيدة الصافية عقيدة الوحدانية التي تتمثل في لا إله إلا الله محمد رسول الله وقد توسع المسلمون في هذا توسعاً غريباً فقدسوا باب التولى وشجرة العذراء ونعل الكلثني ونحو ذلك حتى تدنوا من ذلك إلى الحضيض ونسوا أساس الإسلام وأقيمت الموالد لإعظام شأن الأولياء وأصحاب الأضرحة واخترعوا لكل شيخ مولداً تذبج الذبائح عنده وتقرب فيه القرايين ونحو ذلك مما لا يتفق مع الإسلام في قليل ولا كثير . وقد اهتم الإسلام بالعمل الصالح فوجد القرآن دائماً أو على الأقل في الغالب يقرن عمل الصالحات بالإيمان بالله وهو يقصد بالعمل الصالح « الجهاد — العدل — والشجاعة — ونحو ذلك من الفضائل وبجانبها الشعائر الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج ، فلما انهار المسلمون فقدوا الاهتمام بالعمل الصالح ووجدت النزعات الصوفية التي يرى بعضها أن الأعمال الصالحة لا قيمة لها إذا تم الإيمان بل وجد من الطوائف الصوفية طائفة الملامتية التي ترى أن لا يوجه اللوم إلى مرتكبي الجرائم لعل بينهم وبين الله صلة كما وجد في الفلاسفة من نادوا بأن الإيمان وحده يكفي المتفلسف وإنما شرعت الأعمال للعامة لا للفلاسفة والخاصة . حتى الشعائر الدينية فقدت صبغتها الروحية وأصبحت مجرد حركات ميكانيكية لا تمت إلى القلب بسبب فهي مجرد أعمال بهلوانية وحركات شيطانية .

ولما انحل العالم الإسلامي في الداخل انحلالاً كبيراً بفضل الثورات بين شيعة وسنية وجوارج وبين المذاهب من شافعية وحنفية وحنبلية وبين العناصر من عرب وفرس وترك أمكن العدو الخارجي أن يتقدم خطوات وينال منهم ويستولى على أراضيهم فبعد أن كانوا يغزون وينهزمون أمام المسلمين أصبحوا يغزون ويتقدمون — بدأوا ذلك في عهد سيف الدولة الحمداني في حلب وكان عهده أسوأ مثل للاستبداد من فرض ضرائب باهظة على الناس وضم كثير من البلاد إلى ممتلكاته الخاصة فانتزع حلب سنة ٩٤٥ من أيدي الأخشيديين المتغلبين على مصر وأراد أن ييسط سلطانه على دمشق ولكنه أخفق غير أن حسناته الكبرى موقفه أمام البيزنطيين وكانت الحرب أولاً غزوات صيفية ومناوشات حول القلاع والحصون وكان النصر فيها للعرب حيناً والبيزنطيين حيناً وقد سجل هذه الحروب في الانتصارات والانحرافات المتنبي الشاعر الكبير وأبو فراس ابن عم سيف الدولة الذي كان عاملاً على منبج ثم أسره الروم وقال في ذلك قصائده الكثيرة المشهورة بالروميات المثيرة للعواطف وكان العداء شديداً في هذه الحروب بين الصليبيين والمسلمين كما تدل على ذلك الكتب الإسلامية المؤلفة في الحوض على الجهاد في ذلك العصر وكما يدل على ذلك أيضاً تحمس النصاري وشدة قتالهم ، والنصاري يكرهون المسلمين ويعادونهم أكثر من عدائهم حتى لليهودية والوثنية وما زال العداء مستمراً إلى اليوم بنصرتهم لليهود على المسلمين وانتزاعهم فلسطين من أيديهم .

وقد وقعت الحرب حين ذلك لتعود بشكل أقسى فإن هؤلاء الصليبيين ظهروا في سورية بقيادة جود فرى دى بويون وجماعة من الزعماء الفرنسيين والنورمنديين وانهزوا فرصة التناحر بين السلاجقة وحاصروا إنطاكية ثم سقطت في أيديهم بخيانة

أحد الحراس وكانت القدس تحت سلطنة المصريين ولكن ما لبثت أن سقطت في يد الصليبيين وقبل ذلك سقطت الرها في أيدي بولدوين وفي سنة ١١٠١ عهد إلى الكونت ريمون دى تولوز أن يفتح طرابلس الشام لتكون قاعدة لإمارة جديدة ثم سقطت بعد حصار دام ست سنوات وقد احتفظ الصليبيون بها نحو عام حتى إذا جاء الربيع التالى من القرن الثانى عشر اعترز الإسلام بآل زنكى ففاضلوا نضالا شديداً ضد النصارى فكان أولهم عماد الدين زنكى وكان جندياً بارعاً وسياسياً لبقاً فوفق لهذه الصفات إلى توسيع رقعة سلطانه شيئاً فشيئاً فلما توفى بكاه الناس بكاء مرّاً لعدالته ورأفته برعيته والعمل لصالحهم وقد أمكنه أن يأخذ الرها من يد النصارى بعد أن ظلت في أيديهم نحو نصف قرن وقتل شهيداً وهو يحاصر عكبرة ولما قتل اقتسم مملكته ابنه سيف الدين غازى وقد استولى على الموصل والجزيرة حتى الخابور ونور الدين محمود استولى على سورية وجعل قاعدته حلب وهو الذى احتمل مسئولية محاربة الصليبيين وكانوا قد عادوا فاستولوا على الرها على يد الكونت جوسلين ، وأثار المسيحيون في البلاد الإسلامية ثورة داخلية لمساعدة الصليبيين فأخذها نور الدين وقضى عليها . وقد سبب سقوط الرها تحمس الأوروبيين من جديد ، ووجد البابا أوجانيوس الثالث فرصة في ذلك لتهييجه العواطف ضد المسلمين وساعده على ذلك أنه كان داعياً بليغاً وخطيباً مؤثراً ومع أن الحملة منيت بخسائر كثيرة بسبب الجوع والمرض فلم يصل منها إلى الأرض المقدسة إلا فلول هزيمة فقد اتجهوا نحو دمشق معتمزين فتحها مهما كلفهم ذلك فلما ظهرت الجيوش الصليبية على أبواب دمشق استنجد الأمير الحاكم بنور الدين ولكن الصليبيين اضطروا إلى رفع الحصار قبل أن تتقدم جيوش نور الدين إلى دمشق . . . إلخ .

حتى جاء صلاح الدين وكان يعمل في خدمة نور الدين فأزال الدولة الفاطمية من مصر، وطرد الصليبيين من بيت المقدس بعد أن عاثوا فيها الفساد . وكان العداء الشديد بين الصليبيين والمسلمين حتى إن فلاسفة أوروبا ومفكرها وأدباءها قد وضعوا لغزو المسلمين وفتح بلادهم نحو مائة مشروع قدموها للباباوات وبعض هذه المشاريع تجارية ترى غزو المسلمين عن طريق التجارة لا الحرب وأكثرها حربي يضع الخطط للغزو إما عن طرق مختلفة أو عن طريق واحد وهكذا .

وكما هدد الصليبيون الشرق بحملاتهم المتوالية عليه فقد أفلحوا في طرد المسلمين من الأندلس بعد أن أصيب المسلمون بالفرق والانحلال وانسحب الصليبيون من الشام ليمودوا إليه في حملة أخرى إذا واثت الظروف فإن عداءهم للمسلمين لا يفتقر . قال صاحب مجلة العالم الإسلامي الفرنسية — « العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص لجميع الدول النصرانية متحدة معاً على ذلك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً » والروح الصليبية كامنة في صدور النصارى كمن النار في الزماد وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرّاً في عناصرها متغلغلا في أحشائها متمشياً في كل عرق من عروقها وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الديني الممقوت وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان في كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الإسلامية معاملة السواء مع الأمم النصرانية .

تنتحل الدول النصرانية أعداء لها في كرهها وهجومها وعدوانها على الممالك

الإسلامية وإذلالها وإكراهها بقولها إن الممالك الإسلامية هذه إنما هي من الانحطاط والتدلى بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شئون نفسها وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية وتتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى حتى بالحرب والحديد والنار للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون لبلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة .

وجميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداة الإسلام وروح هذا العداة متمثلة بمجهود جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الإسلام سحقاً . وتأخذ النصرانية مشاعر كل مسلم وآماله ورغباته التي تجول في صدره ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء ، وإن ما يدعوها الفرنجة عندنا في الشرق تعصباً مذموماً محرماً هو عندهم في بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة والوطنية المعبودة ، وإن ما يدعوهم في الغرب إباء للنفس وشمماً وشرقاً ووطنية وعزة قومية يعدونه في الشرق غلوّاً مكروهاً وإفراطاً في حب الوطن ضاراً ومقتاً وشنائاً للأجنبي الغربي .

وجميع هذا يوضح أن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عامّاً مستمسك الأطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك كله الازدياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفساد المطبق والوصول إلى هذه الغاية الكبرى يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته^(١) .

وجاء في النشيد الإيطالي :

(١) منقول من مقال تحت عنوان الجامعة الإسلامية والجامعة التركية نشر في مجلة العالم الإسلامي في مارس سنة ١٩١٣ ويقول كاتبه إنه استفاده من مسلم ثقة كبير المنزلة والشأن .

(أماء صلي ولا تبكى — بل اضحكى وتأملى — ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الإسلامية التي تميز البنات الأبيكار للسلطان — سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن . ليس للمجد من لم يمت لإيطاليا حقاً ، تحمسي أيتها الوالدة . . . تذكرى كارونى التي جادت بأولادها في سبيل وطنها . . . إن سألك أحد عن عدم حدادك على فأجيبيه : « إنه مات في محاربة الإسلام » . الطبل يقرع يا أماء ، أنا ذاهب أيضاً . . . ألا تسمعين هرج الحرب دعيني أعانفك وأذهب . وسيق رجل من الثوار في حادثة بنجاب إلى مدفعية كان فيها بارود أكثر من المعتاد فأطلق عليه النار فطار جسمه ممزقاً كل ممزق ، وأشار الجنرال نيكلسون في كتاب له إلى إدوارد قائلاً :

« يجب علينا أن نسن قانوناً يبيح لنا أن نحرق أو نسلخ جلود الثوار وهم أحياء لأن نار الانتقام التي تتأجج في صدورنا لا تخمد بالشنق وحده ، ثم إن الأمم الشرقية اعتادت ألا تحسب للحكومات حساباً ولا تخاف جانبها إلا إذا كانت ذات سطوة قاهرة » .

وكتب مدير « أئسار » في ذلك العهد يقول : « كان جميع الضباط في البنجاب يبدءون بالفظائع لإيقاع الرعب في الأهالى لكيلا يتجرءوا على أخذ الثأر منهم » . وذكر لامسون للسير هنرى كلتن عن بعض المسجونين المسلمين قال : « أتانى ذات ليلة عسكري فقال — بعد النجدة العسكرية — أرجو أن ترى المسجونين ، فقممت حالاً إلى السجن فرأيتهم مربوطين على الأرض يتنفسون آخر أنفاسهم وكان على أجسامهم آثار الكى بالنحاس المحمى على النار ، فرق قلبي لحالتهم

التعسة فأخرجت المسدس وصرت أطلق النار عليهم واحداً بعد آخر لأخلصهم من هذا العذاب الأليم .

وقد ذكر الفتنات ماجدن حادثة قال : « رأيت ذات يوم الإنجليز والسيخ كانوا يطعنون عسكرياً هندياً بالحرايب لكن طعنهم لم يقتله فجمعوا الحطب وأشعلوا النار فيه فلما اشتدت النار ألقوا الهندي المسكين فيها وصاروا ينظرون إليه بفرح وسرور عظيمين » .

وقال مستر جلادستون من مشاهير الإنجليز « بوجوب إعدام القرآن وتطهير أوروبا من المسلمين » . وقال لورد سالسبرى من عظماء الإنجليز أيضاً « بوجوب إعادة ما أخذه الملال من الصليب للصليب دون العكس » . وكان الفرنسيون يستنكرون من السفر مع المسلمين في عربات السكة الحديدية في تونس والجزائر . ونادى كيجون اليوناني بنسف الكعبة ونقل القبر المعظم إلى متحف اللوفر . وحدث مرة أن أحد التجار الفرنسيين عامل أربعة رجال من أهالي غربى أفريقيا بسلع تجارية ولما استحق له عندهم مبلغ قليل من المال ذهب إلى هؤلاء وطالبهم بذلك فاستمهلوه مدة ريثما يتم لهم جمع المال فأبى وشدد عليهم النكير بالطلب وأخذ يؤنبهم ويشتمهم ثم استل الفرنسي مسدساً وأطلق رصاصة على أحد الأربعة فقتله ولما رأى الثلاثة صاحبهم يتخبط في دمه قبضوا على القاتل الفرنسي ونزعوا المسدس من يده وراموا وثاقه وتسليمه إلى الحكومة فلم يستطيعوا ذلك إذ فر من بينهم بواسطة وبلغ القاتل مقر الحكومة ماعمل وشكا أولئك الثلاثة فأرسلت الحكومة في طلبهم ولما حضر الثلاثة لدى المحكمة الفرنسية وأحضر القاتل وأقر الفاعل بقتله حكمت المحكمة الفرنسية

بقتل الثلاثة الذين ضربوه لقتل رفيقهم ، وفي اليوم التالي سيق هؤلاء الثلاثة إلى فسحة خارج البلد وربطوا بالأشجار وأطلق عليهم الجندى الفرنساوى الرصاص حتى فارقوا الحياة وتركوا على حالتهم دون أن يواروا التراب وهكذا وكانت فكرة الصليبيين في العداء للمسلمين مستمدة من الفكرة اليونانية كما استمدوا منهم أدبهم وفلسفتهم ؛ وهى أن العالم ينقسم إلى يونانيين وبرابرة ، فاعتقدوا هم أيضاً أن العالم ينقسم إلى سادة أوروبيين وعبيد من العالم الآخر . وكان الظن أن يصحح المستشرقون من الأوروبيين هذا الموقف ببخشم وعلمهم . ولكن تبين أنهم من نفس البيئة التى كونت الصليبيين . وكان من الأسف أن يكون فى طليعة هؤلاء المستشرقين مستشرقون مبشرون فأخذوا يستخدمون الإسلام فى الطعن عليه أداة للتبشير ويختارون الأشياء التى تثير الأوروبيين على المسلمين كفكرة تعدد الزوجات وملك اليمين وحديث الإفك إلخ .

وجاء من بعدهم من المستشرقين غير المبشرين فسلكوا مسلكهم واحتذوا حذوهم ولم يسلكوا مسلك البحث النزيه المجرد بل كانوا يضعون الاتهام أولاً ثم يبحثون عن الأدلة التى تقوى هذا الاتهام فيما عدا القليل النادر منهم . وكانت نتيجة هذا كله مأساة فلسطين إذ تخلى عنها الإنجليز من غير إنذار للعرب ومع تواطئهم مع الصهيونيين على ترك حيفا لهم وإنذارهم لهم بالاستعداد والمقاومة .

وزاد الخصومة شدة بين الأتراك والصليبيين توالى الفتوح وتقدم الأتراك مدى نحو ستة قرون ، فالملك أورخان استطاع بجيوشه الكبيرة المنظمة تنظيمياً (٨)

جديداً أن يواصل فتوحه وحملاته في عنف متزايد على المدن الساحلية ، وتوفي أورخان سنة ١٣٦٢ م وخلفه ابنه مراد فاتحه نحو شبه جزيرة البلقان واستمر في فتحه حتى سقطت أدرنه في يده سنة ١٣٦٦ ، وحاول البابا أوربانوس الخامس أن يدعو النصارى إلى حملة تنقذ أدرنه من يد المسلمين ولكنه لم ينجح وظلت بلاد البلقان تسقط واحدة - إثر الأخرى وقد الصّريون استقلالهم وحاولوا أن يشنوا غارة فانهزموا واحتل العثمانيون بعد ذلك صوفيا ونيش ١٣٨٥ - ١٣٨٦ وأتم خير الدين باشا فتح مقدونية سنة ١٣٨٥ وشيد الجامع الكبير المعروف بإسكى جامع .

ثم استولى العثمانيون على سرى ومن هناك فتحوا سالونيك ، وفي عهد محمد الثانى سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وحولوا كنيسة أياصوفيا إلى مسجد ولم يقتض تكييفها إلا تعديلات قليلة لتوافق الشعائر الإسلامية فغطيت روائع النسيفساء الذهبية التى تزين العقود وتمثل الفن البيزنطى أحسن تمثيل بطبقة من الكلس وصنع محراب صغير فى وسط جناح الكنيسة الجنوبى وإلى يمين المحراب أقيم المنبر بشبكاته الخشبية المذهبة وعلقت لوحات مستديرة كبيرة تنتظم اسم الله واسم الرسول وأسماء الخلفاء الراشدين بماء الذهب وأنشئت فى الخارج أربع مآذن ، وعهد السلطان محمد للمهندس اليونانى خريستو دولوس بتشييد الجامع المعروف بجامع السلطان محمد الفاتح على أنقاض الكنيسة الرسولية التى كانت فيما مضى مدفن الأباطرة فأتم الجامع من سنة ١٤٦٣ - ١٤٦٩ . وكان هذا الانتصار من الأتراك المسلمين سبباً فى زيادة غضب النصارى عليهم وشركتهم فى الانتقام منهم . وأعقب - مع الأسف ، - حركة المد هذه

حركة جزر فانهمزم الأتراك البحرية في لبانتى وعقد السلطان سليم الثانى معاهدة صلح مع النمسا سنة ١٥٦٨ وتعهد بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دوقه .

ومع هذا ظل للأتراك قوة استولوا بها على جزيرة كريت . ولما تولى مراد الثالث بن سليم الثانى انغمس فى الشهوات كأييه وترك لأمه وزوجته الإيطالية تصريف الأمور وانصرف هو إلى الحريم ، وفى سنة ١٥٧٠ توجه العثمانيون إلى القوقاز وفتحوا تفليس ، وخلف مراد الثالث على عرش السلطنة ابنه محمد الثالث وأخيراً عقد الصلح مع الأتراك بمعاهدة سنفاتورك التى عقدت بين الأتراك وآل هابسبورج ورفعت الجزية التى كان يدفعها الملوك العثمانيون ، ثم شبت الثورات الداخلية بسبب أن جنود الأنكشارية فقدوا احترامهم لسلطة السلطان ، وأصبح الجيش العثمانى فى حال لاتدعو إلى الاطمئنان فظلوا فى انهزام متواتر ، واتهم الفرصة فخر الدين الدرزى المعنى فى لبنان وجنبلات الكردى فى سورية وناديا بالاستقلال . وفى سنة ١٦١٧ مات السلطان أحمد وخلفه أخوه مصطفى فتنازل بعد ثلاثة أشهر لابن أخيه عثمان الثانى ونشبت الحرب بين العثمانيين والبولنديين مما اضطر السلطان إلى أن يشترك بنفسه فى القتال ، فاضطر السلطان عثمان إلى عقد صلح مع العدو ، وما انتهى القرن الثامن عشر حتى هزم الأتراك البحرية فى لبانتى وهزم الأتراك فى فينا وأخرجوا من البحر .

وجاء بطرس الأكبر فأشعل النار ضد الأتراك وفتح أبواب البحر الأسود فى وجه القيصر وكان إلى ذلك الحين بحيرة عثمانية . وعقدت معاهدة

بازارو ويح وخسر الأتراك ممتلكاتهم في المورة وجزر الأرخبيل ، ثم قامت الحرب الروسية التركية ، فقد تقدم الروس سنة ١٧٧٠ عبر الجوردان والأفلاق إلى أن بلغوا نهر الدانوب واحتلوا كييليا وبندر وايراثيل ، وظهر في بحريجة لأول مرة أسطول روسي كبير لإشعال الثورة في الايجيين وأضرموا النار في الأسطول العثماني في خليج جشمه على ساحل آسيا الصغرى ، وخيف على استامبول نفسها من هجوم مفاجئ . وفي السنة التي تليها انتصر الروس انتصاراً آخر فاستولوا على بارقوم وأخضعوا شبه جزيرة القرم كلها وتنازل الباب العالي عن جميع مطالبه في بولندة .

وهكذا كان الإسلام وسياسة الأتراك في أوروبا مثاراً للصليبيين ليعتمدوا عليهما في التكيل بالمسلمين .

ثم كان القرن التاسع عشر فتجددت الحروب الصليبية وكانت الفرصة للنصارى أسنح ، لأن تركيا بدأت في الضعف بعد القوة حتى سموها « الرجل المريض » ، واتفقت دول أوروبا على تقسيم الشرق إلى مناطق نفوذ وتطبيقاً لهذه الخطة هجم نابليون على الشرق بتنظيماته الجندية الجديدة يقابلها سوء حالة الجيش العثماني ، ففي يولييه سنة ١٧٩٨ جند نابليون حملة على مصر بحجة واهية وهي أن سوء إدارة الممالك كان يعرض ممتلكات الفرنسيين للخطر ف قضى على الممالك مؤقتاً بما تم له من نصر قرب الأهرام ثم كان من نتائج انتصار نلسن عند أبي قير أن جعل مركز الفرنسيين في مصر حرجاً يتعذر الدفاع عنه ، وفي صيف سنة ١٧٩٨ وجه السلطان سليم الثالث بضع سفن حاملة جنوداً إلى مصر ، وساعد محمد على في المعارك التي تلت حتى أكره الفرنسيون على الجلاء

ولكن لم يكن الأتراك العثمانيين يد كبيرة في طرد الفرنسيين من مصر. وزاد الطين بلة أن محمد علي باشا أحس قوة جنده ونظامهم وأنه أقوى من العثمانيين فهزم الأتراك في نصيبين ، وانضمت فرق تركية بكاملها إلى الجنود المصرية ، وكانت هذه الكارثة عظيمة الأثر السيئ على الأتراك والمسلمين جميعاً لأنه كشف ضعفهم وبين مآلهم فيه من الفوضى وسوء الحال ، فطمعت دول أوربة في الاستيلاء على المملكة العثمانية ، فتقدم الإيطاليون إلى طرابلس واحتلوها بعد أن كانت خاضعة لحكام إقليميين ثم تقدم الفرنسيون إلى الجزائر وامتلكوها واحتل الفرنسيون تونس ثم مراكش واحتل الإنجليز مصر وذهبوا إلى السودان وسعى غوردون لتوطيد الحكم البريطاني المصري في السودان وقضى كتشنر على إمبراطورية المهدي محمد بن عبد الله حسن المهدي ، ثم قصدت أوروبة إخضاع فارس وأفغانستان واصطدم محمد شاه بالبريطانيين في أفغانستان واقتسمت روسيا وبريطانيا النفوذ في فارس ، وهكذا تقسمت أوروبة الشرق وحطمت كل تحطيم ولم تسمح بأي حركة إصلاحية لأنها عدت الإصلاح عدواً لها ، فلما ساءت الحالة جداً بدأ الوعي القومي في البلاد الإسلامية كلها يتنبه بما فيه من خطر وإذا ذاك ظهر زعماء إصلاح في كل قطر تقريباً ، يسودهم كلهم التفكير في موقف قطرم إزاء الغرب وكيف الخلاص من هذا النفوذ الأجنبي . وكان كل زعيم ينادى بالإصلاح حسب منهجه ومزاجه : فمحمد ابن عبد الوهاب مثلاً ظهر في الحجاز ، وكان من قبيلة تميم ظهر في أواخر القرن الثامن عشر وكان أهم مبادئ إصلاحه الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية ودافع عن مبدأ الأخذ بالحديث والاعتماد عليه اعتماداً كلياً عكس

ما فعل الفقهاء السابقون من أخذهم بالرأى ، واقتنع بمذهب أحمد بن حنبل في اعتماده على الحديث ودرس مؤلفات ابن تيمية وكل هذا أقنعه بأن الإسلام لم يعد كما كان وأن الأتراك شابهه بكثير من المساوىء ، وأعاد الرجم للزاني والزانية ، واكتسبت تعاليمه أنصاراً كثيرين ومريدين ، وأبطل الأضرحة وهدمها وحرم لبس الحرير وأى زينة وزخرف فى المساجد ، كما تشدد فى تحريم المسكرات وتحريم التدخين ، ولكن يؤخذ على حركته التشدد والقسوة اللذان هما من طبيعة البدو .

وفى فارس ومصر ظهر جمال الدين الأفغانى يناهض استبداد الحكام ويفهم الرعية حقوقها وواجباتها ويدعو إلى رفع نير الاستعمار فنفتته انجلترا من البلاد . وفى تركيا ظهر مدحت باشا يدعو إلى الأخذ من المدنية الغربية بقدر نافع والاقتباس منهم خير ما عندهم فى نظم الحكم . ثم جاء مصطفى كمال ودعا إلى الإصلاح من طريق آخر وهو التخفيف من العرب بلغتهم ودينهم كأن هذا ثقل عليه ، وغمس الأمة كلها فى الحضارة الغربية بمخذافيها من غير تنقية ولا انتخال .

وكان من دعائم إصلاحه : إلغاء وزارة الأوقاف وجعل تديرها لرئيس الأمور الدينية وهيئة علمية استشارية بجانبه وإلغاء المحاكم الشرعية ، والمدارس الدينية وقصر التعليم الدينى على كلية اللاهوت التى تتبع الجامعة وإلغاء الطرق الصوفية وإغلاق الزوايا والتكايا وتحريم الألقاب الصوفية من درويش ومريد وأستاذ وسيد وشاى ونقيب . . . إلخ . وتحريم العرافة والسحر والتنجيم وكتابة التعاويذ والأحجية ، وتحديد الزى الدينى وعدم السماح به إلا لطائفة

خاصة كرئيس الأمور الدينية والأئمة والخطباء والوعاظ . ومنع الإسراف في الجهاز والزواج فلا ينقل جهاز علانية ولا تقام مآدب عامة في الأفراح . وسن قانوناً مدنياً بدل مجلة الأحكام الشرعية حرم فيه تعدد الزوجات وخول لكل من الزوجين الحق برفع قضية الطلاق لأسباب معينة ، وتحرير المرأة من حيث سفورها ومساواتها بالرجل سياسياً واجتماعياً ومدنياً . ففتح لها مجال الكسب والتوظيف في الوظائف . واعتبر الزواج شركة تتألف من جزأين متساويين ، وشرع للمرأة حق أن تنتخب وتنتخب ، وفصل الدين عن الدولة فلم يستخدم في التشريع ولا في الحكم ولا في الإدارة . وغير كتابة اللغة التركية من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية .

وهكذا كانت إصلاحاته مدنية لا دينية بينما كان على النقيض من ذلك إصلاحات محمد بن عبد الوهاب فهي إصلاحات دينية لا دنيوية ، وبين هذا وذاك كانت إصلاحات جمال الدين الأفغاني ومدحت باشا وخير الدين باشا التونسي وأمثالهم .

وفي تونس ظهر خير الدين باشا التونسي يدعو كدعوة مدحت باشا . وفي الهند ظهر السيد أحمد خان والسيد أمير علي يدعوان إلى إصلاح حال المسلمين بدعوة تشبه دعوة مدحت باشا وخير الدين باشا التونسي .

وهكذا كان في كل مصر مصلح ينبه الوعي القومي ويحض على الثورة والإصلاح . ولما أحست الدول الأوروبية بكراهة المسلمين ظنتهم أطفالاً فرفعت كلمة الاستعمار ووضع موضعها كلمة الانتداب ظناً منها أن المسألة مسألة ألقاظ ولكن لم يكن المسلمون مغفلين إلى هذه الدرجة . فلما قامت الحرب

العالمية الأولى وانتهت كان قادة الأوروبيين والأمريكيين قد نادوا في أيام الشدة بمبادئ العدالة والحرية وأحقية الشعوب المستضعفة في حكم نفسها بنفسها ، فلما أرادت أن تتراجع بعد انتهاء الحرب شبت الثورات في مصر وسورية والعراق وغيرها ضد الاستعمار تريد الاستقلال ففاز بعضها ، ولما يفز بعضها ولا تزال القلوب منطوية على ضغن وفكرة الحروب الصليبية تعمل عملها إلى اليوم .

الحق أن موقف الأوروبيين المسيحيين عجيب ، فهم إذا علموا أن شعباً نصرانياً عُدِّب أو أهين ثارت ثورتهم ، أما إذا علموا أن المسلمين عذبوا وأهينوا لم تتحرك شعرة فيهم ، خذ مثلاً هذا الذي كان بين الأرمن والمسلمين فقد تعدى الأرمن على المسلمين وعذبوهم وقتلوهم فلم يتحرك الأوروبيون لنصرتهم ، وتعدى المسلمون على الأرمن وعذبوهم وقتلوهم فنارت ثورة الأوروبيين . ولا يقل قاتل لهم لم يكونوا يعلمون لأن هناك دلائل تدل على علمهم . ولما شبت الحرب الريفية في مراكش أرسل الصليب الأحمر بعثة طبية لمعالجة جرحى الفرنسيين وجرحى المسلمين تبعاً . ولكنه لما أراد المسلمون أن يبعثوا بعثة طبية لم يرضوا عن ذلك . وقد حوا نساطرة العراق لأنهم نصارى وتأمرؤا معهم ضد المسلمين فيه ، واتخذتهم لها بطانة . وقال ملك إسبانية عند حرب الريف إن إسبانيا اشتهرت منذ القدم بقتال المسلمين ، وفي هذه النوبة هي مصممة على ألا تترك قتال المسلم للريف حتى تنصب الصليب هناك محل الهلال . وقد بذلت حكومة هولندا الأموال الكثيرة في تغيير عقائد مسلمي جاوة وسومطرة بواسطة رجال التبشير ، ولكنها لم توفق إلى تغيير عدد كبير من المسلمين يساوى المبالغ المصروفة ، فعمد بعض رجالهم

إلى القول بأنهم لا يعدون المسلمين المحدثين مسلمين ، إنما المسلمون من أسلموا منذ أربعة قرون فأكثر . ولم يمنع الحكومة الهولندية أن تأخذ بهذا الرأي سوى تحذير بعض عقلائهم من السير في هذا السبيل ، لأن الجاويين لا يفرقون بين مسلم قديم ومسلم حديث .

ومالنا نذهب بعيداً وقد سمعنا في الأيام الأخيرة في القتال في فلسطين بين اليهود والمسلمين أنه إذا انتصر المسلمون نادوا بوقف القتال وإذا انتصر اليهود سكتوا . ويفعل النصارى الأفاعيل في المسلمين فلا يقال إنهم متعصبون ويفعل المسلمون جزءاً صغيراً مما فعله الأوربيون فيرمونهم بالتعصب المقيت . والخلاصة أن فكرة الحروب الصليبية متغلغلة في نفوسهم ، فإن خفيت في عقولهم فهي كامنة في وعيهم الباطن لا يصدرون إلا عنها ، ولا يغفرون أبداً للمسلمين أنهم انتصروا عليهم يوماً ما ، كما لا يغفرون أيضاً لهم نجاحهم في إدخال الناس في دينهم حتى من غير تبشير ، وعجزهم هم حتى مع التبشير . وقد اجتمعت مرة جمعية الرابطة الشرقية وأرادت إرسال بعثة طبية إلى جدة لمساعدة جرحى الحجاز في القتال بين الشريف الحسين بن علي وابن سعود فوافقت على ذلك لأنها كانت تناصر الحسين بن علي . فلما أرادت إرسال بعثة طبية أخرى لمساعدة الريفيين في مرا كش أبت عليها ذلك لأن المسلمين في نفس الحرب يحاربون الفرنسيين المسيحيين . والأمثلة على ذلك لا تحصى . فمن الغفلة أن نقول إن الحرب اليوم حرب سياسية لا دينية ، لأن المظاهر كلها تدل على ما نقول . وأن النصرانية وعداها للإسلام كامنة في نفوسهم لم يزلها أى عامل . غاية الأمر أنها تحت ستار . وأوضح مثل لذلك أنهم

عابوا على ملك إسبانيا قوله المتقدم لأنهم يريدون أن يعملوا من غير أن يقولوا ويستتروا من غير أن يظهروا ، وإنما هي فلتات ومقارنات تدل على منجأهم ، فليتعظ المسلمون . وإن ما يشيعونه من عدل وإخاء ومساواة ليس إلا فيما بينهم . أما الأجناس المسلمة فليس واجباً عليهم فيهم عدل ولا إخاء ولا مساواة . والحوادث ترينا أن المسلمين أكثر تسامحاً وأقل تعصباً ، فإذا تعصبوا فمقابلة للتعصب بالتعصب . هذا تاريخ صلاح الدين مع الصليبية : أيهم أكثر تسامحاً وأقل تعصباً ؟ وهذا الشريف الحسين بن علي ، كان يقول القول ويحتفظ به ، وكان الإنجليز يقولون القول في الظاهر ويعملون ضده في الخفاء ، وهذا وهذا مما لا يعد ولا يحصى .

إن المسلمين إذا أنسوا من شخص صدقا ووفاء وساماً جروا وراءه اتباعاً لقوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » ، والمسيحيون إذا أنسوا من واحد غفلة وقعوا عليه وقوع الحداة على العصفور أو الصقر على الحداة .

لقد مر زمن كان المسلمون فيه هم الغالبين فحكموا النصارى واليهود حكماً عادلاً ، لا نعرف في التاريخ مثله ، تبعاً لتعاليم الإسلام . نعم إن عمر ابن الخطاب في أول عهده انتدب يعلى بن أمية لإجلاء النصارى من أهل نجران عن بلادهم ، ولكن عذره في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يجتمع في جزيرة العرب دينان » ، لأن الإسلام يريد أن تكون جزيرة العرب حصن المسلمين ومنبتهم ، وتربية الدعاة للإسلام فيها ، وعدم اختلاطهم باليهود والنصارى . والدين غضّ طرى . فأمر بإجلاء أهل نجران .

ومع ذلك فإنه لما أجلاهم عوضهم عن بلادهم بخير منها ، وخيرهم في الجهات التي يريدونها — لم يشأ رسول الله أن يكرههم على الإسلام فتركهم وشأنهم عملاً بقوله تعالى : « لا إكراه في الدين » ، وصالحهم على مال معلوم يؤدونه كل سنة . وشرط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به . ولما توفي رسول الله أقرهم أبوبكر على الشروط التي اشترطها عليهم الرسول . ولما حضرت أبا بكر الوفاة أوصى عمر بإجلائهم ، لنقضهم العهد بتعاملهم بالربا ، فكان أول عمل عمله أن يجليهم عن أرضهم ، وأمر العامل الذي أرسله أن يعاملهم بالرفق ويشتري أموالهم ، ويخبرهم عن أرضهم بأى أرض شاءوا من بلاد الإسلام . وكان مما أوصى به عامله : « اتهم ولا تفتنهم عن دينهم ، ثم أجلبهم من أقام منهم على دينه ، وأقرر المسلم ، وامسح أرض كل من تجلّى منهم ، ثم خيرهم البلدان . وأعلمهم أننا نجليهم بأمر الله ورسوله » ، وكتب لهم كتاباً قال فيه : « أما بعد ، فمن وقعوا به من أهل الشام والعراق ، فليوسّعهم من حَرَف الأرض ، وما احتملوا من شىء فهو لهم ، وكان أرضهم باليمن ، فنزل بعضهم الشام ، وبعضهم بناحية الكوفة » . وشكوا لعثمان لما استخلف ضيق أرضهم ، ومزاحمة الدهاقين لهم ، فكتب لعثمان إلى عامله بالكوفة يوصيه بهم ، ويأمره أن يضع عنهم مائتى حلة من جزيتهم . وكان قد فرض عليهم تقديم الحلل كجزية ، ولما ولى معاوية شكوا إليه تفرقهم وموت من مات منهم ، وإسلام من أسلم . فوضع عنهم مائتى حلة أيضاً . فلما أتى الحجاج أعادهم إلى ما كانوا عليه ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز شكوا إليه ظلم الحجاج ونقصهم ، فأمر بإحصائهم ، فبلغوا العشر ،

فألزمهم مائتي حلة فقط . فلما ولي هارون الرشيد أعادوا الشكوى إليه من العمال فأمر أن يعفوا من معاملة العمال لهم ، وأمر أن تكون معاملتهم مع بيت المال في العاصمة الإسلامية مباشرة .

فنرى من هذا أن خلفاء المسلمين لم يكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام ، بل تركوا كلا دينه . ثم التزامهم نحو هؤلاء النصارى بالوفاء باليهود ، ثم حرص الخلفاء على التوالى على حمايتهم وإرضائهم ورفع الظلم عنهم . أرايت معاملة للمخالفين خيراً من هذه المعاملة ؟

وقد رأينا أنه لما غزا التتار بلاد الإسلام ووقع كثير من المسلمين والنصارى في أسرهم ثم عادت الغلبة للمسلمين ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخ الإسلام أمير التتار بإطلاق الأسرى ، فسمح له الأمير التتارى بفك الأسرى المسلمين ، وأبى أن يسمح بأهل الذمة ، فقال له شيخ الإسلام لا بد من فك الأسرى من اليهود والنصارى لأنهم أهل ذمتنا ، فأطلقهم له .

ومما كتبه عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عامله على مصر: « إن معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى رسول الله بهم ، وأوصى بالقبض فقال « استنصوا بالقبض خيراً ، فإن لهم ذمة ورحما » وقال صلى الله عليه وسلم : « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته ، فأنا خصمه يوم القيامة » فاحذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً ، فإنه من خصمه خصمه » . وكان آخر وصايا عمر ما كتبه لمن يخلفه من بعده : « أوصيه بأهل ذمة الله ، وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى بعهدهم ، ولا يكلفهم فوق طاقتهم ، وأن يقاتل من ورائهم » .

نعم إن بعض اليهود والنصارى ظلموا على يد بعض الخلفاء والأمراء، وقسا بعض الأتراك عند فتحهم لبعض البلاد الأوربية، ولكن هذا كان من جهة قليلا، ومن جهة أخرى كان ظلم هؤلاء الولاة والأمراء واقعا على المسلمين والنصارى على السواء، فكم لقي المسلمون من ظلم بعض الولاة والأمراء. وعلى كل حال، فأين ظلم هؤلاء من الظلم الذى أوقعه الأسبانيون بمسلمى الأندلس وفتنتهم عن دينهم، وطردهم لهم عن ملكهم، واغتصابهم تراثهم، وسفكهم دماءهم، حتى لم يبق لهم بعد بضعة سنين باقية، وانحطت بعد ذلك مدينة الأسبانيين. وأين تعنت الأوربيين مع المسلمين فى كل العصور المتأخرة، على النحو الذى ذكرناه وسنذكره؟

الحق أن الفرق كبير بين معاملة المسلمين للنصارى، ومعاملة النصارى للمسلمين. وحتى فى عهدنا هذا لا يتمتع المسلمون بين النصارى بما يتمتع به النصارى واليهود بين المسلمين. ولكن على كل حال نرجو أن يثوب الأوربيون إلى رشد، فيحققوا مبدأ الإخاء والمساواة الذى يدعونه.

نعم توالت الضربات على المسلمين فى مختلف العصور وعلى أشكال متنوعة، ولكن كلما ضعف المسلمون رزقهم الله — من غير سعى منهم ولا قصد — بمن يجدد نشاطهم وينشط حياتهم. حتى إذا ضعف هذا الجديد حل محله جديد آخر. ولما اقتتل المسلمون أول الأمر كانت الدولة الأموية فى أول أمرها قوة لا يستهان بها، فلما كان آخرها جاء العباسيون بقوتهم ثم ضعفوا، فجاء المغول كتيهورلنك وهولاكو وجنكيزخان فخرّبوا ودمروا ولكن الإسلام استولى عليهم أكثر مما استولوا فدخلوا فى الإسلام أفواجا وكانوا

فى أول أمرهم قوة . وما زال خلفاؤهم الأتراك العثمانيون يفتحون ويعمرون حتى ضعفوا أخيراً وليس يدري إلا الله ما هى القوة الجديدة التى ستبعث فى الإسلام والمسلمين روحاً جديدة ، ولكن الطوالع تدل على أن المصلحين من المسلمين سيتغلبون آخر الأمر ويعيدون للمسلمين شبابهم بتجنب ما كان من غلطات فى تاريخهم ويكون شأنهم شأن الطبيب يعرف العلة وأسباب المرض ثم يضع العلاج . فإن سألت لم تأخر المسلمون وتقدم الأوروبيون فاعلم أن المسلمين تأخروا لكل الأسباب التى ذكرناها . لقد كان المسلمون الأولون مملوئين بالحماسة والروح وهذا سر قوتهم ، والإسلام حتى فيما حكى عن غيره من الديانات كانت مزيتة أنه ملأها قوة . فأصبحت تعاليم الإسلام بعد ذلك عبارة عن أشكال ظاهرة لا روح فيها — خلت الروح من الصيام والصلاة والحج وصارت مجرد أشكال .

وقد استولى الصليبيون على المسلمين وجعلوهم خدماً أذلة ، واغتصبوا حقوقهم لما ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، وأصبح المسلمون يفضلون آباءهم على الله ورسوله .

ولما نظر الصليبيون للإصلاح الذى قام به محمد بن عبد الوهاب وما فيه من شدة وجفوة وتقييد للحرية وعدم تعامل بالربا اتهموا الإسلام بالتمصّب الدينى مع أن هذا ليس نتيجة للإسلام . إنما كانت نتيجة للبيئة البدوية التى نشأ فيها محمد بن عبد الوهاب .

والحق أن دين كل أمة نتيجة أيضاً للحالة الاجتماعية التى يحياها قومها . فالبروتستانتية حين نشأت كانت متعصبة تمصّب محمد بن عبد الوهاب ، فلما

تغيرت حالة الأوربيين الاجتماعية تغيرت الديانة البروتستانية .

هذا إلى أن جهل العالم الإسلامي وخلوه من العلماء كان سبباً أيضاً لهذا التدهور. ونعني بالعلماء ، علماء العلم الحديث من طبيعة وكيمياء وغيرها مما يسائر العالم الحديث ، فلا نزال إما سائرين على النمط القديم في الرى بالساقية والشادوف ، والزرع بالثور والجاموس ، وإما مقلدين للأوربيين فيما اخترعوا من غير تحسين أو ابتكار. وقد قيل « إن ابتلاء الأمة بمجنون خير من ابتلائها بنصف عالم » ونصف العالم هو الذى يقلد ولا يخلق .

يضاف إلى ذلك إسراف المسلمين في الملذات والشهوات ولا سيما الخمر والنساء وخاصة الأمراء . فقد ثبت في ذهن هؤلاء الأمراء أن الشعب ملك لهم ، يتصرفون فيه كما يشاؤون ، وأن لهم أن يسخروهم في كسب ملذاتهم وشهواتهم . وعلماء المسلمين يتملقونهم ويغضون الطرف عن فسادهم .

ولذلك لما كان الملك صالحاً كعمر بن عبد العزيز أحاط نفسه بعشرة من العلماء الطيبين ينصحونه ويبصرونه بروح الإسلام ويسيرونه على الجادة . ومن أهم أسباب ضعف المسلمين بخلهم عن التضحية ، وهم يريدون النصر من غير إنفاق ، ويعز عليهم الإنفاق لأنهم يئسوا من النصر أمام العدو القاهر وشحوا بالمال في أن يبذل في هذا السبيل . وإذا كانوا أشحاء بالمال فهم بنفوسهم أشح . وفي الحديث : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها » . قال قائل : « ومن قلة نحن يومئذ » قال صلى الله عليه وسلم : « بل أتم يومئذ كثير ولكنكم كغناء السيل ، ولينزعن

الله من صدور عدوكم المهابة منكم . وليقذفن في قلوبكم الوهن « قال :
« يا رسول الله وما الوهن ؟ » قال صلعم : « حب الدنيا وكراهية الموت » .
وقد منع المسلمين من التضحية حب الحياة وكراهية الموت . وقد رأينا
في الحرب العالمية الأولى والثانية أن كل أمة نصرانية حافظت على نفسها
وبذلت من التضحيات ما بذلت للمحافظة على كيانها . حتى أن الأمة
ولو كانت صغيرة أثبت أن تنضم حتى إلى من كان من جنسها ، فقد لبثت
روسيا من مائة سنة إلى ثلاثمائة سنة تحاول إدخال بولونيا في الجنس
الروسي ، وحمل البولونيين على نسيان قوميتهم الخاصة بحجة أن الجنس السلافي
يجمع بين البولونيين والروس ففشلت جميع مساعيها ، واحتفظوا بشخصيتهم
وقاتلوا عنها قتال الأبطال ولم يعجزوا عن المحافظة على استقلالهم . كما خاب
الروس في إدماج أهل لتوانيا ، وعجزوا هم والألمان عن إدخالهم مع أنهم
لا يبلغون أكثر من أربعة ملايين ، وكذلك فعل الصربيون والبلغاريون
مع الأتراك .

وكانت الدماء في الحرب العالمية الأولى والثانية تجري أنهاراً حياً في
الغلبة أو محافظة على الاستقلال ، فلا يكون نصر أو استقلال من غير
تضحية ، فطمع المسلمين في النصر أو الاستقلال من غير تضحية بالأموال
والأنفس طمع إبليس في الجنة .

ولا يهولنك ما يقول المتشائمون الملحدون الجامدون من أن المسلمين لا طاقة لهم
بحرب الأوروبيين لأنهم يعجزون عن دفع ما عند الأوروبيين من مخترعات حديثة
وآلات فتاكة ونحو ذلك . وليس عندهم من العلماء من يبتكر ويخترع كما عند

الأوروبيين فهذا قول مردود بأن عدد المسلمين الذى لا يقل عن أربعمائة مليون لو اتحدوا لأمكنهم أن يوجدوا علماء إذا صمموا ، فلا ينقصهم ذكاء وعقل ولكن ينقصهم إرادة وعزم . وأنهم إذا وجد العلماء ووجد المال وجدت آلات القتال لا محالة فدفعوا القوة بالقوة ولهذا قال الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وقال : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » ، وليس عمل الصالحات مقصوراً على الصلاة والصيام والحج ولكن منها أيضاً بذل النفس فى القتال ومقابلة القوة بالقوة ، والاستعداد للعدو ما أمكن ونحو ذلك .

وقد بدأ العرب يدب فيهم الوعى القومى بعد أن جاءهم القرن التاسع عشر وهم فى منتهى الخمول ، فربما لو قارنا حالهم اليوم بحالهم بالأمس لم نستطع أن نرى الفرق كبيراً ولكن لو قارناهم بحالهم منذ مائة عام لبان الفرق واضحاً . فلما زار الرحالة الفرنسى فولنيه مصر فى أواخر القرن الثامن عشر قال فى وصفها : « إن الجهل فيها عام مثل سائر تركيا وهو يتناول كل الطبقات . ويتجلى فى كل العوامل الأدبية والطبيعية والفنية حتى الصنائع اليدوية فى أبسط أحوالها ويندر أن تجد فى القاهرة من يصلح الساعة وإذا وجد فهو أفرنجى » . ويقول عن سوريا : « إن الجهل سائد فيها كسائر تركيا ، وليس فى العرب أو الأتراك الآن علماء فى الرياضيات أو الفلك أو الموسيقى ، ويندر فيهم من يحسن الفصد ، وإذا احتاجوا إلى السكى استخدموا له النار ، وإذا عثروا على متطرب أفرنجى عدوه من آلهة الطب . وأما علم النجوم فقد صار عندهم للنجامة واستطلاع الطوالع » .

ويقول بوركهارت فى الملحق الثانى من كتاب رحلته فى سورية وفلسطين عما

أصاب مدينة حلب ، فيصف الولايات التي فيها للتنازع الشديد بين العائلات صاحبة الحول والطول في الإقطاعات المختلفة وانقسام زعمائهم بعضهم على بعض وعدم طاعتهم للحاكم وهتك الأنكشارية حرمة البلاد وهم جنود لا يعرفون الأنظمة ولا يعرفون من السلطة إلا جباية الأموال وقطع الطريق وسلب الناس أشياءهم . أما الباشوات فكانوا لا يحافظون على راحة الأهلين إلا ما كان فيه الصفقة الراجحة والتجارة غير الخاسرة لشخصياتهم . وولايتهم سنة فحسب وفيها يكسبون ما يستطيعون من الأموال خيفة أن يصبحوا فقراء معدمين ويسترضون عملاء السلطان في الآستانة كما يتنعمون في بلاد يصيرون فيها حكامها المطلقين لبعدها عن مركز الخلافة وصعوبة المواصلات .

ولذلك كان نوم الشعب عميقاً لم يستطع أن يصحو إلا على صوت المدافع فلم ينتبه إلا بصوت المدافع في تركيا حين غزتهم الجيوش الأوروبية ، وفي مصر حين غزاهم نابليون فهذا الغزو أفقهم ونبههم . وكان في حملة نابليون كثيرون من خيرة العلماء الفرنسيين المختص كل منهم بفرع من العلم من عادات ودينيات واقتصاد وجغرافية . . . إلخ . وكانت مقسمة إلى أربع فرق فرقة للرياضة وفرقة للطبيعة وثالثة للآداب ورابعة للاقتصاد . وفرقة الرياضيات خططت القاهرة وهيأت الرسوم لمشروع قنال السويس وأحصت الضرائب التي جباها المماليك من أهل البلاد . وفرقة الطبيعيات اهتمت بوضع إحصاء طبي لأمراض مصر وجوها وتربتها وطعامها وإحصاء المواليد والوفيات وشددت بوجوب الإخبار عن أى مرض فى نواحى كل بلدة . واشتغل العلماء الكيماويون فى تصفية مياه النيل وتطهيرها وتخليص الأملاح المستخرجة

من الأعشاب والنباتات . واهتمت فرقة الآداب بإنشاء مكتبة يؤمها رجال العلم ومن يريد المطالعة في ساعات معينة . ومما عنيت به من المسائل الاقتصادية جواز السفر ووجوب استخراجهِ وإثبات ورثة الميت بأحقيتهم في الوراثة . . . إلى آخر ذلك .

وجاء المصريون بعد فقلدهم في أعمالهم وساروا على منوالهم . ثم قلدتهم غيرهم من الممالك المحيطة بهم كسوريا وغيرها . وكان هناك نوع آخر من الاحتكاك بالأوروبيين وهو إرسال البعثات إلى أوروبا وخصوصاً فرنسا وانجلترا لتعزيز الجيش وتنظيمه على نظام جديد ، ولذلك عنى محمد على بتأسيس كلية الطب للمحافظة على أرواح الجنود وأنشأ كثيراً من المدارس لخدمة الجيش وغرس الأشجار وخاصة القطن لإصلاح الثروة القومية .
والعامل الثانى كان إنشاء المطبعة ، فقد كانت سبباً في نشر الكتب القديمة وترجمة الكتب الحديثة ووصولها إلى عدد كبير من الخاصة وتوسيع ثقافتهم ، وقد انتشرت المطابع على أساس المطبعة التى أتت بها حملة نابليون وسميت بالمطبعة الأهلية .

ثم كان من أسباب هذا الوعى القومى الوسائل الثلاث التى تكونه عادة وهى : الصحافة ، والسينما ، والإذاعة .

فالصحافة غذت الرأى العام كثيراً بما كانت تنشره من آراء ضد عسف الأمراء وجورهم ، وهى أيضاً أسست على أنقاض جريدة حملة نابليون . وقد تطورت هذه الصحافة بتطور الرأى العام تغذيه كل يوم بأرائها وأفكارها وأخبارها . وأما السينما فكانت وسيلة لنقل الحياة الأوروبية بجدها

ولهوها إلى الشعوب الإسلامية وعرض الحياة الأوروبية في المنازل والحروب وما إلى ذلك ، فكانت عاملاً كبيراً في نقل المدنية الغربية . وأما الإذاعة فإن كبار الكتاب والأدباء بما يلقون من محاضرات وكبار الفنانين بما يعرضون من فن قد رقوا الرأي العام وبلوروه ، على أنه والحق يقال لا يزال الرأي العام في البلاد الإسلامية في بدء نهضة لم ينضج بعد النضج الكافي فإنه لا يزال يخدع بالترهات ويستولى عليه المهوشون ولا يستطيع التفرقة الدقيقة بين الحق والباطل وبين ما يجب وما لا يجب ، وهو يهتم عادة بالمطالب أكثر مما يهتم بالمسؤوليات ، ولا تزال الصحافة والإذاعة والسينما مقيدة الحرية اللازمة لتكوينه تكويناً تاماً . وهو لا ينضج حتى يعقله المصلحون ويمرنوه على المنطق الصحيح والنظام والطاعة والحرية .

ومن العجيب أن أعراض المرض في كل الأقطار الإسلامية تكاد تكون متماثلة ، لأن ما جرى عليها من أحداث متماثل ، والمصلحون يتشابهون أيضاً في جوهر إصلاحهم . غاية الأمر أن الاختلاف بينهم إنما هو اختلاف في البيئات التي كوتهم ومقتضيات كل بيئة ، فإصلاح محمد بن عبد الوهاب إصلاح مصبوغ بالصبغة البدوية لبيئته البدوية ، وجرى على أثره السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وإن كانت آثار الحضارة ظاهرة في إصلاحهما ، وإصلاح مدحت باشا وخير الدين التونسي إصلاح مُدنى بتقليد الغربيين في نظام الحكم وإصلاح الحكومة وما إلى ذلك متأثرين بثقافتها الأوروبية ، وإصلاح تركيا الفتاة ومصطفى كمال إصلاح أوروبي بحت لا ينظر إلا إلى ما فعلته أوروبية في قوانينها ونظمها وعلومها من غير نظر إلى الإسلام وما يتطلبه

وما لا يتطلبه تبعاً أيضاً لبيئتهم .

ولصعوبة الوحدةانية وميل العوام دائماً إلى الوثنية ودعوة الإسلام إلى الإيمان بالمغيبات من جن وملائكة كثرت الخرافات والأوهام وعاد الناس إلى وثنتهم الأولى يقدسون الأبطال والأضرحة والأولياء كما يقدسون أماكن خاصة وأزمنة خاصة من مثل نعل الكولشني وبوابة المتولى وشجرة العذراء وأمثالها . لذلك لم يعتمدوا كثيراً على ربط الأسباب بالمسببات ، فهم يدفعون الحروب بالدعوات ويستجلبون الشفاء بطلب البركة ويمنعون الشرور بالتعاويذ إلى أمثال ذلك .

وقد ظهرت آثار الوعي القومي في مناهضة الاستعمار ومناهضة من يلوذ به من أهل البلاد ، فجعلت الحكم الأجنبي صعباً عسيراً ليس بالسهل اليسير كما كان ، ونهت الخاصة إلى وجوب تنشئة علماء ليسوا كالعلماء السابقين ممن يعنون بالطبيعة والكيمياء ونحوهما ، وأنهضت الصناعة بعد أن فهمت أن البلاد ليست حقلاً زراعياً للمستعمر وأن البلاد لا بد أن تنهض على الصناعة والزراعة معا . وأصلحت ما أمكن إصلاحه من الشؤون الاقتصادية فزادت عمرة البلاد ، وقاربت بين الطبقات ، ثم طالبت بالاستقلال التام فمنها من نجح بفضل قوته وانقسام الدول الأوروبية على نفسها في الاستعمار كسورية ولبنان ومنها من خبط خطوة لا بأس بها في هذا الاستقلال وإن لم يتم بعد ك مصر والعراق .

لقد قلت محاضرة وأنا في السنة الثالثة من مدرسة القضاء سنة ١٩١٠ بمناسبة افتتاح السنة الهجرية ، كان من رأيي إذ ذاك أن من أكبر أسباب

انحطاط المسلمين الحكام ورجال الدين ولا يزال هذا القول صحيحاً إلى اليوم ؛
 فالحكام بيدهم زمام الشعوب وقد قال الله تعالى . « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا
 فأضلونا السبيلا » . وقال : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها
 فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » ، وقد أساءوا إلى المسلمين من جهتين : فأولاً
 من جهة تنازعهم على الخلافة أو الإمارة أو السلطة ، وقد كان هذا العمل سلسلة
 في تاريخ الإسلام لاتنقطع من عهد أن اختلف على مع أبي بكر ثم اختلف
 على مع عثمان ثم معاوية ، ثم نكل السفاح بالأمويين وذبحهم وشردهم ، ثم ما كان
 من الاختلاف بين المأمون والأمين حتى قتل الأمين ، ثم ما كان من الخلاف
 بين السلجوقيين وتنازعهم على الملك وتقاسمهم العلماء والأدباء وتعريضهم للقتل
 أو النفي . ومن ناحية أخرى إمعانهم في شهواتهم ولهوهم وجباية الأموال
 بالقتل أو المصادرة أو كثرة الضرائب وعكوفهم على الخمر والنساء ، وحسبك دليلاً
 على ذلك أن كان يقدر ما يصرف على قصر يلدز في عهد السلطان عبد الحميد
 بألف جنيه كل يوم مع أن قدرة الجنيه على الشراء وقتئذ أكثر من ثلاثة
 أمثاله اليوم .

أما العلماء فمُسئوليتهم من ناحيتين أيضاً : الأولى أنهم أذاعوا في عامة الشعب
 الأحاديث والتعاليم التي تؤيد السلاطين في عصورهم من مثل السلطان ظل الله
 في أرضه وأنه إنما يحكم بأمر الله وإرادته وأنه إن ظلم فإنما يظلم بظلم الناس .
 ومن ناحية أخرى استخدامهم في تخدير الشعب ورضاه بحالته من طريق خطب
 يوم الجمعة في المساجد أو الدروس الدينية أو الوعظ والإرشاد وما إلى ذلك .
 قال الغزالي في الاحياء : « اعلم أن الخلافة بعد رسول الله (ص) تولاهما

الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء في أحكامه وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأقضية فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا ويقبلون على الله تعالى بكنهه اجتهدهم كما نقل من سيرهم ، فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجارى أحكامهم ، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات ، فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولادة عليهم مع إعراضهم عنهم فاشربوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه قبل الولاة ، فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة فتعرفوا إليهم وطلبوا منهم الولايات والصلات ، فمنهم من حرم ومنهم من أنجح والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال ، فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله . وقد أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليهما في الولايات والحكومات ، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمرء من يستمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجاج فيها فتغلبت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام فأكب

الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة ، وكان زعم من قبلهم أن غرضهم الاشتغال بالفتاوى الدينية وتقليد أحكام المسلمين إشفاقاً على خلق الله ونصيحة لهم ، ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص ، فترك الناس الكلام وفنون العلم وانشالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم . وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير غلل المذاهب وتمهيد أصول الفتاوى فأكثروا من التصانيف في الاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمررون عليه إلى الآن ولسنا ندري مالذي يُجِدُّ الله فيما بعدنا من الأعصار فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلاف والمناظرات لا غير ، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معه ولم يسكتوا أيضاً عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين ولا مطلب لهم سوى التقرب من رب العالمين « اهـ

أقول هذا مقاله حجة الإسلام في جماهير علماء المسلمين إلى عهده في أواخر القرن الخامس والقرون الخمسة الأولى خير زمن المسلمين علماً وعملاً وتمسكاً

بالدين ، ثم كان الأمر أمر من ذلك وأقصى من جهالة العلماء ومزج الدين بالتصوف وبالخرافات فازداد تفرقهم إلى شيع ، ثم احتاج إليهم الأمراء في تخدير الرعية وإثارة الخلاف بين السنية والشيعة فعملوا بإشارتهم وخدروا الرعية كما أمروا وبالغوا في تعليم الناس أن ما كان مقدراً لأبد أن يكون وأن ما يحدث بقضاء الله وقدره وأن الفقير فقير لقضاء الله عليه بالفقر والغنى غنى لقضاء الله له بغناه والسلطان سلطان بقضاء الله بسلطانه . وأن السلطان ليس مطلوباً منه عدل في رعية ولا نظر إلى مصالحها فهو إنما يفعل ما يفعل تحقيقاً لمشيئة الله .

كل هذا أضعف من قيمتهم في نظر الملوك أنفسهم وفي نظر الشعوب إلا من عصم ربك .

ومثل علماء الدين مشايخ الطرق الصوفية وقد خضعوا أيضاً للسلطان واستذلوا له وخدروا الشعب من طريق تصوفهم تارة بأن الولاية يصبح أن تجتمع مع مخالفة الدين وتارة من جهة أن السلطان خليفة الله وإنما يأتي ما يأتي بأمر من الله وإطاعته ، فتعاونوا مع الأمراء تعاون العلماء معهم في خدمة مصالحهم الشخصية من طريق خدمتهم للسلطين والكبراء . على أن الدين في كل أمة ليس هو كل شيء ورقى الأمم وانحطاطها يرجع إلى أسباب كثيرة أحدها الدين . يرجع إلى الحالة الاقتصادية في الشعوب وإلى الحالة الاجتماعية وإلى وجود العلماء المخترعين وإلى الدين أيضاً ، بل إن الدين يتلون بلون الأمة ولون عقيدتها ، فالنصارى أنفسهم دينهم اليوم وإن سمي بالنصرانية ليست هي النصرانية التي كانت في القرون الوسطى ولا النصرانية التي كانت في أول عهد البروتستنتية

لكنها نصرانية تغيرت بتغير العقلية . وحسبنا دليلاً على ذلك أن أمة اليابان وهي وثنية الدين لما حذت حذو أوروبا وأمريكا في نهضتهما فأيدت علماء الطبيعة والكيمياء وعلتهم التعليم الحديث وشجعهم على الاختراع والابتكار ساروا سيرها ووصلوا إلى ما وصلت إليه أوروبا وأمريكا وحاربوا روسيا وانتصروا عليها ثم حاربوا أوروبا وأمريكا وانتصروا عليهم أولاً وإن انهزموا أخيراً . ولم تمنعهم وثنييتهم أولاً من النهوض والتقدم وكان تقدمهم في وسائل النهضة الأخرى مغطياً لانهطاطهم الديني . فكيف لو صلح دينهم وسمت روحانيتهم . فقوانين النهوض والانحطاط واحدة في جميع الأمم وطبيعية كطبيعة الشمس تطلع على الكافر والمؤمن وتنبت الزرع للكافر والمؤمن ، ولم يجعل الله التقدم مقصوراً على أمة دون أخرى وعلى أهل دين دون آخرين ، إنما هي هذه القواعد الطبيعية التي من سار عليها تقدم مسلماً كان أو كافراً أو وثنيّاً ومن لم يسر عليها تأخر مسلماً كان أو كافراً أو وثنيّاً والله تعالى يقول : « قل إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » والمتقون هنا من راعوا كل شروط التقدم لا من أكثروا الصلاة والصوم والزكاة والحج فقط ، فإذا استوفت أمة كل هذه الشروط تقدمت لا محالة ، وإذا كانت هذه الشروط عشرة فاستوفت تسعة أو ثمانية كان تقدمها بمقدارها . والدين أحد هذه الشروط لا كلها فالمشركون لو توفرت لديهم كل الشروط ما عدا الدين تقدموا تقدماً ناقصاً بقدر عامل الدين الصحيح .

وقد شاء الله أن يكون تقدم الأمم وانحطاطها . بشروط طبيعية كشروط تمدد الأشياء بالحرارة وانكماشها بالبرودة وانجذابها وفقاً لقانون الجاذبية

والكهرية وفقاً لقوانين الكهرية وهكذا فإذا حصلت الأسباب حصلت المسببات ، فإذا سار المسلمون سير غيرهم في تقدمهم نهضوا نهضتهم وبقدر ما يحققون من شروط يكون مقدار نهضتهم ولا يعبأ الله بالأسماء مسلماً كان أو نصرانياً أو وثنيّاً إنما يعبأ بالأسباب . والمثل العربي يقول : « ومن سار على الدرب وصل » . وأول هذه الشروط هو الوعي القومي الناضج ومعرفة هدفه .

وقد تقدم المسلمون بعض التقدم على قدر وعيهم القومي غير الناضج وغير المحدد الهدف فإذا حدد هدفهم ونضج وعيهم زاد تقدمهم وإلا لا . سنة الله التي خلق الناس عليها ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ، والله تعالى يقول : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . فتقدم المسلمين أولاً وتأخرهم أخيراً ثم نهضتهم ثالثاً لم تكن مجرد حوادث ليس لها تعليل طبيعي وإنما هي معللة لتعليلاً طبيعياً يدركه ذوو العقول الراجعة .

لو نظرنا إلى حال المسلمين في عهد الرسالة وصدر الإسلام وجدناهم كتلة واحدة توحدت غاياتها وتوحدت عقيدتها وتوحدت تقريباً جنسيتها ولهذا كانوا قوة فتحت فأحسنّت الفتح ونظمت فأحسنّت التنظيم . وليس يقوم للعالم الإسلامي قائمة إلا بهذا التوحيد في العقيدة وفي العمل ، ولهذا دعا كثير من المصلحين إلى الجامعة الإسلامية ويعنون بها الرابطة التي تربط بين المسلمين في مختلف الأقطار من فارس وترك وعرب ، وقد كانت كلمة مفزعة لأوربا في القرن الماضي ، وليس صحيحاً ما قاله المرحوم سعد باشا زغلول : « إن صفرأ وصفرأ يساوي صفرأ » ، بل الصحيح أن « ناقص خمسة في ناقص خمسة يساوي زائد خمسة وعشرين » فكل دولة وحدها قد لا تساوي شيئاً ،

ولكنها جميعاً تستطيع الوقوف أمام الاستعمار الأوربي ، وإذا كان الأوربيون يتكثرون على الباطل لمحق المسلمين ، فأولى أن يتكثّل المسلمون على الحق لدفع كارثة الاستعمار ، وقد كان أول من نادى بها في العصر الحديث السيد جمال الدين الأفغاني ، وخلفه الشيخ محمد عبده ، والسيد عبد الرحمن الكواكبي ، غير أن طريقة السيد جمال الدين كانت قوية عنيفة ، إذ كان يريد الثورة على الملوك والأمراء في الداخل ، وإشعال نار الشعوب ضد الخارج ، أما الشيخ محمد عبده فكان في ذلك هيناً ليناً يريد الجامعة الإسلامية من طريق التربية والتعليم ، والسيد عبد الرحمن الكواكبي كان أقرب إلى السيد جمال الدين ، وكان أشد في محاربة الأمراء ، وألف في ذلك العهد كتاب « طبائع الاستبداد » ضد السلطان عبد الحميد ، كما ألف أم القرى لرسم خطة الجامعة الإسلامية ، ولم تطلق أوربا صبراً على جريدة العروة الوثقى التي كان يصدرها السيد جمال الدين في باريس ، فأغلقتها بعد صدور العدد الثامن عشر ، وكان السلطان عبد الحميد يحارب هذه النزعة أولاً ، ثم أراد أن يحتضنها وأهلها أخيراً ، لما تبين له هو نفسه من نفعها ، وكان الشيخ على يوسف يبشر بهذه الدعوة في جريدة المؤيد ، إذ كان ينشر فيها أخبار العالم الإسلامي ، والآراء في تكتله ، وكذلك مجلة المنار إذ كانت تعبر عن آراء الشيخ محمد عبده ، والسيد رضا ، ثم خفت الدعوة بوفاة السلطان عبد الحميد الذي كان يحميها . وأياً ما كان فقد أحس الأوربيون بخطر هذه الدعوة ، وحاربوها بكل قوتهم : بصحفهم ومؤتمراتهم وكل قوة لديهم ، لما تبين لهم من قوتها وخطورها إذا تحققت ، واستنجد بعض الأوربيين الشعوب المسيحية طالبين إعانة

سنوية ، والنهضة بالمبشرين ، وتعيين المبشرين الكبار في الجهات التي يوجد فيها مسلمون ، ونشر الرسائل ، وإنشاء مجلة لمقاومة فكرة الجامعة الإسلامية ، ونشر جريدة لبيان الأفكار التي تطبع مؤيدة لها ، وهكذا . وكان من نتيجة ذلك أن اجتهد رئيس المبشرين وهو المستر « زويمر » في عقد مؤتمر للنظر في هذه الحالة ، فانعقد المؤتمر في سبتمبر سنة ١٩١١ م ، وكان هذا الموضوع — موضوع الجامعة الإسلامية ، وكيفية مقاومتها — من أهم موضوعاته ، وخصص لجتان منه لهذا الغرض . وقد افتتح الرئيس « زويمر » المؤتمر بأن بدأ يدعو للبحث في الوسائل التي يمكن بها مقاومة الإسلام ، وكان يتبع المؤتمر غرفتان عرضت فيهما الغرائب المتعلقة بالإسلام مع مطبوعات جمعية التوراة التبشيرية ، واشترك في هذا المؤتمر ١٦٨ مندوباً و ١١٣ مدعواً عن أربع وخمسين جمعية تبشيرية ، وعلى رأس المؤتمرين القسيس زويمر الذي تصفه جريدة فرنسية بأنه لا يهزم ، وبأنه درس الإسلام في شعوبه ، ومُنِع الصحفيون الإنجليز والأمريكان من شهود هذا المؤتمر ، ولم توزع عليهم النشرات إلا بعد تنقيحها . وقد قال الرئيس في مجلة العالم الإسلامي : إن الإسلام تمخض في السنوات الخمس الأخيرة التي أعقبت مؤتمر مصر عن حوادث خارقة لم يسبق لها نظير ، ففيها حدث الانقلاب إلفارسي ، والانقلاب العثماني ، وفيها انتهت مصر لحركتها الحاضرة ، وعنى المسلمون بمد السكة الحديدية ، وتأسست في الهند مجالس شورية ، ودخلت الأمور الإسلامية في قالب يلائم العصر ، ازداد به التمسك بمبادئ الإسلام ، وانتشر الإسلام في أفريقيا والهند الغربية والجزائر الجنوبية .

وكل هذه الحوادث تهم على الكنيسة أن تعمل بحزم وجد ، وتنظر في أمر التبشير والمبشرين بكل عناية ، وعلى ذلك فسيوضع برنامج للأمور الآتية :

درس الحالة الحاضرة . إنهاض المهم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين والتعليم النسائي . إعداد القوات اللازمة ورفع شأنها . وقد حز في نفس الرئيس ما صارت إليه حالة المسلمين وارتقاؤهم ، وكان مما قاله : إن لفظة العالم الاسلامي ليست شيئاً اخترعه المبشرون ، وإنما هو حقيقة موجودة ، كلمة دقيقة تدل على موقف حقيقي ، وقال : إن عدد المسلمين يزيد قليلاً على مائتي مليون ، والتبشير فيهم يحتاج إلى نفقات طائلة ، خصوصاً وأن الاسلام ينتشر بسرعة ، والمبشرون المنتشرون على ضفتي النيل وشرق أفريقيا وبلاد النيجر والكونغو ، يشكون مر الشكوى من انتشار الاسلام بسرعة في هذه الأنحاء ، ومع أن انتشار الاسلام في الهند قد لقي موانع من مجهودات جمعيات التبشير الهولندية والألمانية ، فهو يتوطد هناك لأن المسلمين أخذوا يستبدلون بالتقاليد القديمة عقائد ثابتة قوية ، وانتقل الرئيس إلى وصف الانقلابات التي حدثت في البلاد الاسلامية ، وحمد الله عليها ، وأثنى على احتلال الجيش الفرنسي لمقاطعة واداي في أفريقيا ، وقال : إنه لم يبق الآن إلا ٣٧ مليون و ١٢٨ ألف و ٨٠٠ — آحاد ، تحت سلطة حكومة إسلامية ، وقال : إن الإسلام بدأ يتنبه لحقيقة موقفه ويشعر بحاجته إلى تلافى الخطر ، وهو يتمخض الآن عن ثلاث حركات إصلاحية ، الأولى : إصلاح الطرق الصوفية ، والثانية : تقريب الأفكار من الجامعة الإسلامية ، والثالثة : إفراغ العقائد والتقاليد القديمة في قالب معقول . وأشار إلى قول الدكتور « و. شيد » :

إن الإسلام يتحرك في كل قطر بالمدينة العصرية ومبادئها ، وقال : إنه ليس في الامكان التقدم الاجتماعى والعقلى إذا خلوا من كل صبغة دينية ، وانتقل « زويمر » بعد ذلك إلى استنهاض الكنائس لمقاومة المسلمين ، ونشر التبشير بينهم ، وختم القسيس كلامه بقوله : « إذا نظرنا إلى البلاد التى يحكمها هذا الدين الكبير المحاصم لنا ، وإلى البلاد التى يتهددها بحكمه ، يظهر لنا أن كل واحدة من هذه البلاد هى رمز لعنصر من المعضلة الكبرى ، فراكش في الاسلام مثال للانحطاط ، وفارس مثال للانحلال ، وجزيرة العرب مثال للركود ، ومصر مثال للمجبودات الاصلاح ، والصين مثال للاهمال ، وجاوه مثال للتغير والانقلاب ، والهند مركز للتتحكك بالاسلام ، وأفريقيا الوسطى مكان للخطر الاسلامى ، وهذه كلها مشاكل يحتاج الاسلام معها قبل كل شىء إلى المسيح

* * *

ومن المؤسف أن حاجة المسلمين إلى الجامعة الاسلامية هى اليوم كما كانت ولم تتقدم كثيراً ، ولم تكف أوروبا عن مناهضتها ، وكل حادثة من الحوادث الكبار تؤيد رأى القاتل بأن المسلمين لا تقوم لهم قائمة إلا بهذه الجامعة ، وآخر حادثة كانت هى حرب فلسطين ، فإن العالم العربى لم يتحد على مقاومة اليهود ، كما اتحدت انجلترا وأمريكا على مناصرتهم ، فضلاً عن عدم اتحاد العالم الاسلامى ، ولو ظل الأمر على هذا النحو فلم يتعضوا بهذا ولم يلموا شملهم ، فستضيع كل يوم بلاد إسلامية جديدة ، فهل يتعلم المسلمون اليوم هذا الدرس ، بما أصابهم من فشل ؟ أو سيبقون كما هم حتى يلدغوا من جحر واحد مرتين وثلاثاً لا قدر الله .

إن الجواب عن هذا السؤال ملفوف بحجاب المستقبل .

وأدركت إنجلترا وفرنسا خطر الدعوة إلى الجامعة الإسلامية فأوعزتا إلى السلطان عبد الحميد بانتداب محمد على لقتال الوهابيين والقضاء عليهم وأوعزت إنجلترا إلى فرنسا بإغلاق جريدة العروة الوثقى للسيد جمال الدين الأفغانى كما بثت الدعوة فى أوروبا كلها للفرع من هذه الجامعة الإسلامية واستبشاعها ، وعلمت إنجلترا وفرنسا أن هذه الجامعة لا تكون إلا بالتعصب للإسلام فكبرتها فى هذا التعصب وعدتاه رذيلة من أكبر الرذائل وخوفتا المسلمين منه رجاء كرههم له وعدوهم عنه مع أن هذا التعصب فضيلة من أكبر الفضائل يقابله تعصب النصارى ضد المسلمين ، بل إن فرنسا كان من دعوتها محاربة اللغة العربية لأنها وسيلة للدين الإسلامى والدين الإسلامى وسيلة للتعصب فكل قطر لا يقوى وحده بإصلاحه ودعوته على محاربة الاستعمار لأن الاستعمار أقوى منه ولكن العالم الإسلامى كله بما فيه من ثلاثمائة مليون على الأقل قادر إذا أخلص النية وصحح العزم على محاربة النصرانية مجتمعة ، وقد كان من أهم مبادئ الإسلام الحج كل عام ليكون مؤتمراً يتذاكر فيه المسلمون شئون دينهم وحالتهم الاجتماعية ويرسمون الخطط لهذا الإصلاح ، كما كان من مبادئ الإسلام أن يكون المسلمون كلهم تحت لواء خليفة واحد يرعى شئونهم وينظر إلى مصالحهم فهذان المبدأان كانا يوحدان الغرض ويوحدان العمل .

لقد اختلف المصلحون فكان مثلاً مثل الشيخ محمد عبده يرى أن التربية الإسلامية الصحيحة يجب أن تسبق الجلاء ، وأنها إذا وجدت ألفت بين

القلوب وقضت على التنافر وجعلت المسلمين وحدة يرمون النصارى إلى خارج بلادهم ، ووجد دعاة آخرون أمثال مصطفى كامل كانوا يرون الجلاء أولاً لأن الإصلاح الحقيقى لا يمكن أن يكون ناجحاً فى عهد الاستعمار وهو المسيطر على البلاد القابض على زمام الأموال المشرف على حركات التربية والتعليم ومهما كان فكلا الرأيين متفق على ضرورة وحدة العالم الإسلامى واجتماع قواه . وكان من أكبر أسباب تخاذل المسلمين فى الحرب الفلسطينية الأخيرة عدم توحيد القوى وعدم وضوح الهدف أمام الجميع ، فصر تحارب والعراق تنكش وشرق الأردن تملىء وكل يدلى بحجته فى تبرير مسلكه وهم جميعاً متفقون على أن وحدتهم كانت قوة وتخاذلهم كان شرّاً عظيماً ، وكان من نتيجة الفشل مهما قيل فى أسباب التخاذل وعلة ضياع فلسطين . وفترت حدة بعض الدول الأوربية فى التشهير بالجامعة الإسلامية كما كانت فى عهد جمال الدين الأفغانى لأنهم أدركوا أن فى تكتل العالم الإسلامى وتوحده مصلحة لهم على شرط أن يكون هذا التكتل ضد روسيا وضد الشيوعية ، وكان يصحح أن يتخذ المسلمون هذه فرصة سانحة لتكوين وحدتهم والعمل على تكتلهم كما كانت السلطنة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد تنتهز الفرصة لوقوع الخلاف بين إنجلترا وروسيا لتشق الطريق بينهما وما كانت تستطيع أن تشقه إذا اجتمعتا .

ولقد كان المرحوم سعد باشا زغلول يرى أن يسبق الدعوة إلى الجامعة العربية أو الجامعة الإسلامية انشغال كل قطر بتقوية نفسه حتى تكون هناك قيمة لائتلاف الأمم القوية لا الأمم الضعيفة ، فبعد أن تقوى الأمم نفسها (١٠)

يكون لها هناك جامعة عربية أو جامعة إسلامية . على أنه فيما أظن لا ينكر أن وحدة العالم العربي أو العالم الإسلامي هو الهدف الأخير . إنما يجب أن تسبقه مقدمات مثل أخذ كل قطر بتقوية نفسه .

وكان السلطان عبد الحميد على عيوبه التي منها الاستبداد والإمعان في الشهوات من أكبر دعاة الجامعة الإسلامية ، يرى أنه لا يمكن الاستغناء عن العنصر العربي بجانب العنصر التركي وأن اجتماع العنصرين قوة لا يستهان بها فإذا انفرد كلٌّ ضعف ، واستغل في ذلك سلطانه على الحرمين الشريفين مكة والمدينة ولما أرادت إيطاليا الاستيلاء على طرابلس الغرب وقف العرب بجانب الترك مستأسيدين واستطاعوا أن يهزموا الطليان أولاً هزيمة منكرة . كل ذلك جعل الأوروبيين من إنجليز وفرنسيين يخشون بأس تركيا ويحذرون قوتها بهذه الجامعة الإسلامية . ولهذا لما قضى مصطفى كمال على الخلافة هب الهنود المسلمون ورأوا فناءها كارثة على الإسلام والمسلمين ... وجاءت حركة مصطفى كمال ترى أن انضمام العرب والترك كان كارثة على الترك خصوصاً بعد ما ظهر من تخلي العرب عن الترك في الحرب العالمية الأولى فنادى بالتخلي عن العرب والاقتصار على العنصر التركي لأن ذلك يسهل له طريق النهوض من غير أن يحمل على ظهره أعباء النهوض بالعرب أيضاً . ومن ناحية أخرى رأى العرب أن الأتراك وحكمهم سبب تأخرهم وعدم نهوضهم فتخلوا عنهم فكان هذا الانشقاق كارثة على الجامعة الإسلامية كلها . ومن ذلك الحين لم تصف نفوس العرب ولا نفوس الأتراك إلى اليوم ، وظلت هناك كتلتان كتلة عربية وكتلة تركية على غير وئام وانسجام ،

وأصبحت نزعتها مختلفتين : نزعة للعرب يدعو قاداتها إلى الرجوع إلى الاسلام الأول مع الأخذ من المدنية الغربية بأحسن ما وصلت إليه وخاصة العلم ونزعة تركية تدعو إلى التحرر من الماضى واتخاذ المدنية الغربية أما فى كل شىء . ولكن الاسلام إذا دخل قلباً صعب عليه أن يخرج منه ، فأين الأتراك بعد موت مصطفى كمال يحنون إلى الاسلام من جديد ويرجعون فى نزعتهم بعض الشىء وخصوصاً الأشيخ منهم . ومن الأسف أن فكرة الجامعة الاسلامية مع ظهورها لم يتحد العرب والأتراك فى اعتناقها ، حتى لما رأت حكومتا أمريكا وانجلترا مصلحتهما فى تكتل المسلمين كتلة واحدة معهما أشارتا على العرب والترك بالاتحاد فكان ذلك خضوعاً للإشارة ، لامراعاة للمصلحة ..

ولما قامت الحرب العالمية الأولى أحست أوروبا بالقلق واحتمال الهزيمة فاستنصرت بالمبادئ الانسانية الأخلاقية القوية من مثل حق الأمم الصغيرة فى حكم نفسها بنفسها وإطلاق حريتها ونحو ذلك . وصرحت عشرات التصريحات فى هذا المعنى فاعتقد العالم الاسلامى صحة هذه الأقوال ومنوا أنفسهم أمانى بعيدة ، وتداول المسلمون فى جميع الأقطار هذه الأقوال بل حفظوها حفظاً ، فلما انعقد مؤتمر فرساي تبخرت كل هذه الأقوال وعاد الأوروبيون إلى مسلكهم الأول وانفجر العالم الإسلامى فى كل مكان واشتعلت الثورة فى مصر وفى طرابلس وفى المغرب وفى الهند تطلب كلها إبرار الأوروبيين بوعودهم ، وافتتح العالم الإسلامى عهداً جديداً ، عهداً مؤسساً على خيبة الأمل والانخداع بالوعود الأوروبية مما حمل الأوروبيين على أن يغيروا موقفهم تجاه هذه

الحركات العنيفة فغيروا كلمة الاستعمار بكلمة الانتداب ومنحوا بعض الأقطار الاستقلال كاملاً أو ناقصاً وعلى العموم فقد خطت البلاد الإسلامية خطوة جديدة لم تكن معروفة للعالم الأوروبي من قبل . ولما جاءت الحرب العالمية الثانية تكررت نفس المأساة فكان بعض العقلاء يرون أن وعود الأوروبيين والأمريكيين وعود خلافة لا تثبت في السلم وأن السلم إذا جاء يبخرها ، ولكن أكثر الشعوب الإسلامية انخدع في المرة الثانية كما انخدع في المرة الأولى ، وإذا كانت الشعوب الإسلامية قد لدغت مرة من قبل فإنها لم تتألم من اللدغة الثانية تألماً من اللدغة الأولى ولكن ظل حنقها كميناً .

وحين جاءت الحرب العالمية الثانية شفى العالم الإسلامى غليله لوقوع القتال بين الدول النصرانية علماً منهم بأن الخاسر في هذه الحرب هو الغالب والمغلوب معاً ، وأملت أن يكون في هذه الحرب الساحقة ما يخفف الأثقال عن كاهلها . ولا يدرى إلا الله ماذا سيكون لو وقعت حرب ثالثة فربما أمل العالم الإسلامى خيراً من النزاع الشديد بين الدول الديمقراطية ، أو بعبارة أخرى الرأسمالية ، وبين روسيا الشيوعية فإن الاختلاف بين الدول النصرانية يفسح المجال أمام العالم الإسلامى ويجعله يشق طريقه بين المذهبين ويستطيع أن يكسب من الخصمين إذا أحكم النظر وأعمل الفكر . ولكن فت في عضد المسلمين داخلياً ما رأوه من تخاذل المسلمين وكذبهم في سبيل النصر ضد الصهيونيين ، وخارجياً بما رأوه من اتفاق الكتلتين الديمقراطية والشيوعية على مناصرة الصهيونيين وإخراج المسلمين من ديارهم ومساعدتهم بكل ما أمكنهم . فكان التخاذل مع الحق أمام الاتحاد على الباطل ، ولكن ربما

كان هذا ناراً تلهب قلوب العالم الإسلامي من جديد وتنكأ جروحهم القديمة وتجعلهم يؤمنون بأن الأمل في الاعتماد على فريق منهم أمل ضائع وألا أمل إلا في الاعتماد على الله وعلى أنفسهم .

وهذا الوعي القوي الذي حدث في العالم الإسلامي من جراء هجوم الأوروبيين عليهم واستعمارهم سبب ثورة في كل قطر من الأقطار الإسلامية، فشبت في الجزائر ثورة سنة ١٨٧١ وهب رجال الدين في كل بلد من بلاد إفريقيا الشمالية يستثيرون المسلمين ويستنفرونهم للحرب والجهاد، وكانت ثورة المهدي في السودان المصري وهي ثورة دامت طويلاً وكلفت الانجليز خسارات كبيرة ولم تخمد حتى استطاع كتشنر أن يستولى على الخرطوم، وانفجر في أفغانستان بركان حقد وعداء للغرب وطارت شرارة منه إلى مسلمي الهند فألهبت صدورهم فهبوا يشقون الطاعة ضد الانجليز، وثارت أواسط آسيا على يد الطريقة النقشبندية فأخذت تمتد وتنتشر شرقاً حتى بلغت الأقطار الصينية فتثار مسامو الصين ثورتهم الكبرى في تركستان، وأشعلت جزائر الهند الشرقية الهولندية ثورات متوالية . ولكن هذه الثورات كلها كانت محلية متقطعة يعوزها التنظيم والاتحاد وتوحيد قوة القيادة والإيمان بأنه لا يصد الأوروبيين مجتمعين إلا الجامعة الإسلامية . وقد أدرك هذا بعض القادة مثل محمد ابن عبد الوهاب في الحجاز والسنوسي في الصحراء والسيد جمال الدين الأفغاني، ولكن كان هناك حركة معاكسة لهذا ترى أنه لا يمكن الإصلاح إلا إذا قوت أولاً كل أمة نفسها وحذت حذو أوروبا في جميع مناهجها في النهضة، كحركة مصطفى كمال في تركيا ومحمد علي في مصر وأمان الله خان في

الافغانستان . فكل هذه الحركات كانت حركات لادينية لا تؤمن بالجامعة
الاسلامية . ولذلك تخلى مصطفى كمال عن العرب . بينما كان محمد ابن
عبد الوهاب والسيد جمال الدين والسنوسى ينظرون دائماً إلى عهد الاسلام
الأول وقدرة نظامه على الاصلاح التام وضرورة اجتماع كلمة المسلمين كما
كانوا مجتمعين من قبل أن تفرقهم السياسة والمذاهب الدينية .

فالنزعتان مختلفتان والطريقان أيضاً مختلفان . وإذا قلنا إن حركة مصطفى
كمال ومحمد على حركة لادينية فلم يكن هذا بمعنى واحد فإصلاحات مصطفى
كمال ترمى إلى التهور فى تقليد الأوروبيين ، أما محمد على فحركته وإن
كانت لادينية فترمى إلى شىء من الاعتدال فى تقليد الأوروبيين . ولئن
كانت حركة مصطفى كمال ومحمد على مناسبة لشعبيهما قد تقبلها الشعب التركى
والمصرى بقبول حسن فإن الشعب الأفغانى لم يستطع لتأخره أن يهضم حركة
الاصلاح التى قام بها أمان الله خان يقلد فيها حركة مصطفى كمال ، بينما مجد
الشعب التركى مصطفى كمال والشعب المصرى محمد على .

أما حركة مصطفى كمال فإنه بعد انتصاره على اليونان أخذ يفكر فى الأسباب
التي أدت إلى انهيار تركيا هذا الانهيار ، ومحوه لهذه الأسباب وتقليده للأوروبيين
فى كل تصرفاتهم ، فوطن مصطفى كمال نفسه على أن يسير فى الطريق الذى سار
فيه الأوروبيون لتكوين نهضتهم وتدعيمها واتخذ الحضارة الأوروبية إماماً له
ولو خالفت الإسلام غير ناظر مطلقاً إلى المبادئ الإسلامية بل لا يأنف أن يهاجمها
إذا تعارضت مع الحضارة الأوروبية .

ونفخ مصطفى كمال فى الأمة روحاً جديدة ترمى إلى الاعتزاز بقوميتهم بدل

الاعتزاز بدينهم ، وبث في قومه العزة والفخر بوصفهم أحفاد الطورانيين كما كان بعض الدعاة في مصر يدعون للاعتزاز بأنهم أحفاد الفراعنة . وأيد الفكرة الضعيفة التي قال بها بعض علماء قليلين من الأوروبيين التي تذهب إلى أن لغة السومريين منشأ الحضارة البابلية القديمة كانت ذات صلة بالتركية والقائلة بأن اكتشافات حدثت في الأناضول تدل على أن شعوب آسيا الصغرى اقتنست من حضارة الحيثيين التي أخذت من البابليين ثم أخذتها شعوب آسيا الصغرى وعنها أخذ الجنس الأوروبي ، فأصل الحضارات كلها إذن في زعمهم هي الحضارة التركية .

ثم صفت اللغة التركية من كثير من الكلمات العربية والفارسية وبحث مكانها عن كلمات طورانية قديمة حتى الأعلام مثل مصطفى كمال غيرت بكلمات أخرى مثل أتاتورك . وفي سنة ١٩٢٨ دعا مصطفى كمال مؤلفاً موسيقياً نمسويّاً للتدريس في المعهد الموسيقي باستنبول لإدخال العنصر الأوروبي في الموسيقى على العنصر التركي .

وكان طبعياً أن يسير الأدب هذه النهضة من مثل الأدبية التركية خالدة أديب التي لحقت مصطفى كمال إلى الأناضول وشاركت بنفسها في معارك التحرير وصورتها تصويراً رائعاً في روايتها « قميص النار » .

ورعى مصطفى كمال الفنون والآداب رعاية تامة علماً منه بأنها تخدمه خدمة كبرى في نزعاته الجديدة فشجع المماريين الأتراك على أن ينشئوا العمارات الكبيرة وفقاً لأحدث الطرز الأوروبية الحديثة . وشجع النحاتين الألمان أن ينحتوا تماثيل كالتماثيل الأوروبية وفي مقدمتها تمثال أتاتورك .

واستقدم رسامين فرنسيين ليعملوا الأتراك أصول فن الرسم الحديث كما استقدم بعض مشاهير الموسيقيين وألحقهم بمعهد استنبول . وشجع الأدباء الذين ينهجون في أدبهم منهجاً يوافق نهضتها من مثل الشاعر الغنائى الكبير عبد الحق حامد والشاعر أحمد هاشم والقصى الروائى يعقوب قدرى الذى وضع القصة على أساس فن روائى حديث .

أما محمد على فى مصر فقد كان أكبر اهتمامه بالجيش وإصلاحه ، وتدعيم وسائل هذا الإصلاح من غير هزة عنيفة كالتى عملها فى تركيا مصطفى كمال ، وقد أنشأ الجديد مع محافظته على القديم . فالمدارس المدنية بجانب الأزهر ، والقضاء الأهلى بجانب المحاكم الشرعية والكتب الأدبية المترجمة بجانب الكتب التركية والعربية القديمة وهكذا .

كانت حركة مصطفى كمال فى تركيا ومحمد على فى مصر وأمان الله خان فى أفغانستان حركات لا دينية بالمعنى التى ذكرناها قبل ولم تكن تنظر إلى الجامعة الإسلامية ، ولم ينظروا إلى المبادئ الإسلامية فى قليل أو كثير وإن كان محمد على كان يريد التوسع فى مملكته بقدر الإمكان لا لإنشاء جامعة إسلامية ولكن لإنشائه دولة واسعة علوية تشمل العراق وسوريا والأناضول ومصر .

يقابل هذه الحركة حركات أخرى تريد الجامعة الإسلامية وتريد النظر إلى الإسلام فى حالته الأولى مثل محمد بن عبد الوهاب فى الحجاز والسيد جمال الدين الأفغانى فى مصر والسنوسى فى ليبيا .

وأياً ما كان فالعمل لتكوين هذه الجامعة الإسلامية لم يتحقق بعد ،

فقد ثارت كل أمة وحاربت وجاهدت وأعلنت مبادئها من غير أن يكون لها قيادة واحدة تنظم حركاتها وتوجهها وجهة واحدة .

بقيت هناك طائفة في كل أمة من الأمم الإسلامية تشمل أفئدة طلاب المدارس الثانوية والعالية والجامعة . وهؤلاء إن عدوا مسلمين فمسلمون جغرافيون ليس إلا . لا يعنهم الإسلام في قليل ولا كثير ولا يؤدون شعائره ولا يلتفتون إليه إنما هم مقلدون للأوروبيين في منهجهم وسلوكهم قد يرجى منهم الخير من ناحية الوطنية والقومية لا من الناحية الإسلامية ، لا يفهمون تمام الفهم حقيقة للإسلام ولا علم لهم بمبادئه بل لا علم لهم بكثير من شعائره . دخل سعد باشا زغلول يوماً مدرسة المعلمين قبيل العيد فسأل طلبة الفصل عن صلاة العيد وكيفيتها فلم يعرف أحد منهم كيف يصلونها . وقد سألتى بالأمس مستشرق هولندي الأسئلة الثلاثة الآتية :

قال : هل عندك أمل في الأزهر ؟ فقلت : لا . لأن حركة الإصلاح التي يطالب بها الشبان يستطيع أن يخمدوها الشيوخ بقوتهم وسلطانهم إلى أسباب أخرى لا محل لذكرها . وإنما يصلح الأزهر إذا بدأ بجعل نفسه كلية دينية ، فالطلبة كلهم يتعلمون في المدارس الثانوية على السواء وبعد التعليم الثانوي ينوع الطلبة . . . هذا قوى في الأعمال اليدوية فيوجه إلى ذلك وهذا قوى في الأعمال العلمية فيوجه إلى الجامعة ، وهذا قوى في الناحية الدينية فيتوسع معه في اللغة العربية والتاريخ الإسلامى والدين ، فإذا حاز البكالوريا التحق بالكلية الدينية التي هي الأزهر فيتوسع ويتعمق في دراسة الدين والفقه وما إلى ذلك .

وكان السؤال الثانى : هل عندك أمل فى الجامعة المصرية ؟ فقلت : « لا » أيضاً . قال : لم ؟ قلت : إنك بالضرورة تسألنى عن أثر ذلك فى الإسلام والجامعة لا تأبه بالإسلام وإنما تؤسس علومها ومناهجها على النمط الأوروبى ، فقد يكون لها أثر كبير فى الوعى القومى والحركة الوطنية أما حركة إسلامية فلا .

وسألنى السؤال الثالث : هل توافق على نفاذية الأستاذ على عبد الرازق فى كتابه الإسلام وأصول الحكم من أن رسالة الإسلام رسالة روحانية فقط وليس لها دخل فى الشئون المدنية ولا الدنيوية ؟ قلت له : « لا » أيضاً لأن الإسلام جاء بنظام دينى ودنيوى معاً ، أما الدينى فظاهر وأما الدنيوى فدليلنا على ذلك أنه جعل نظاماً كاملاً شاملاً للشئون المالية كالبيع والإجارة والرهن ونحو ذلك . وكتحريم الربا وتحليل البيع وفى الشئون الاجتماعية ، كنظام الزواج والطلاق والميراث والوقف ونحو ذلك . غاية الأمر أن المسلمين أجادوا فى التوسع فى هذه المسائل حتى لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة ولكنهم قصرُوا فى وضع القانون الدستورى كمن يتولى الخلافة ومن هم أهل الحل والعقد .

على كل حال وجدت فى السنين الأخيرة حركة إسلامية تدعو إلى الرجوع للإسلام والأخذ بشعائره على يد الإخوان المسلمين وتتناهض الحركة المنتشرة كانت بين طلبة المدارس الثانوية والجامعة من عدم اهتمامهم بأمور الدين . وكانت تعاليمهم كما فى قانونهم العمل على تكوين جيل جديد ، يفهم الاسلام فهمًا صحيحًا ، ويعمل بتعاليمه ، ويوجه النهضة إليه ، حتى

تكون مظاهر حياة الأمة كلها مستمدة من روحه ، مرتكزة على أصوله ، وذلك أولاً : (١) بتقوية الفضائل الخلقية ، وإحياء الشعور بكرامة الأمة ، وتحرير النفوس من الضعف واليأس والرهبة ، واتباع القرآن في قوله : كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .

(ب) التحذير من الاندفاع في حياة المتعة والترف ، والمادة ، وتقليد الغرب في ذلك إعجاباً بحضارته المادية ، والتذكير بأصول الحضارة الإسلامية الفاضلة المجيدة « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » .

(ج) نشر الثقافة والتعليم والمحافظة على القرآن الكريم ، ومحاربة الأمية بإنشاء المدارس والأندية والأقسام الليلية ، والنشرات الدورية ، والمحاضرات وغير ذلك من الوسائل العلمية النافعة . « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (د) تأسيس المنشآت النافعة للأمة روحياً واقتصادياً ، ما أمكن ذلك ، كالمشاغل والمستوصفات الطبية ، والعيادات الخيرية والمساجد وإصلاحها وترميمها ، والإنفاق عليها ، والإشراف على إدارتها ، وإحياء الشعائر فيها ، « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » .

(هـ) علاج الآفات الاجتماعية كالمخدرات ، والمسكرات ، والمقامرة ، والبغاء ، ونشر الدعايات الصحية ، خصوصاً في القرى والأرياف ، وإرشاد الشباب إلى الاستقامة الصحيحة . « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » . (و) تشجيع أعمال الخير والبر ، وتنظيمها ، ومساعدة الفقراء والبائسين

والمصالحات بين الأفراد والأسر ، حتى يقوم التحاكم إلى الحب والإخاء مقام التحاكم إلى القانون والقضاء .

(ز) تقوية روابط التعارف والإخاء بين الشعوب الإسلامية كأمة واحدة ألف بين قلوبهم الإسلام والعمل الدائب على إزالة الفرقة والانقسام عن صنوف المسلمين . « إنما المؤمنون إخوة » .

(ح) تنمية روح التعاون الاقتصادي ، والتعامل بين أعضاء الجماعة ، بتشجيع المشروعات الاقتصادية ، وتكوينها ، والنهوض بها . « وتعاونوا على البر والتقوى » .

(ط) الدفاع عن الإسلام ومقاومة كل عدوان يراد به « وجاهدوا في الله حق جهاده »

(ي) تقوية الروح الرياضية الصحيحة في نفوس الشباب ، وزاده « بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم » .
هذه أهم تعاليم الإخوان المسلمين ومبادئهم ، وهي مبادئ سليمة ترمي إلى إحياء الحياة الروحية وتغلغلها في الحياة المادية والاقتصادية . وقد نجحت في نشر تعاليمها ؛ لأنها والحق يقال وجدت في زمن ضل فيه الشباب ، وحار ، واحتاج إلى زعيم يرشده .

وقد لمست صلاح دعوتهم لما كنت عميداً في كلية الآداب سنة ١٩٤٠ :
فكنت أرى الشباب المنضم إلى هذه الجمعية شباباً يتحلى بالفضيلة ، وتظهر فيه علامات الرجولة . ولكن مع الأسف أراد زعماءه السيطرة والحكم ، وهذا أمر شائن . وأرادوا تنفيذ مبادئهم بالقوة لا بالإقناع ، فاستخدموا

القنابل وسفك الدماء ، وكانت النتيجة مأساة ضاع فيها رئيس حكومة ورئيس حزب .

وكان الأولى فى نظرى ألا يتعجلوا ، وأن يستمروا طويلا فى الإصلاح الخلقى والاجتماعى ، ولكن كان عذرهم أن الاسلام دين وحكم ، وأن الاصلاحات المختلفة المتنوعة لا يمكن تحقيقها تحقيقاً كاملاً إلا بحكومة منها لا بحكومة تؤيدها وتشرف عليها ، مع أن السياسة مملوءة بالأشواك ، وكذلك كان . فقد اصطدم الحزب بهذه الأشواك ، وليس يدرى إلا الله ماذا سيكون وليس من الضرورى محاولة الاصلاح الكامل الشامل ابتداء ، بل يمكن البدء بإصلاح ناحية إذا تعذرت ناحية . والإصلاح الاسلامى نفسه جاء أول أمره خطوة خطوة ، وحرمت الخمر عند الصلاة أولاً ثم حرمت إطلاقاً ثانياً .

وحقى المحايدون من المسيحيين اعترضتهم شبهات كثيرة على الإسلام منها أنهم رأوا خلافاً بين القرآن والتوراة من جهة ، وأحياناً نقصاً فى القرآن عما ورد فى التوراة من جهة أخرى . والجواب عن المسألة الأولى أن المسلمين يعتقدون أن التوراة حدث فيها بعض التحريف وقد أيد ذلك الباحثون من العلماء فى الكتاب المقدس ، وإذا كان هناك اختلاف بين القرآن والتوراة فلم يكون الصحيح هو التوراة والخطأ هو القرآن ولا يكون العكس . وأما المسألة الثانية فالتوراة تعرضت لكثير من المسائل التى هى من صميم التاريخ على حين أن القرآن لم يتعرض إلا للمسائل التى هى موضع العظة والاعتبار فقط فلا يهمهم إن كان النبى عمر كم سنة أو نحو ذلك . على هذا كان أسلوب القرآن أوقم لأنه كتاب دين لا كتاب تاريخ .

ومن شبهاتهم تعدد الزوجات وهم إنما يشتبهون فيها لنظرهم العصري أما إذا نظروا إلى المسألة في زمن النبي (ص) وجدوا أنه خطأ في هذه المسألة خطوة جريئة نحو الإصلاح وتوحيد الزوجة لحرم القرآن الزيادة عن أربع بعد أن كان الزوج مباحاً لا إلى حصر واشترط للتعدد العدل والقدرة عليه فقال : « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحد » . والإسلام لا يمنع الخطوة الثانية وهي قصر الزواج على واحدة وهو متروك للاجتهاد ينظر فيه المجتهدون إلى حال الزمان والمكان والمصلحة العامة .

بقي بعد ذلك من شبهاتهم الرقيق ونقول فيه ما قلناه في تعدد الزوجات وحديث الافك وحديث الغرائق ، وقد كتب عنهما المرحوم الشيخ محمد عبده في الاسلام والنصرانية ما فيه الكفاية .

ولم يقتصر غزو النصارى للأقطار الشرقية والإسلامية على السيف والحديد والنار، بل لقد غزوها أيضاً بمدنيتهم وتشرب كل قطر من هذه المدنية بمقدار استعدادها، وكان الأقباط في مصر والنصارى في لبنان أكثر امتصاصاً لهذه الحضارة من إخوانهم المسلمين، ولكن على كل حال أخذ الجميع بقدر وافر من هذه الحضارة فأصبح كل بيت من بيوت المسلمين يأخذ بقسط منها فيضاء بالكهرباء ويفرش بالسجاد الأفرنجي ويسمع فيه الراديو الأوربي ونحو ذلك ، ولم يقتصر على مسائل الحضارة المادية بل أيضاً غزتها بالأفكار والمعاني ، فكما أن الأقطار اقتبست عربات الترام وقطارات السكك الحديدية ونظام البريد وآلات الحرث ونحو ذلك ، اقتبست أيضاً من الحضارة الأوربية نظم التعليم وآراء الأوروبيين في علم النفس وعلم الاجتماع والأخلاق وما إلى ذلك .

وإذ كان المسلمون ذوى حضارة قديمة مأخوذة من حضارة العرب وما تتابع عليهم من فرس وأتراك ونحوها وما اقتبسوه من فلسفة يونانية ورومانية فقد اضطربت فى أذهانهم وحياتهم المادية الحضارة القديمة التى عاشوا عليها قروناً مع الحضارة الحديثة اضطراباً شديداً يختلف باختلاف الأمم والأفراد فى الأمة الواحدة فقد يغلب ذاك وقد يغلب هذا، وربما ظهر هذا بأجلى مظاهره فى الأدباء الشرقيين، فمنهم من إمامه الشاعر الجاهلى والمتنبى وغيرها من أصحاب الأدب القديم وفى النثر إمامهم الجاحظ وأبو الفرج الاصبهاني وابن خلدون ونحوهم، ومنهم من إمامهم شعراء أوربة وناثروهم وروائيوهم وقصاصوهم..... إلخ وهؤلاء أيضاً يضطربون فيما بينهم اضطراب الحضارة القديمة بالحضارة الحديثة. وإذ كانت الحضارة الأوربية مسيحية فى جوهرها كان الأقباط فى مصر والمسيحيون فى لبنان أقرب إلى تقليدها والأخذ عنها وكان اقتباس القسم المادى من الحضارة أكبر من اقتباس القسم المعنوى. وإذ كان هذا الاضطراب حادثاً كان السير على المدينة الغربية سيراً أعوج كما يقول اللورد كرومر فى مناصرى المدينة الغربية: «إنهم مسلمون وليس فيهم خواص إسلامية وأوروبيون وليس فيهم خواص أوربية»، ودليلنا على ذلك ما تحمله إلينا البواخر كل يوم من نتاج المدينة الغربية مما له تأثير كبير فى الشرق ويظهر مدى تأثيره فى الانقلاب الفظيع الذى حدث للمسلمين فى منتصف القرن التاسع عشر والعشرين، فإنك لو قارنت بين تغيرهم فى هذا القرن وتغيرهم فى العشرين قرناً الماضية لوجدت التغير الحادث فى القرن الأخير يكاد يكون مساوياً للقرون العشرين الماضية. بل لقد أصبح مقياس المفكرين من المسلمين والمتقنين ثقافة عالية فى كل نظام

يضعونه ومشروع يقومون به وفكرة يدعون إياي. تساؤلهم السؤال الآتي :
 ما هو رأى علماء أوروبا في ذلك ومن ابتكره وبم أيده ، وبم عارضوه ، وقلما
 يتساءلون : ما رأى الحضارة الإسلامية القديمة في ذلك وهل يتفق مع مبادئها
 أو يخالفها ؟

نعم كانت هذه الحضارة الغربية ذات أثر تقدمي كبير في العالم الإسلامي
 ولولاها لظل يرسف في قيوده التي كان يرسف فيها ولكنها لا تخلو من عيوب ،
 فقد باعدت بينه وبين الحضارة الإسلامية القديمة ، ولم تكن ناتجة من نفس
 المسلمين كما كانت الحضارة الغربية ناتجة من نفس الغربيين بل هي دخيلة
 عليهم دخول الأجنبي بلادهم ومثلها مثل شجرة أريد تضخيمها بأوراق شجرة
 أخرى من الخارج لا بنموها الطبيعي لها من الداخل . إن الحضارة الغربية
 قد نشأت ولها من ذاتها غالب عناصرها وخواصها وصفاتها نشوءاً طبيعياً
 متدرجاً مجتازة الأدوار المختلفة على مقتضى سنة النشوء ، أما الشرق فهو في
 كثير من مواضع الانقلاب يطفر في تحوله طفوراً إذ أن ما يأخذه عن
 الغرب ويقتبسه منه دفعة واحدة قد تقضت على تكامله عند الغربيين الأجيال
 والقرون ، فكانت النتيجة أن غلبت صفة الطفرة لصفة النشوء المترقى على
 تطور الشرق هذا التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني وغير ذلك .
 ولذلك كثيراً ما ترى في الشرق المحراث القديم الذي كان في عهد (مينا)
 بجانب أحدث طراز من المحراث الإنجليزي أو الأمريكي ، وترى منهج الدراسة
 الأزهرية في القرون الوسطى بجانب الدراسة الجامعية التي تسير على نمط جامعات
 أوروبا وأمريكا .

وأياً ما كان فما هو مستقبل الإسلام ؟ يدور هذا السؤال في الخاطر والجواب عنه صعب عسير لأنه خاضع لعوامل كثيرة في المستقبل سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية . إن مما لا شك فيه أن الأمم الإسلامية سترتقى ارتقاء تدريجياً في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية وخاصة في العلوم الدنيوية ، وكل يوم يدل على أن الأمم الإسلامية سائرة إلى الأمام في هذه الأبواب . ولكن ما هو مصير الإسلام كدين وهو أحد العوامل في رقي الأمم ؟ يتوقف هذا على الحرب القادمة . فكل الدلائل تدل على أنه في الأرجح أن تقوم الحرب في العشر السنوات القادمة بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الديموقراطي ، وسيكون العالم الإسلامي أحد الميادين لهذه الحرب وسيكون ميداناً يقع فيه المد والجزر أولاً : ثم قد تنتصر الشيوعية وقد تنتصر الديموقراطية ، فإذا انتصرت الشيوعية فليس هناك أمل كبير في الحالة الدينية وقيام الإسلام من جديد إلا إذا عادت الشيوعية إلى التدين ، أما إذا انتصرت الديموقراطية فسيكون هناك مجال للدين الإسلامي كالمجال للدين النصراني ، ولكن في هذه الحالة يحتاج المسلمون مع نشاطهم العلمى إلى إصلاح دينى جريء شامل ، وأهم ما يحتاجون إليه الاجتهاد المطلق الذى شرحناه من قبل والذى ينظر إلى الإسلام وتعاليمه من جهة وإلى حالة كل قطر اجتماعية وما يلزمها من جهة أخرى . فنحن محتاجون إلى اجتهاد كاجتهاد عمر الذى أوقف الإعطاء للمؤلفة قلوبهم ، مع أن الله عديم من يأخذون الصدقات ، وعلل ذلك بأن الدين إذ ذاك كان قلاء فكثرت ، ومثل إيقاع الطلاق الثلاث ثلاثاً مع أن الآية تقول الطلاق مرتان والطلاق الثلاث ليس بالإمرة .

والئن كان الاجتهاد المطلق عسيراً في الأيام الماضية فهو أسهل اليوم إذ كان المجتهد يرحل من بغداد إلى مصر لأخذ حديث واحد أو تصحيحه ، فالكتب اليوم والمطابع يسرت الأمر على من أراد الاجتهاد . وكل زمن محتاج إلى مجتهد بل مجتهدين في كل قطر يعرفون مطالبه والحالة الاجتماعية التي تدعو إلى نوع من هذا الاجتهاد ، وما قد يصلح في قطر قد لا يصلح في آخر وما يحتاج إليه قطر قد لا يحتاج إليه الآخر وما يحتاج إليه القطر في عصر قد لا يحتاج إليه القطر في عصر سابق .

وقد لاحظ المصالح الشهير سراج على الهندي أن آيات الأحكام التي وردت في القرآن نحو مائتي آية من آلاف الآيات ورأى أن جزءاً كبيراً من هذه الآيات لم يرد في الأحكام قصداً وإنما استنبط الفقهاء منه أحكاماً شرعية منع أنها وردت للوعظ والإرشاد أو نحو ذلك ، وقد روى من هذا القبيل نحو ثلاثة أرباع هذه الآيات فلم يبق إلا ربع هذه الآيات وهو خمسون آية يضاف إليها نحو سبعة عشر حديثاً في الأحكام هي التي صحت عند أبي حنيفة النعمان كما قال ذلك ابن خلدون في مقدمته . فأيات الأحكام وأحاديث الأحكام تجعل باب الاجتهاد مفتوحاً أمام المجتهدين . ورأينا في هذا الاجتهاد بهذا المعنى الواسع يعتمد فيه على سنة عمر ومن سلك مسلكه ، فأمد هذا الباب بآراء كثيرة اجتهد فيها .

* * *

ومما يؤسف له أن المدينة الغربية غزت الشرق تحت دوى المدافع وصيل السيوف ، فاستقبلت استقبالا سيئاً واعتقد المسلمون فيها أنها مدينة نصرانية

لا عالمية ولذلك كان الأقباط في مصر أقرب إلى قبولها والانتفاع بها من المسلمين . على كل حال زاد ضغط الأمم الغربية على الشرق وعاملوه معاملة قاسية كالتى ذكرنا فزاد كره المسلمين للمسيحيين الفاتحين وتمنوا الفرصة التى تسنح للتخلص منهم ، وساعد على ذلك أن الطبقة الثانية من الحاكمن المستعمرين لم يكونوا كالأولين مثل اللورد كرومر في مصر فقد كان أحكم وأحزم وخلفه مثل غورست وكتشنر فلم يكونا في حكمته ومهارته . وزادهم طموحاً أن المصلحين الأولين مثل محمد بن عبد الوهاب والسيد جمال الدين الأفغانى كانت قد نضجت تعاليمهما وأثرت في المسلمين أثراً كبيراً ثم كانت حركة تركيا الفتاة ودعوتها إلى الحكم الشورى وخلع نير الاستبداد . فطمح المسلمون في الأقطار الأخرى إلى أن ينالوا مثلاً نالوا ، فثارت مصر على الإنجليز وثار المغاربة على الفرنسيين وثار الهنود على الإنجليز وثار العجم على روسيا وإنجلترا وهكذا ، فلما جاءت الحرب العالمية الأولى تنفس المسلمون الصعداء وفرحوا لوقوع الدول الغربية بعضها في بعض وعلموا أن الحاربيين جميعاً سيخرجون منهزمين سواء منهم الغالب والمغلوب . وجاءت تعاليم واسن فقوت طموحهم وأملهم في المستقبل فلما خاب رجائهم ثاروا ثورة أخرى وغلوا نالته لما أعاد الدعاة مبادئ ولسن في الحرب العالمية الثانية ثم لم تحقق ، ولكن كان المستعمرون مختلفين في السياسة الاستعمارية . ومن عادات الإنجليز أنهم يتنسمون الريح ويبنون سياستهم على الحالة الجديدة ، فإذا رأوا اتجاه شعبهم مثلاً إلى الشيوعية توسعوا في الاشتراكية وفي الضمان الاجتماعى وأمثال ذلك فلما أدركوا حالة الهند واستعدادهم للثورة انسحبوا منها وساعدوا حركة الانفصال بين المسلمين في الباكستان والونين في الهندستان

ولما رأوا شدة الحركة في مصر غيروا الألفاظ من احتلال إلى انتداب إلى مشاركة في الدفاع وانسحبوا من المدن الكبيرة كالقاهرة والإسكندرية، ولما رأوا حرج موقفهم في فارس تخلوا عنها بعض الشيء ، وكان من هزيمة فرنسا في الحروب واختلافها مع إنجلترا أن ألجئت إلى الانسحاب من سورية ولبنان فقوى ذلك من عزيمة المسلمين في البلاد الأخرى وتمنوا ما نالوا ، ولا يزال الصراع قوياً والمطالبة بالاستقلال تزداد ولا يدرى إلا الله ماذا سيكون بعد .

وكان من سياسة أمريكا وإنجلترا أن تكتلت الأمم الإسلامية لتجعل منها قوة لدفاع الشيوعية فبدأت بتشجيع الجامعة العربية على الوجود ولكن عملت هناك عوامل لم تجعل الجامعة العربية هي المثل الأعلى وأهم ذلك سببان السبب الأول أنها كانت وليدة رغبة الإنجليز وتحت سيطرتهم يصرفونها كيف يشاءون فلم تفعل بوحى ضميرها ما ينبغى أن تفعله . والثاني الخلاف بين رؤساء الشعوب وخصوصاً الخلاف بين البيت الهاشمي وعلى رأسه ملك العراق وملك شرق الأردن وبين السعوديين الذين يعتبرون في نظر الهاشميين مغتصبين وقد أيدت مصر الحجاز فأوسعت بذلك شقة الخلاف . وليست تؤدي الجامعة العربية رسالتها كاملة إلا إذا تحررت من الإنجليز والأمريكان أولاً وبطل الخلاف بين البيوت المالكة ثانياً .

وكان مما فتح عيون العرب وأقضى مضجعهم ما رأوا من تعاقد إنجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ على تقاسم النفوذ فتطلق يد إنجلترا في مصر ، وتطلق يد فرنسا في المغرب ففهم العرب من ذلك أن المسألة هي تفاهم الغرب على السيطرة على الشرق . وتكرر مثل ذلك بشكل أخس في الحرب العالمية الأولى ، فقد اتفقت

انجلترا مع قادة العرب أن ينضموا إلى جانبهم ويشوروا على الدولة العثمانية في نظير تعهد إنجلترا بالرضا عن إنشاء دولة عربية في الشرق .

وبينما هي تتفق مع العرب على ذلك كانت تتعاهد مع فرنسا على سيم النفوذ بينها وبين فرنسا على البلاد العربية ، واستطاعت إنجلترا بمكرها ودهائها أن تخدع العرب بذكر عبارة مطاطة تخفي ما وراءها . فقد است في المعاهدة على أن ذلك الاتفاق يسرى فيما عدا جنوب العراق حيث المصالح البريطانية تقتضى اتخاذ تدابير مخصوصة ، وأيضاً فيما عدا المناطق التي ليست بريطانيا العظمى حرة في التصرف بشؤونها تصرفاً منافياً لمصالح فرنسا ففهم العرب من ذلك أن هذه العبارة في صك عهد السيد هنرى مكماهون إنما يعنى بها منطقة لبنان الضيقة . ففرحوا وانتشوا سروراً بينما كان يقصد منها أبعد من لبنان بحيث تشمل سوريا وتضع العراقيل في سبيل إنشاء دولة عربية . فبينما كانت إنجلترا تعطي العرب باليمين كانت تتفق مع فرنسا لضعضة حالة المسلمين والعرب باليسار .

وهكذا تكشفت المسألة بعد الحرب عن خديعة كبيرة ومؤامرة قاسية جرحت العرب في أعماق نفوسهم جرحاً لا يندمل وحتى كان من لورانس الضابط الكبير الإنجليزي الذي اشترك في الثورة العربية وُسِّى ملك العرب غير المتوج أن ثار على الإنجليز ثورة عنيفة ورفض النياشين الإنجليزية التي عرضت عليه والوظيفة التي أرادت إنجلترا له ولولا أن الملك فيصل هدأ الثورة العربية لاعتقاده أن العرب لا يستطيعون حربياً أن يتفوقوا على إنجلترا وفرنسا وأنه يستطيع أن ينال بالمناورات السياسية السلمية ما لا يناله بالحرب ، وأن ينفذ من بين الخلافات الناشبة بين فرنسا وإنجلترا ما يكسبه للعرب . أقول لولا ذلك

لمبت نار الثورة في البلاد العربية غضباً على الإنجليز والفرنسيين واندلع
لهيبها حتى لا يعلم إلا الله منتهاها .

ومع ذلك فقد عقد مؤتمر في سورية أعلنوا فيه استقلالها وشبت ثورة في
العراق على الإنجليز مما جعل السلم والهدوء عسيرين .

وكانت معاهدة سيفر التي كان بمقتضاها احتلال القسطنطينية والقضاء على
الترك كما قضوا على العرب من قبل سبب ثورات تركية تحت قيادة
مصطفى كمال وتنكيله باليونان أعظم تنكيل وإلجاء فرنسا وإنجلترا إلى الاعتراف
به وبذلك ثار الترك والعرب معاً ثورات عنيفة مملوءة بالحقد والغضب .

وليس هناك إلا أمل واحد وهو أن إنجلترا وفرنسا تبدلان موقفهما بعد
أن أدركتا متاعبهما فتريان أن استعمار البلاد الإسلامية لم يعد سهلاً يسيراً كما
كان من قبل فتحولان وجهتهما إلى جهة أخرى وتغيران شعورهما العدائي
إلى شعور مبني على الإخاء والمساواة وتعتقدان أن من الخير مصادقة المسلمين
والأخذ بيدهم وإشراكهم في بناء الحضارة معهم . والمسلمون من ناحيتهم
يبادلونهم ودّاً بود ويرقون أنفسهم ويساهمون في بناء الحضارة معهم .. ومن
غير هذا تتسع الهوة ويزداد النفور والشقاق وتؤول الحالة إلى أسوأ حال .

وواجب إيطاليا أيضاً أن تعدل موقفها إزاء المسلمين ، فلم تكن إيطاليا المشهورة
بذوقها الفني وعبادتها للجمال بأحسن من الفرنسيين والإنجليز مع المسلمين فقد
ارتكبوا من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان . فثلا زج الجنرال « جراتسياني »
زعماء ليبيا في السجون وألقى بهم من الإهانات ما لا يوصف وألقى ببعضهم
من الطيارات على بعد أربع مائة متر على مشهد من أهلهم ، وقال أحد جنودهم

وقد رأى هذا المنظر: « فليأت نبينكم محمد البدوي الذي أغراكم بالجهاد لينتقذك من أيدينا ». ثم صادر سكان برقة الغربية في نفودهم ومواشيهم وساقهم محوطين بفرسان وسيارات مصفحة ولم يسمح لهم بالانحراف عن الطريق ولو للاستقاء . ومن حوادثهم الغربية أن بعض الجنود الطليان دخلوا خيمة شيخ فقابلتهم بنت له في الثانية والعشرين أخذت تتوسل إليهم أن يبقوا عليه والتجأت إلى أحد الضباط فلم يسمع لها ، فلما رآته على هذه الحال اختطفته مسدساً وأطلقته عليه فخرّ صريعاً ، فأحاط بها الجنود وحضر القائد فأمر بقتلها وقتل أيها وجميع أقاربها رمياً بالرصاص حتى ضج المراسلون الصحفيون الأجانب من هذه المناظر ، فقال صحفي دنمركي : « قصدت في شهر بنابر سنة ١٩٣٠ م حدود بني غازي فأحاط بي الجنود المدججون بالسلاح والمدافع الرشاشة وأرادوا البطش بي اولا أني عرفتهم من أنا . ومع ذلك اكتفوا بسجني قيد التحقيق ؛ فلما أفرجوا عني صادفت في طريق مشهداً من أفجع المشاهد : عشرين عربياً يرسفون في القيود والأغلال يقادون إلى المجزرة كما تقاد الأغنام حيث نصبت لهم المشانق ، فشنقوا بلا محاكمة ». وقد ألف هذا الصحفي كتاباً سماه « الصحراء تلتهب » ملأه بحوادث من هذا القبيل . وعلى الجملة فقد تفنن الإيطاليون في أعمال الإبادة والتشتيت . ولو سئل أى رجل : أيهما المتمدنون إيطاليا ورثة الرومان ورائدة الفن أم أهل المغرب البدويون الذين لم يتذوقوا فناً ولا علماً لكان الجواب : إنها إيطاليا ولا شك ! فهل يصح بعد ذلك أن تكون الحضارة مقياس الإنسانية !

وليس حال المسلمين بأسوأ من حال الوثنيين وحتى من بعض الدول

الأوروبية في نهضتها واستعدادهم للرقى . فدينهم « الإسلام » لا يمنهم مطلقاً من أن يسايروا العالم . وينهضوا مع الناهضين ويبينوا مع البائنين ، وإنما ساءهم الحق والضعف مجاوبة للحد والضعف الأوروبيين فإذا عدل الأوروبيون موقفهم عدل المسلمون موقفهم أيضاً جزاء وفاقاً .. أما زيادة الحد من أوروبا والتكامل بالمسلمين والمبالغة في تنفيذ الاستعمار فليس من شأنه إلا زيادة الحد في نفوس المسلمين وشدة المقاومة والأخذ يوسائل الحرب لدفع الحرب ونحو ذلك وليس في هذا أية مصلحة للطرفين ، فلعل تقدم الأوروبيين في فهم الإنسانية والإخاء والمساواة وحرية الأديان وحق كل أمة في حكم نفسها بنفسها يتغلب على النزعة الاستعمارية .

وأظن أن ذلك هو ما سيكون مهماً بعد الزمن فالعالم لا محالة سائر إلى استبدال الروح القومية الوطنية البغيض الناشئ* عن ضيق في الأفق وفساد في الشعور وهو أسوأ ما أنتجت المدنية الأوروبية الحديثة بالروح الإنسانية المتساحمة الواسعة الأفق . وكل يوم تدل الدلائل على أن هذه الروح الوطنية القومية تسبب من البلاء أضعاف ما تكسب .

وكان مما أتت به المدنية الغربية النعرة القومية ، فكل أمة تتعصب لجنسها ، وسرت هذه الروح إلى العالم الشرق مع المدنية الحديثة وقد كانوا لا يعرفون إلا قسمة العالم إلى قسمين دار الإسلام ودار الحرب فالمسلم داره العالم الاسلامي كله ، لذلك سهلت عليه الرحلات من مثل ابن بطوطة وابن جبير وغيرها ، وتنقل رجال الحديث من قطر إلى قطر يجمعون ما انتثر من الحديث وكأنهم بين أهليهم ، حتى كانت لعنة الوطنية التي ابتدعتها أوروبا وأسرفت

فيها . والقانون الطبيعي يقتضى تدرج العالم من نظرة جزئية لا ينظر الإنسان فيها إلا إلى نفسه كالطفل في مهده ثم يرتقى فينظر إلى عائلته ثم يرتقى فينظر إلى قومه ثم يرتقى فينظر إلى الإنسانية كلها وربما كان الإنسان في هذا الطور لا ينظر إلا إلى قومه ولما يصل من الرق إلى حد أن ينظر إلى الإنسان كله . على أننا نرى تباشير النظرة الإنسانية في التقرب في السكك الحديدية ونظام البريد وكثرة المؤتمرات التي تبحث في المسائل العالمية مما يظن أن سيكون وراءه الارتباط العالمى والنزعة الإنسانية ، وإذ ذاك يقل الاضطراب وتتألف القلوب .

هذه هى النزعة القومية التى أدت إلى الاستعمار وتبعها أو كان أساسها التعصب الاقتصادى ، فإن أوروبا قد ضاقت بأهلها وأعوزتهم المادة الخامة فقصدوا إلى الشرق يستغلون ويأخذون منه موادهم الخامة المحتاجين إليها ويصنعونها فى مصانعهم ثم يبيعونها على الشرق ويربحون من وراء ذلك الفرق بين المادة الخامة والمادة المصنوعة ، ولذلك كانت كل أمة تستعمر أمة شرقية تضرب نطاقاً عليها لاستغلالها اقتصادياً . فمصر والعراق والهند مثلاً لإنجلترا تأخذ منها خاماتها وتصرف فيها سلعها ولها فى ذلك المقام الأول . وفرنسا تفرض سيطرتها على بلاد المغرب وسوريا فاعلة ذلك أيضاً . وربما كان من أهم أسباب الاستعمار الشؤون الاقتصادية ولذلك تحارب كل أمة مستعمرة انتشار الصناعة وتقدمها فى الأمم المستعمرة وتحاول أن تفهمها أنها أمة زراعية بحتة حتى تعتمد الأمم المستعمرة على الأمم المستعمرة فى صناعاتها .

وقد تفوق الأوروبيون فى الأدوات الحربية والوسائل الاقتصادية معاً ، فكم

من الفرق بين الجمل والقطر الحديدية وبين المحراث والآلات الميكانيكية الزراعية وهكذا . فغلب الغربيون في ميدان الاقتصاد كما غلبوا في ميدان الحروب . وأوهم الغربيون المسلمين أنهم ليسوا أهلاً للصناعة وإنما هم أهل زراعة وفرضوا ضرائب كثيرة على المنتجات المحلية حتى يميئوها ، ولكن بدأ المسلمون يقلدون الغربيين في الصناعة فلما جاءت الحرب العالمية الثانية وامتنع ورود كثير من السلع وغلا بعضها الآخر غلوًا فاحشًا تشجع الشرق على أن يتقدم في الصناعة ولا يزال المدى أمامهم فسيحًا .

على كل حال كل ما نرجوه أن يتنبه الغرب فيعدل عن النعرة الوطنية إلى الإنسانية وينظر إلى المسلمين كما ينظر إلى غيرهم من الناس . ولكن هناك مطلبًا آخر يطالب به المسلمون وهو تكييفهم أنفسهم التكيف المناسب للعصر الحاضر .

نعم إن هناك فروقًا اجتماعية كبيرة بين العالم الأوروبي والعالم الإسلامي ، فالعالم الأوروبي يبني حياته على العلم والنتائج العلمية والاستقلال والحرية والابتكار ونحو ذلك ، والعالم الإسلامي ينظم حياته على أساس الاتكال والمحول والاعتقاد الذي ساء في القضاء والقدر ويطربه جدًا سماع قصص تروى عن غنى افقر أو فقير اغتنى ، وشيخ استولى ونحو ذلك . ونحن لا نريد أن يحذو المسلمون حذو الأوروبيين في كل شيء بل نريد أن يحذو حذو الأوروبيين في العلوم والصناعات بحذافيرها من غير قيد ولا شرط ولكن يحتفظون بروحانيتهم ونظرتهم إلى العالم نظرة غير النظرة الأوروبية . فالأوروبي ينظر إلى الطبيعة كأنها عدو يكافحه ليفشى سره ، ولكن النظرة الإسلامية

تنظر إلى الطبيعة على أنها صديق وأنها من نتاج الرب الذى أنتجه .
والأوروبيون يضعون الله كما توضع الصورة الجميلة على الرف لا دخل لها
فيما يحدث حولها ، والمسلمون يرون الله فى كل شيء ، فى الأمور الدينية
والدنيوية معاً ، فإذا باعوا أو اشتروا أو أجروا أو رهنوا راقبوا الله ، وحتى فى
أصغر الأعمال كالاستياك والغتسال ، وعندهم أن النية الصادقة أقوم من العمل
نفسه ، وفى حديث رسولهم صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما
لكل امرئ ما نوى » . وفرق بين رجلين يعملان عملاً واحداً أحدهما نوى
الخير فيما يعمل والآخر لم ينو شيئاً أو نوى الشر . فهم يسيرون فى حياتهم
الدنيوية متأثرين بالدين وليس الدين مقصوراً على العبادات . وهذا ما ينقص
الغرب فإن وجب على المسلمين أن يقلدوا الغربيين فى العلم والصناعات تقليداً
تاماً ويسايروهم ويحروا معهم وجب أن يحتفظوا بنظرتهم الدينية إلى الحياة وهى
النظرة التى يتميزون بها عن الغربيين ، لكن موضع السوء أن كثيراً من
المسلمين وخاصة المتنورين منهم يريدون أن يقلدوهم تقليداً تاماً فى كل شيء
حتى فى نظرتهم إلى الطبيعة ونظرتهم إلى الحياة . ويدعوهم إلى ذلك خطأ
كبير وقعوا فيه وهو ما عندهم من مركب النقص إذ ظنوا أن الغربيين متى
فاقوهم فى العلم وجب أن يقلدوهم فى كل شيء وفاتهم أن المهارة فى ناحية
لا تقتضى المهارة فى النواحي الأخرى وأن روحانيتهم ونظرتهم إلى العالم خير
من نظرة الأوروبيين ، ولا يمكن أن يفيقوا من غفلتهم إلا إذا اعتقدوا أن
روحانيتهم خير للعالم كله وأنهم إذا كانوا انحطوا فى العلم والصناعة فقد سماوا
بالفطرة الروحانية ، وأنهم إذا وجب أن يقلدوا فى العلم وجب أن يقلدوهم

الأوروبيون في النظرة الروحانية وليس الأوروبيون-متسامين في كل شيء .
ومن المؤسف أنهم حذوا حذو الأوروبيين في تعليمهم ونمط تربيتهم فأسسوا
المدارس المدنية على النمط الأوربي ولم يشذ عن ذلك إلا الأزهر ، وقد قال
أبو العلاء المعرى :

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له
فالمدارس المدنية محرومة من التربية الدينية والألفة . نعم يسوغ لنا أن نقلدهم
تمام التقليد في العلوم ومعامل التجارب ونحو ذلك فقط ولكن لا نقلدهم في
الناحية الأدبية ، فهم يدرسون التاريخ على أن أوروبا سيدة العالم ، وعلى أن
رجلها الأبيض هو المستول عن الأسود والأصفر وأن الله خلق العالم قسمين : قسما
أوروبيا ساميا وقسما غير أوروبى منحطاً ، ومن أجل ذلك يؤرخون أوروبا
كأنها المركز وما حولها نقط على المحيط وإذا جاءوا للتاريخ الإسلامى اقتضبوه
أو حرفوه ، فوجب على المسلمين أن يفرقوا بين ما هو علمى يقلد وما هو
أدبى لا يقلد . وهذه المدارس لا تأبه بالدين إلا شكلياً ولذلك يجهلون أصول
الدين كل الجهل ويتبعون الأوروبى في منهجهم كل الاتباع ، ورأس هذه
الحركة الجامعة المصرية التى تقود المدارس الثانوية والابتدائية ، وليسوا
يسألون فى كل أمر عرض ماذا رأى الإسلام ؟ ولكن يسألون ماذا يرى
الأوروبيون ؟ كأن الله اصطفى الأوربيين وحدهم وجعل غيرهم ذيلاً لهم .

وإن كان فى كل من الشرق والغرب عيوب ففيه أيضاً محامد ؛ فالغرب
أصبح رأساً وأعظم علماً وأصبر على الشدائد ، على البحث العلمى وله مهارته فى
الذكاء وله اليد المفكرة ، والشرق له سماحة صدر وله روحانية يعترف بها حتى

الأقدمون ؛ فقد قال فندلبند عند كلامه على الإسكندرية إنه قد التقت فيها مادية الغرب بروحانية الشرق ولكن ماذا نعني بالمادية والروحانية ومن قديم والكتاب والفلاسفة قد تعارفوا على وصف الشرق بالروحانية والغرب بالمادية ، فما معنى هذا ؟

لقد سمعت كثيراً من المثقفين ثقافة واسعة ينكرون هذا ويقولون إن الغرب غنى بماديته وروحانيته والشرق فقير في ماديته وروحانيته . أما أن الغرب غنى بماديته فليس يحتاج إلى دليل ولا برهان ؛ فالصناعات والاختراعات والآلات ونحوها كلها من الغرب وليس الشرق إلا عالة عليه . أما روحانية الغرب فتتجلى في سمو عواطفه وحبه الخير لأتمته وأحياناً للإنسانية كلها وهو في هذا يفوق الشرق أيضاً . إن شئت فانظر لتبرعات الأغنياء من الغربيين ببناء المستشفيات والمؤسسات العلمية والأعمال الخيرية مما لا يبلغ عشر معشاره الشرقيون . فأغنياء الشرق لا يفكرون إلا في لهوهم وملذاتهم ، فإن ارتقوا قليلاً ففي أسرهم وأقاربهم ولذلك لا نرى منهم تبرعاً لعمل خيري إلا أن يكون ملقاً لوزير أو مدير أو رغبة في رتبة أو نياشين وكثيراً ما نسمع عن غربي خرج عن ماله أو أكثره لعمل ينفع قومه وقلما نسمع ذلك عن شرقي ، ولكن نسمع الكثير عن شرقيين ابتزوا أموال غيرهم أو اغتصبوا عملاءهم الفقراء أو غشوا في المعاملة أو ارتشوا لقضاء مصلحة أو نحو ذلك !

فأين هي روحانية الشرق ومادية الغرب !

وإن كانت روحانية الشرق عبادة وصلاة وصياماً ونحو ذلك ! فما قيمتها إذا لم تؤثر في عمل المؤمن ؟ ما قيمة صلاة يتبعها نهب وسلب ؟ ! وما قيمة

صيام لا يمنع صاحبه من جشع وطمع ! إن العباد إذا كانت على هذا النحو كانت حركات ميكانيكية أو ألعاباً بهلوانية وكانت هي والعدم سواء . ولكن يظهر لى رغم كل ذلك أن للشرق روحانية ليست للغرب ، وأن من الواجب إذا نظرنا للشرق ألا ننظر إليه فقط فى عصر تدهوره وانحطاطه وألا ننظر إليه فى شكله الأخير الذى ساء بل فى جوهره الحقيقى وقيمتة الذاتية وتعاليمه ومبادئه غير مقيدة بعصر ولا مرتبطة بزمن .

إن الغرب من غير شك يحيا حياة مادية بحتة بمعنى أن حياته حياة عمل فى مصنع أو شركة أو وظيفة يحسب حسابها المادى فقط بمرتب وأجر وكيف يناله على خير وجه وكيف ينفقه على خير وجه وكيف ينعم بهذه الحياة وكيف يكسب خير كسب وينفقه خير إنفاق وكيف يعيش فى أسرته وكيف يحظى بالنعيم المادى . . . إلخ . وكل الأخلاق الحسنة المرسومة له أخلاق تجارية تعلمه كيف ينجح فى التجارة وكيف ينجح فى العمل وكيف يسعد فى الحياة ، ولذلك كان أهم قوائم الفضائل عنده المحافظة على المواعيد والنظام والترتيب والصدق فى القول والعمل إلخ والذى يسيطر على هذه الحياة ويرسم خططها ويخترع آلائها هو العلم والعلم نتيجة العقل والقضايا المنطقية وهى أمور كذلك مادية بالمعنى الواسع .

أما الشرق فعماده قديماً وحديثاً القلب فإن كان ولا بد فالقلب أولاً والعقل ثانياً . هو يدخل فى حسابه دائماً الحياة الآخرة بعد الموت ويضمها دائماً إلى حساب الدنيا ، وهو دائماً يتساءل هل هذه الأعمال يكافئ الله عليها فى الآخرة بالثواب أو العقاب . وأخلاقه التى يسير عليها مبنية على حساب

هذه الآخرة أيضاً ، وهو كثير السؤال عن غاية هذا العالم ومصيره وأنه مسير بقوة عظيمة هي قوة خالقه وأنه سيجاسب الإنسان في الآخرة على ما قدمت يده في دنياه ، وهذه الصورة مركزة في ذهن الشرقي وموروثة له أباً عن جد ، وهو في أشد أوقات النعيم في الدنيا يشعر بحافز يحفز به إلى أن يسأل : ما عاقبة هذه اللذة بعد الموت ؟ ! أثناب عليها أو أعاقب ؟ وماذا سيكون موقفى أمام الله إذا سألتى عنها ؟ ! وهكذا . وهو يبنى أخلاقه على أساس الدين ويبنى أعماله على أساس القلب . ولهذه الطبيعة الشرقية والاستعداد الفطرى الخاص كان الشرق منبع النبوات والفلسفة الإشرافية ومذاهب المتصوفة وإطالة التأمل ونحو ذلك من مظاهر الحياة الروحية !! فإن ظهرت نفحات من ذلك فى الغرب فصدرها غالباً الشرق ، واليهودية والنصرانية والإسلام والتصوف فى الغرب ليس إلا موجة من موجات الشرق .

يكاد يكون للشرقيين عنصر خاص ينقص غيرهم وهو الإحساس الدينى العميق الذى يلزمهم حتى فى أوقات خروجهم عن الدين ، ولذلك كثيراً ما يعقب المعصية تنبه الضمير الدينى والمبالغة فى التوبة والندم . إنهم يؤمنون فى كل حركاتهم وسكناتهم وتصرفاتهم بإله يسيّرهم وقدّر يتحكم فيهم . قد يأتى على الشرق زمن تفسد فيه عقيدته ويسوء تصرفه وتنحط مشاعره فتصدر عنه أعمال خسيصة لا تصدر عن الغرب المادى ، ولكن هل يصح أن نعدّ هذا العارض إفساداً للذاتية وقعداً للخاصية أو نعدّه حاسة أصيبت بآفة مع الرجاء فى شفاؤها أو جسماً أصابه المرض وفيه حصانة تبشر بالشفاء ؟ ولو حكمنا بالظاهر لقلنا إن مادية سليمة تخضع للعقل وتنجح فى الحياة

وتسيطر على العالم خير من روحانية فسدت ومبادئ قوية تعفنت ، ولكن ليس هذا إصافاً في الحكم فما نتيجة هذه المادية الناجحة ؟! إنها مدنية روعت العالم وجعلته على بركان يوشك أن ينفجر وهو كل يوم في اختراع جديد يهدد العالم بالفناء ، فما نتيجة القوة إذا كانت محطمة وما قيمة القصر المزوق إذا ساد سكانه الفزع ؟! ولو أنك سألت أسرة أوروبية هل تفضل أن تعيش عيشة بذخ وترف وتفقد أبناءها في الحروب أو تعيش عيشة وسطاً ولا يهلك أحد منها في حرب فما الذي كانت تفضل ! إني لفي شك من قيمة المدنية الغربية إذا نحن قسنا ما أنتجته للعالم من شرور بما أنتجته للعالم من خيرات . فما قيمة آلات وأدوات ومخترعات بجانب أرواح تحصد وطمأنينة تفقد واستغلال قليل من الناس للكثرة الغالبة من العالم يرهقونهم ويسومونهم سوء العذاب وذلك لأنهم قالوا : « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين »

ولو آمنوا بالبعث وضموا إلى دنياهم آخرتهم وقدروا أنهم سيقفون أمام الله يسألهم عن أعمالهم لكانت المدنية غير المدنية ولكانت مدنية مادية روحانية معاً وهذا ما ينقصها ولا يصلح العالم إلا بها وإذا ذلك يكمل الغرب نقصه فيزيد في روحانيته ويكمل الشرق نقصه فيزيده في ماديته ويسير الركبان جنباً إلى جنب لخير العالم وإسعاده .

ما الغاية من هذا العالم ؟! ما سر الحياة ؟! لماذا نعيش ولماذا نموت ؟ ما موقفنا بعد الموت ؟!

كل هذه ونحوها من عشرات الأسئلة لا يستطيع العلم أن يجيب عنها إذ ليست من الأمور المادية وأشباهها التي تدخل في اختصاص العلم إنما هي من

الروحانيات التي لا يستطيع الإجابة عنها إلا الدين . لقد بلغ العلم درجة كبيرة في المدنية الغربية ولكنه لم يفعل أكثر من تحسين وسائل الحياة أما صبغ الحياة لتتفق مع الغاية التي يجب أن تنشأ فوظيفة الدين - وكلما اقتصرت المدنية الحديثة على الوسائل دون الغايات ضلت السبيل ووقعت في الخيرة والاضطراب وسببت هذا الشقاء المفضض بالنعيم .

لقد جرب العالم الأوروبي التقدم المادى بل والتقدم العقلى من علم ومخترعات حتى توجت هذه بالقنبلة الذرية ولكنهم مع ذلك التفتوا فرأوا أن النتيجة قلق واضطراب وخوف من المستقبل وتوقع لقيام حرب عالمية تأكل الأخضر واليابس فلم يبق إلا أن يجربوا التجربة الأخيرة وهى الدين الصحيح بما يبعث من روحانية وأن يحيا القلب كما أحيوا العقل ، وأن يتوجهوا إلى الله كما توجهوا إلى المخترعات فإذا ذاك فقط تسود الطمأنينة ويسود الأمن وتنقش الخيرة والاضطراب . بل ربما عدت الحروب أيضاً ؛ إنهم إذا آمنوا هذا الايمان التفتوا فوجدوا زعماءهم الحاضرين غير صالحين لأنهم عباد مادة فقط وهم يحتاجون إلى زعماء من جنس آخر تسيروهم المادة والروحانية معاً وإذ ذاك أيضاً تفنى نظرتهم الاستعمارية وينظرون إلى الشرق نظرة الأخ الكبير إلى الأخ الصغير يريه أحسن تربية ويأخذ بيده ويحفظ عليه ماله حتى يرشد ثم يتعاون معه على الخير . وخالق العالم خلقه مادة وروحاً ، فكان من الطبيعى ألا يسعد إلا إذا غذى العنصران واكتمل المنهجان .

وقد اتهم الإسلام أنه يحمل أصحابه على عدم مسايرة المدنية الحديثة والتقدم الاجتماعى ولكن أى شىء فيه يمنع التقدم !

كتب كاتب إنجليزى وهو مستر د. ج . كوريت مقالا فى بعض الجرائد الإنجليزية عربته جريدة المؤيد قال فيه إن إنجلترا أكبر دولة إسلامية لأن المسلمين الذين تحكمهم الدولة العثمانية ستة عشر مليوناً ونيفاً (وذلك حسب إحصاء سنة ١٨٩١ وهم الآن أكثر من ذلك) تحكم الصين منهم ٣٢ مليوناً وتحكم روسيا ستة ملايين وتحكم إنجلترا ٨٠٤ و ٧٦٠ و ١٠٧ .

ويقول الكاتب إن المسلمين يتمتعون فى المستعمرات الإنجليزية بالحرية الدينية وستكون الهند مصدراً لمدينة آسيا ومصر منبعاً لحياة ما يجاورها من آسيا وأفريقيا ، وهو مع هذا ينسب إلى قومه الانجليز التقصير فى القيام بمصالح المسلمين ويثبت لهم أن مستقبل بريطانيا مرتبط بمستقبل المسلمين ومصالحهم مقرونة بمصالحهم . ويقول إن الانجليز ارتكبوا هفوات مع المسلمين جهلاً وغروراً ، وقال إن الوساطة الوحيدة لتمكين سلطتنا فى آسيا وأفريقيا هى أن نبذل جهدنا فى إفهام المسلمين أن مصالحهم الدينية والسياسية مرتبطة بمصالحنا ويجب إفهامهم أن كثيراً من معتقداتهم التى يحسبونها من الدين ليست منه ولا جاء بها كتابهم . ويقول السيد أمير على أحد نيهاء المسلمين فى الهند إن سبب تأخر المسلمين وبقائهم على ما هم عليه من التأخر يرجع فى الغالب إلى مارسخ فى أذهانهم من أنهم لاحق لهم فى استعمال عقولهم فى فهم دينهم لأن ذلك قد انتهى بانقراض المجتهدين الأولين ، وصار الاجتهاد بعدهم محرماً ، وأن المسلم لا يكون مسلماً صادقاً إلا إذا كان مقلداً لمذهب من المذاهب المعروفة فترك المسلم ما يعتقد وما يفهم وينمسك بنفسير أهل القرن التاسع من الفقهاء غير ملتفت إلى الآراء والأفكار التى وصل إليها العالم فى القرن التاسع عشر

وختم مقاله بالثناء على الإسلام ونقل أقوال ثقات الحكماء والعلماء الغربيين في مدحه وأجاب عن الاعتراضات المشهورة عليه بأجوبة حسنة .

وفي الحق ماذا يمنع الإسلام من ترقية أهله وأخذهم بأسباب المدنية الحديثة . وإن أركان الإسلام خمسة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان . وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً . فأى هذه الأركان تعوق تقدم المسلمين ؟ إن شهادة لا إله إلا الله تكسبهم العزة كما بينا ، وإقامة الصلاة تطهر قلوبهم ، وإيتاء الزكاة يقرب بين الفقراء والأغنياء . وصوم رمضان يفهمهم آلام البؤساء ، وحج البيت مؤتمر عام للمسلمين يمكن قاداتهم من أن يتداولوا المشاكل الحاضرة للمسلمين وكيف يحلونها . إن الإسلام يأمر بالنظر العقلي ويوفق بين العقل والنقل ويأمر أتباعه بالنظر في سنن الله في الكون بينا النصرانية بعيدة عن هذا كله فأركانها هي : الإيمان بالمعجزات بينا المعتزلة من المسلمين مثلاً أنكرت كل المعجزات ما عدا إعجاز القرآن ومع ذلك بقيت على إسلامها ، واعتمدت الأناجيل على صدق المسيح بخوارق العادات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك . والركن الثانى سلطة الرؤساء فما يربطونه فى الأرض يربط فى السماء وما يحلونه فى الأرض يحل فى السماء . قال أحد مطارنة « رانس » أيام القرون الوسطى . « أيها التبع . الزموا — كما قال الرسول — الخضوع فى كل حين لأسيادكم ، ولا تنتحلوا الأعذار من قسوتهم أو بخلهم . الزموا الخضوع — كما قال الرسول لا للخيرين ولا للمعتدلين من الأسياد فحسب ، بل ولأولئك الذين ليسوا كذلك . إن الكنيسة لتصب اللعنة على أولئك الذين يدفعون التبع إلى عدم .

الطاعة فإصطناع وسائل التحايل ، وهى تصبها من باب أولى على أولئك الذين يعلمونهم المقاومة السافرة » . « إن الله نفسه قد أراد أن يكون بين البشر سادة وتبع حتى يلزم الأسياد تبجيل الإله وحبهم له ، ويلزم التبع تمجيد أسيادهم وحبهم لهم » وذلك وفقاً لما قال الرسول عندما صاح : « أيها التبع . أطيعوا أسيادكم الزمنيين فى خوف ورعب » . بينما الاسلام لا يجعل واسطة بين العبد وربّه فالرؤساء كباقي الأفراد لا ميزة لهم ولا زلفى عند الله . والركن الثالث فى النصرانية التجرد من الدنيا والزهد فيها وكلما كان الانسان أزهد فى الدنيا كان أقرب إلى الله ، فالمدينة الحديثة إذاً ليست مسيحية فى هذا المعنى بل هى مدينة ضد المسيحية . على أن الإسلام يأمر بمراعاة الدين والدنيا جميعاً ، فيقول القرآن : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . والأصل الرابع فى النصرانية الإيمان بما هو فوق العقل . قال القديس أنسلم يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك بدون نظر ثم اجتهد بعد ذلك . واعترض قوم على الاسلام بأنه متعصب لا يتسامح مع أن التسامح فيه أكثر من النصرانية ، فلم يعرف فى الإسلام محكمة كمحكمة التفتيش ولا نحو ذلك . ونعنى بالتسامح الدينى أن يكون لكل فرد فى الأمة حق فى أن يعتقد ما يراه حقاً وأن تكون له الحرية فى تأدية شعائر دينه كما يشاء ، وأن يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء ولننظر إلى الإسلام فى ضوء هذا التعريف نجد أنه من حيث مبادئه وتعاليمه الأصلية هو أرقى الأديان فى تحقيق هذه المبادئ . والباحث فى التسامح الدينى فى الإسلام مضطر أن ينظر إليه من ناحيتين : ناحية المذاهب المختلفة فى الإسلام نفسه وناحية نظرة الإسلام لأهل الأديان الأخرى .

فأما الناحية الأولى فالمسلمون في عهد نزول القرآن أى عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا إلا مذهباً واحداً ولذلك لا تتوقع أن يكون في القرآن نفسه نص على التعامل بين المذاهب الإسلامية المختلفة . قد يكون هناك بينهم اختلاف في الاجتهاد أو اختلاف في تطبيق المبادئ الإسلامية ولكن لم يتعد هذا أن يكون في مسائل جزئية لا ينطبق عليها كلمة مذهب . وهناك أقوال مأثورة تدعو إلى التسامح مثل ما شاع بين المسلمين : اختلاف أمتي رحمة ؛ وكان هذا سبباً في سعة الصدر بين أهل المذاهب المختلفة من حنفي وشافعي ومالكي وإلخ . . ومثل ما روى عن الشافعي من قوله : « مذهبي صواب يحتمل الخطأ ومذهب غيري خطأ يحتمل الصواب » وهو قول لطيف يدل أيضاً على قدر كبير من التسامح . ومن هذا القبيل أيضاً ما شاع بين المسلمين من قولهم : « لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب غير مستحل » أى لا يكفر مسلم بارتكابه ذنباً ما دام غير مستحل له وأولى من ذلك أنه مهما اختلف المسلمون في المذاهب والآراء والأقوال فيما هو محل الاجتهاد والنظر فلا يصح أن يكفر أحد منهم .

أما نظر الإسلام إلى الأديان الأخرى فهو نظر سمح ، فقد سمى اليهود والنصارى أهل كتاب ، وسماهم أهل ذمة ، وهما تسميتان في منتهى اللطف . والآيات التي وردت في القرآن في أهل الكتاب تدل على قدر كبير من التسامح خصوصاً في العهد المكي فيظهر أن اليهود والنصارى قبلوا الإسلام في العهد المكي بشيء من حسن الاستقبال فكان القرآن في ذلك العهد سمحاً كريماً وقد بنى في أساسه على أن القرآن يؤيد الكتب السماوية الأخرى ويتفق معها

في أغراضها وأن الشريعة الإسلامية واردة لما قبلها ومكملة لتعاليمها » والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير » ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » والإسلام يعترف بنبو الأنبياء السابقين فنوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب وداود وسليمان ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس أنبياء مصدقون . ويقرر أن أساس تعاليمهم واحد وكلها من عند الله فلا غرو بعد ذلك كله أن يكون الإسلام سمحاً مسالماً حتى لقد نصح أتباعه بأنهم إذا دخلوا في جدال مع اليهود والنصارى بشأن الدين جادلوهم بالحسنى ، « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » . بل نرى في العهد المدني في أول الأمر مثل قوله تعالى : « فإن حاجوك فقل أسأمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أتوا الكتاب والأمةين أسأمتم فإن أسأموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » . وقوله : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . ولكن يظهر أن اليهود والنصارى في العهد المدني بعد ذلك وقفوا أمام الدعوة الإسلامية يهاجمونها ويضعون الخطط لخنقها ويتحالفون مع الوثنيين في الكيد لها والنيل منها ، فاضطر الإسلام أن يقابل الشدة بالشدة والكيد بالكيد فعلت نعمة القرآن في التنديد بأهل الكتاب ووصف أساليبهم القديمة وخاصة اليهود وما فعلوه مع أنبيائهم ، فكان موقف المسلمين منهم موقف الدفاع لا الهجوم

ومع ذلك فقد سمح لليهود والنصارى أن يؤدوا شعائهم في المدينة ونصح الرسول معاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن ألا يكره يهوديًا على الإسلام وفي كتابه إلى نصارى نجران سمح لهم أن يؤدوا شعائهم وأن يتبعوا دينهم وأن تحفظ لهم كنائسهم وألا يتدخل في شئونهم ما وفوا بعهودهم .

وسار الفقهاء من المسلمين على هذه التعاليم في فقههم من حسن معاملة أهل الكتاب وأن يكون لهم مالنا وعليهم ما علينا ، بل لما فتحت فارس عومل أتباع زرادشت معاملة أهل الكتاب ، ولئن قسا الاسلام بعض الشيء على الوثنيين دون أهل الكتاب فلأنه يرى أن الوثنية انحطاط في الانسانية يجب علاجها وانتشال الانسانية من حضيضها وعلى هذا سار المسلمون في أكثر تاريخهم على حسن معاملة أهل الكتاب ، يحملونهم ما دفعوا الجزية ويسمحون لهم بالعبادة في بيعهم وكنائسهم وهذه الجزية إنما شرعت بدل تجنيدهم لأنهم لا يأمنون جانبهم إذا جندوا ولا يثقون بغيرتهم الحرية ، فليدفعوا بدل القتال شيئاً من المال لحمايتهم . ولو قرنت معاملة المسلمين في دولهم لليهود والنصارى بمعاملة النصارى للمسلمين في دولهم لتبين إلى أى حد كان التسامح عند المسلمين وفقدانه عند النصارى حتى ليصح للمسلمين أن يفخروا بتشريع الفقهاء الأولين في معاملة أهل الذمة وبتطبيق ذلك عليهم في مختلف العصور .

نعم حدثت في التاريخ أحداث كثيرة لا تتفق وهذا التسامح الكريم ولكن إذا دققنا النظر فيها وجدناها ترجع إلى أسباب أكثرها غير ديني سواء في ذلك الاضطهاد الذي حدث بين المذاهب الإسلامية بعضها وبعض

أو بين المسلمين وغيرهم من اليهود والنصارى . من أهم هذه الأسباب السياسية ، فالنزاع بين الحكومة الإسلامية والخوارج في العهد الأموي وصدر العباسيين سببه أن الخوارج بتعاليمهم يريدون أن يتولى الحكم أصلح الناس ولو كان عبداً حبشياً ولا يعترفون ببيت أموى ولا بيت عباسى ويريدون أن يصلوا إلى مبدئهم بالقوة ، فاضطرت الحكومة الأموية والحكومة العباسية أن تحفظ كيانهما وتحمى بيتها في الخلافة بمحاربة الخوارج والقضاء عليهم وهذا سياسة لا دين .

وانظر إلى النزاع الحاد والدماء المسفوكة بين السنية والشيعة طول العهد الأموى والعباسى وبعد ذلك وما جرى بسببه من دماء تجرى أنهاراً تجد سببه أن أهل السنة من أمويين وعباسيين وغيرهم يرون الحق في خلافتهم ويرى الشيعة أن لاحق لهؤلاء في الخلافة وإنما الحق لأهل البيت وكل يعمل على أن يصل إلى حقه بقوة السلاح ، فالنزاع إذن نزاع على من يتولى الحكم وهذه سياسة لا دين . وأحياناً يقوم بالدعوة الدينية رجال يدعون إلى مذاهب هدامة ويتسترون باسم الدين وتخشى الحكومة إن سادت تعاليمهم أن تنهار قوتها فتضطر إلى محاربتهم وشكل الحرب شكل دينى وحقيقته سياسية . وكثير ممن خرجوا على الدولة العباسية كانت حقيقة أمرهم الرغبة في إعادة الحكم للفرس ككثير ممن قتلوا تحت ستار الزندقة في عهد المهدي العباسى وبتهمة الماوية . وقد يستثنى من ذلك الاضطهاد الذى حدث من المأمون والواثق لمن لم يقولوا بخلق القرآن ، فقد كانت هذه نظرة دينية خاطئة من المأمون والواثق : إذ ظنا أن من لم يقل بالاعتزال وبخلق القرآن فقد أفسد

دينه فهما يريدان إصلاح العقيدة قسراً وجبراً كما فعل المسلمون الأولون إزاء الوثنيين ، وهذا خطأ كبير في التفكير نتج عنه أضرار جسيمة للمسلمين .
ومن العداة السياسى ما كان بين الدولة العثمانية والدولة الإيرانية ، فالعداء بينهما عداة سياسى اتخذ شكلاً دينياً يريد العثمانيون الأولون أن يمدوا سلطانهم على الفرس ويأبى الفرس إلا أن يحتفظوا باستقلالهم ، فيؤول ذلك إلى البغض الذى بلغ مداه فى عهد السلطان سليم الأول حتى كان اضطهاده للشيعة فى مملكته أن قتل وسجن ما يقرب من أربعين ألفاً . ولكن من الخطأ تحميل الدين جرائم السياسة بدليل أن كثيراً من هذه الخسومات السياسية حدثت بين أمم إسلامية مختلفة تعتق عقيدة واحدة سنية أو شيعية وإنما كان الخلاف بينها على السلطان وسعة الحكم وبحو ذلك .

ولسنا ننكر أن كثيراً مما حدث فى التاريخ من اضطهاد المسلمين للنصارى واليهود كان ناشئاً عن كراهية دينية وغير إسلامية ولكنها كانت غيرة عجماء من بعض من أصيبوا بضيق النظر وفهم الدين فهما خاطئاً ، أو كان ردّاً لما يبلغهم عن اضطهاد المسيحيين للمسلمين فيضطرون أن يعاملوهم معاملة المثل جزاء وفاقاً ، ولكن من الظلم أن نحمل الدين الإسلامى هذه الأخطاء أيضاً .
وأحياناً كان يكون السبب فى اضطهاد المسلمين لليهود والنصارى سبباً اقتصادياً ، فكثيراً ما كان يحدث أن تولى الحكومات الإسلامية بعض اليهود والنصارى زمام الأمور المالية فى الدولة فيسرفون فى تعيين أقاربهم وأصهارهم فى الوظائف المالية كما يسرفون فى بذل المال لهم ، وبعد قليل ينظر المسلمون فيرون أن الغنى والترف وحياة الفخفة والأبهة والعظمة فى جانب اليهود

والنصارى وحياة البؤس والفقر في جانب المسلمين ، فيثور ثائرهم و يحطمون هذا الوضع الاقتصادي الظالم كما حدث ذلك في العهد الفاطمي . وقد كانت الدولة العثمانية في أول أمرها من أكثر الدول تسامحاً لرعاياها من اليهود والنصارى ومنحتهم من الامتيازات ما لم يعهد له نظير في الدول الأخرى ، ولكن انقلبت هذه الامتيازات معاول لهدم الدولة العثمانية واتخذت الدول الأجنبية من روسيا وانجلترا وفرنسا وغيرها هذه الامتيازات التي لرعاياها وسيلة لنشر الدسائس وتدمير المؤامرات وخلق الفتن ، فاضطرت الدولة بعد إلى استعمال كثير من العنف دفاعاً عن كيائها ومواجهة لنقض الدسائس التي تحاك حولها ، وكل هذا سياسة لا دين . وأحياناً يكون سبب القتال والخصام تجارة رؤساء الدين فيرون أن قوة مركزهم وبسطة نفوذهم متوقفة على تعصب عوامهم ، فهم يستغلون ضيق نظر أتباعهم ويثبون فيهم روح التعصب حفظاً لمركزهم ونفوذهم وسيطرتهم ، علماً منهم بأنه إذا ساد التسامح وكان الناس إخواناً فقدوا عزتهم ومكاسبهم الفانية ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

* * *

وبعد فإن أوروبا مع تقدمها في فهم الحرية وجدها المتواصل في بناء حياتها على العلم لاعلى العواطف ما زالت بعيدة عن تحقيق التسامح الديني بالمعنى الذي شرحناه قبل . فبالأمس قرأنا كيف فعل هتلر بيهود ألمانيا ، وقرأنا كيف اضطهد الشيوعيون الدين وحاربوا شعائره ، وقرأنا في الصفحات الأخيرة كيف حاربت أوروبا المسلمين العرب في فلسطين ونصرت اليهود عليهم وعرفنا كيف تخلط أوروبا المنفعة السياسية بالعواطف الدينية في معاملتها للمسلمين .

وأخيراً فهل للمسلمين أن يشتد وعيهم الديني ، ويفهموا بعد طول هذه التجارب التي ذكرناها أنه لم يعد هناك وجه للخلاف بين سني وشيعي وزيدى وغير ذلك من المذاهب لأنهم لو رجعوا إلى أصل دينهم ما وجدوا لهذا الخلاف محلاً ولوجدوا أنه خلاف مصطنع لا خلاف أصيل ، وأن الأمم الإسلامية في موقفها الحاضر أحوج ما تكون إلى لَمِّ شعنها وإصلاح ذات بينها وتوحيد كلمتها وهي ترى كيف تهاجم من كل جانب وكيف يُتخذ إسلامها وسيلة من وسائل الكيد لها ، وإذا اتحد أهل الباطل على باطلهم فأولى أن يتحد أصحاب الحق على حقهم !!

واعترض قوم آخرون على الإسلام وخصوصاً المستشرقين الإنجليز في الهند بأن الإسلام جامد والدين لا يصلح إلا إذا كان فيه عناصر ثابتة وعناصر تتحول على حسب مقتضى الظروف والأحوال . وهذا عيب في المسلمين لا في الإسلام ، فالإسلام سنن بابي الإجماع والاجتهاد ليكون مرناً . وكان من أكبر قادة المسلمين عمر بن الخطاب وكان يجتهد حتى فيما يقابل النص . وسار معاذ ابن جبل ثم عبد الله بن مسعود ثم أبو حنيفة النعمان على هذه الطريقة ، طريقة إعمال العقل فيما يروى والاجتهاد فيما يجد من الأحداث . وإنما المسلمون آخر الأمر هم الذين أغلقوا باب الاجتهاد وحرموه عليهم وكلفوا المسلمين شططاً في أنهم يسيرون في الظروف الحادثة سيرهم في الظروف القديمة . وظهروا أمام العالم الغربي بمظهر الجامدين ، واتخذ هؤلاء المستشرقون عمل المسلمين حجة على الإسلام نفسه والإسلام نفسه من ذلك براء .

وتبع هذا غلو في الدين والتشدد فيه بعد أن كان الإسلام سمحاً وسهلاً ،

وذلك بسبب تأثير الفلسفة اليونانية على المسلمين . فالإسلام يأمر بغسل الوجه عند الوضوء فتأتى الفلسفة وتحدد معنى الوجه وما تنطبق عليه كلمة الوجه كأن المتوضىء مهندس مستاح يريد تحديد الوجه بالمساحة . والدين يندب إلى السواك فيأتى الجامدون المغالون ويبحثون فى السواك بم يكون ومتى يكون وما حجم القشرة المنزوعة من عود الأراك وكيف يستاك وبعد أن يستاك كيف يضع السواك إلى آخر ما هناك . فهذا تشديد فى الدين تأثر فيه الإسلام بالعقل الفلسفى اليونانى الذى يتعمق ويتعمق : وقد كان الإسلام يأمر بغسل الوجه ويندب إلى السواك على الفطرة من غير بحث ولا تعمق ، وهكذا فى سائر شئون الدين وتعاليمه حتى خرجوا من ذلك إلى الحيل الشرعية التى يحتالون بها للهروب من الواجبات فألفوا فى ذلك الكتب فى الحيل الشرعية . وكانت هذه الفلسفة أيضاً سبباً من أسباب التفريق بين المسلمين فرقاً مختلفة حتى انقسموا فيما بينهم كاتقسام الأمم قبلهم .

وتسألنى كيف يكون تقرب الأوروبيين من المسلمين وكيف يصلح المسلمون حالهم . فأقول :

أما تقرب الأوروبيين من المسلمين فه دواع كثيرة . أولها أن النعرة الوطنية كانت أشد من العصبية الدينية فخاربت أمريكا وإنجلترا النصرانيتين روسيا النصرانية وانقسم العالم الآن إلى معسكرين كل منهما نصرانى ، ودعتهما العصبية القومية أن يستعينا بغيرها من المسلمين فكان فى هذا التقرب إليهم . وثانياً وجد هناك أبطال من العلماء المسلمين ومن العلماء المسيحيين رفعوا الصوت عالياً ضد الجهلاء السابقين . من هؤلاء المنصفين « كارليل » فى

كتاباه الأبطال وإسحق تيلر في خطبه في مجمع القسيسين و « أرنولد » في كتابه « الإسلام » وغيرهم . وهؤلاء من غير شك مسحوا شيئاً غير قليل من عداة الماضي وأسسوا نزعة جديدة للتحجب والتقرب . ومن هذه الدواعي أن العالم الآن يسير نحو الانسانية متخطياً القومية والوطنية ولا بد أن سيصل يوماً إلى هذه الغاية .

ومنها أن المخترعات الحديثة من طائرات وما إليها أزالَت الفوارق بين الشعوب وجعلت العالم كله وحدة وقربت الاتصال بين أوروبا والشرق وسهلت نقل الأفكار والمعاني إلى الشرقيين فذب فيهم الوعي القومي ونال بعضهم الاستقلال تلبية لهذه الأفكار التي يسمعونها والصحف التي يقرأونها والبعض الآخر في طريقه إلى ذلك .

وأما إصلاح حال المسلمين فيكون بشيئين : أحدهما فصل العلم عن الدين والتوسع في العلم إلى أقصى قدر مستطاع . فليس العلم ملكاً لمذهب دون مذهب وليس الإسلام مما يناهض العلم . وفصل العلم عن الدين شيء ميسور ومحبوب . وأما فصل الدين عن السياسة كما فعلت أوروبا المسيحية وكما فعل مصطفى كمال فشيء لا يقتضيه الإسلام لأنه لا بد أن يدخل الدين في السياسة لينقحها ويهذبها ويحسن من نيات ولادة الأمور ويوجههم نحو ما ينفع رعيّتهم ، ولم تقع أوروبا في الحروب المتتالية إلا لفصل السياسة عن الدين فبانفصالها عن الدين انفصلت عن الأخلاق أيضاً .

والأمر الثاني هو الاجتهاد . والاجتهاد في اصطلاح الأصوليين بذل الفقيه الوسع في تحصيل ظن بحكم شرعى . وقد اشترطوا في المجتهد شرطين : الأول

معرفة الله تعالى وصفاته وتصديق النبي صلى الله عليه وسلم . والثاني أن يكون عالماً بمدارك الأحكام وأقسامها وطرق إثباتها ووجوه دلالتها وأنواع العلوم العربية من اللغة والصرف والنحو وغير ذلك . وقد أصيب المسلمون بحكمهم على أنفسهم بالعجز وقولهم بإقفال باب الاجتهاد لأن معناه أنه لم يبق في الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد ولا يرجى أن يكون ذلك في المستقبل . وإنما قال هذا القول بعض المقلدين لضعف ثقتهم بأنفسهم وسوء ظنهم بالناس وزعمهم عكس ما يقول أصحاب النشوء والارتقاء من دعواهم أن العقل دائماً في تدن وانحطاط وغلوهم في تعظيم السابقين .

وإنما أصيب المسلمون بقولهم بسد باب الاجتهاد لأسباب ثلاثة : أولها كارثة المسلمين بضياح المعتزلة وهم الفرقة العقلية في الإسلام وانتصار أهل الحديث عليهم . والثاني مهاجمة أهل التصوف للفقهاء بأنهم شكيون ويعنون بالشكل أكثر مما يعنون بالروح ، فاتفقوا مع المعتزلة في مناهضة الفقهاء وكان على رأسهم سفيان الثوري الذي توغل في الروحانية مع اطلاعه الواسع في الفقهيات . والسبب الثالث سقوط بغداد على يد التتر وقد كانت بغداد إذ ذاك مركز الحضارة والثقافة الإسلاميتين فأصيب العلماء بالفرز من جراء هذا السقوط وغلبهم التشاؤم وودوا أن لو استطاعوا فقط حتى المحافظة على القديم من غير تجديد وهم في ذلك معذورون بعض العذر . فأنحبس الناس في التقليد — والاجتهاد الذي نريده هو الاجتهاد المطلق لا المقيد بمذهب . وهذا الاجتهاد المطلق هو الذي فعله معاذ بن جبل وعلى بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وأبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وداود الظاهري والطبري وابن تيمية وأمثالهم . وليس المسلمون

مقيدين بالمذاهب الأربعة ، فغيرهم من عشرات الأئمة لم يتقيد بمذهبهم .
والاجتهاد في عصرنا أسهل من الاجتهاد في عصرهم ، فالمطابع نشرت
عشرات التفسيرات للقرآن الكريم ، وعشرات الكتب في جمع الحديث ؛
وأصبحت المطالعة في الكتاب تغني عن الرحلات المختلفة إلى مصر والأندلس
والحجاز ، فقد كفانا المحدثون مؤونة ذلك .

هذا إلى أن الله لم يخل الأمم الإسلامية في كل عصر من مسلمين أذكاء
عقلاء عارفين بكليات الشريعة الإسلامية ومقاصدها ، قادرين على تطبيقها
على الجزئيات . ثم إن المدنية الحديثة قابلت المسلمين بجزئيات لاعداد لها ؛
فقد أصبحت طرق المعاهدات الجديدة تخالف في كثير من الأحيان طرق
المعاملات القديمة وتطور العالم الإسلامي في العشرين سنة الأخيرة ما لم يتطوره
في مئات السنين الماضية ؛ تدل على ذلك الأسئلة الكثيرة التي ترد على
العلماء من كل قطر ، في حل بعض الأمور وحرمتها . فما لم نواجه هذه
المسائل بالاجتهاد المطلق تخلفنا كثيراً في الحياة ، ولو واجهت هذه المسائل
الأئمة الأربعة لأفتوا فيها فتاوى يضعون فيها إحدى عينهم على كليات
القرآن ، والعين الأخرى على المدنية الحديثة ؛ والله تعالى ينهى عن الغلو
في الدين ، والرسول يقول « إن الإسلام يسر لا عسر » فهذه المشاكل
لا تحمل إلا باجتهاد مطلق ؛ ولسنا نعي بالاجتهاد المطلق إعمال العقل وحده ،
والتقليد للأجنبي تقليداً أعمى ، وإنما نعي اجتهاداً من أهل الاجتهاد ،
اجتهاداً يفهم الإسلام ومراميه ، ويفهم المدنية الغربية ومراميتها ، ثم يحلل
أو يحرم على مقتضى هاتين النظريتين .

فكل المجتهدين السابقين فعلوا مثل هذا ؛ ونحن لسنا أقل منهم في مواجهة الصعاب وقدرتنا على حلها ، وفي التاريخ أمثلة كثيرة من هذا القبيل ، وإن الذين أغلقوا باب الاجتهاد أو فتحوه فقط باب الاجتهاد الضيق ضرونا ضرراً بليغاً وجدونا جموداً متحجراً ، فأصبحنا كالنعامة تغمض عينيها عما سيؤذيها ؛ وليس يحيا دين على مر الأزمان إلا إذا كانت فيه صفة المرونة . نعم إن جماعة كالبايية والبهائية والقاديانية قالوا بهذا الاجتهاد ، ولكنهم أفرطوا في الحرية بعض الأحيان إفراطاً لا يرتضيه الإسلام كالقول بأن الأنبياء لم يختموا بمحمد مخالفين النص القرآني « وخاتم النبيين » وغير هذا من أمور ليس هذا موضعها ، فنحن محتاجون إلى نوع خاص من المجتهدين . نوع يفهم الدين فهماً دقيقاً ويفهم المدنية فهماً عميقاً ، ثم يطبق تلك على الدين ، مراعيًا المصلحة العامة والعقل الواسع . أما أن يفهم الدين وحده كبعض علمائنا ، أو أن يفهم الحضارة الغربية وحدها كبعض المتمدنين فنظر بعين واحدة وهو لا يكفي . إنا لا نريد الاجتهاد لكل أحد ولكن نريده بشروط كالتى قالها الأقدمون ، وكل ما نخالفهم فيه أننا نشق بأنفسنا ولا نقبل مركب النقص فينا ، ونؤمن بفضل الله وسابغ عطاياه ، وأن الأمة الإسلامية لم تصب بالعقم ، فالأمهات اللاتي كن يلدن عباقرة حتى في الدين يلدن حتى اليوم هؤلاء العباقرة^(١) . . . ومما يؤسف له أن كثيراً من علمائنا الدينيين لم يتعربوا أنفسهم في فهم المدنية الحديثة كما أتعب علماء

(١) نقر بأننا أكثرنا من الكلام على الاجتهاد في أكثر من موضع وعذرنا في هذا لإيماننا التام بضرورة الاجتهاد وأنها في كل موضع نتكلم كلاماً مكافئاً للكلام الذى ذكرناه من قبل

المسيحية أنفسهم في فهمها ؛ فقل أن تجد عالماً فاهماً للمدنية الغربية وربما كان السبب في كرهنا للمدنية الغربية أنها نشأت في أحضان النصرانية لا الإسلام ، ولكن : لا يمنعنا هذا وقد تسلطت المدنية الغربية على العالم كله حتى الأمم الإسلامية ، من فهم المدنية الغربية وأسرارها وتحديد موقفنا أمامها ؟ لو كانت تعيش المدنية الغربية في بلادٍ غير بلادنا لاحتملنا ذلك ؛ أما وهي تعيش في بلادنا بماديتها ومعنويتها فلا يصح أن نغض النظر عنها ، إن العلماء يلبسون من صنعها ويحلون بيوتهم بأثاثها ، وآلات إذاعتها وتليفوناتها ، ويزرعون بالاتها ، فلماذا لا يوسعون فهمهم لها ، ويفتحون الطريق أمام خيراتها ، ويغلقونه أمام شرورها ، ويبصرون الناس بموقفهم منها ؟ هذا هو الفرق العظيم بين رجال ديننا ورجال دينهم . يظهر ذلك في علمهم الواسع بأساليب سياستهم وتكوين رأيهم فيها ، ويظهر ذلك أيضاً في وعظهم ووعظنا ، في كنائسهم ومساجدنا . فهم يتحدثون بل ويؤلفون بلغة العصر وروح العصر . وأشهد أني قرأت دائرة معارف بالإنجليزية للأطفال ، فكان رجال الدين في كل عدد يعرضون لأحاديث التوراة والإنجيل وقصص الأنبياء بلغة فيها علم نفس وفيها فهم لعلم الطبيعة والكيمياء ، وفيها لغة تناسب عقول الأطفال والشبان وتستهيئهم وتوافق لغتهم التي يألونها في كتب العلوم والآداب . أما نحن فمن أسباب انصراف ناشئتنا عن الدين أننا لا نعرف أن نخاطبهم بلغتهم التي يفهمونها ، ثم هم إذا حدثت حوادث كغرق مركب كبير وقيام حرب كبيرة وحدثت أحداث سماوية صغيرة انتهزوا الفرصة فتكلموا بلغة الدين فيها فكان كلامهم مقبولاً .

ونحن لا نتكلم إلا عن الماضي وبلغة الماضي فلا يكون كلامنا مقبولا . إن زعماء الإصلاح الذين نجحوا كان نجاحهم بمقدار فهمهم للمدنية الغربية وفهمهم للإسلام معاً ، كالسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، ومدحت باشا ، والسيد أمير على . أما من تخلف منهم ولم يناسب إلا جزيرة العرب وأمثالها ، كمحمد بن عبد الوهاب ، فسبب عدم شيوع تعاليمه هو أنه اقتصر على فهم الإسلام دون الجانب الآخر من الحياة ، حتى فهمه للإسلام كان فهماً مقيداً بظروف الحياة فى الجزيرة العربية قبل تطوره بالتطور الذى جاء بعد ؛ فهو أشبه بآبن عمر من عمر . إن عمر بن الخطاب بعقله الواسع واجتهاده المعقول استطاع أن يشرع للفرس والروم ، وهو البدوى وهم المدنون : ووقف حدّ الشرب على أبى محجن الثقفى لأنه أبلى فى الحروب بلاءً حسناً ، ووقف حدّ القلع على من سرق ناقة لأنه كان جائعاً ، ووقف الحدود فى الحروب لما رأى أن بعض المحاربين إذا وقع عليهم الحدّ فروا إلى الأعداء ، وهكذا . . . وأباح أبو حنيفة قراءة الفاتحة الفارسية لما رأى أن بعض من أسلم من الفرس لا يحسن العربية ، وقال مالك بالمصالح المرسلّة ، وقال أبو حنيفة بالاستحسان ؛ فلماذا لا نسير سيرهم ، ولا نعمل عملهم ؟ إن حياة المسلمين كلها تغيرت بالمدينة الحديثة ، من راديو يقرأ القرآن وصناديق توفير مفتحة الأبواب ولبس قبعة وغير ذلك من الماديات ، وتغيرت أساليب الزواج ووسائل السفر وغير ذلك من العلوم والمعارف ، فلماذا نقف أمامها ولا نبين رأى الإسلام فيها ؟ الحق أنا فى أشد الحاجة إلى ذلك ، وإلا كان ما حدث لبعض الزعماء كمصطفى كمال وغيره من القادة ، رأوا

المجود فكفروا بالدين ونقلوا المدنية الغربية بحذافيرها من غير تفرقة بين نافع وضار ، وما يناسب المسلمين وما لا يناسبهم . لو كان وقوف العلماء مغمضى العين عن المدنية الحديثة يقف سيرها لهان الأمر ، ولكن المدنية الغربية تسير بسرعة سير الطائرات رضيناها أم أئبناها ، فلنحلل منها ما حلل الله . ولنحرم ما حرم ، ولنستعمل عقولنا التي رزقنا الله مراعين ديننا الذي شرعه الله .

إن مما يؤسف له أن حفنة من المسلمين نادوا ببعض إصلاحات كنداء عبد الله بن المقفع بتوحيد القوانين ونشرها على الناس ليعرف المتقاضى وجه الحكم له أو عليه ، ونداء المعتزلة بتحكيم العقل في الحديث ، ونداء الشيخ محمد عبده في السنين الأخيرة بتنقية الدين من الخرافات والأوهام ، والاستغاثة بالله وحده ، دون الاستغاثة بأضرحة وأولياء ، فرمى كل هؤلاء بالزندقة .

ومن المؤسف أيضاً أن العالم الإسلامى كله خلط بين بقايا من المدنية الإسلامية القديمة وأشياء من المدنية الحديثة حتى لتحدُّ الرجل في ملابسه بين شرقى وغربى . وأثاثُ المنازل بين شرقى وغربى ، والعلوم التي تدرس في المدارس بين نحو سيبويه مبسطاً ، وطبيعة وكيمياء المدنية الغربية ، ومحاكم شرعية تقضى بأحكام الفقهاء ، ومحاكم وطنية تقضى بقوانين فرنسا أو ألمانيا ؛ وكذلك كل مرفق من مرافق الحياة ، زراعة قديمة بجانب الزراعات الحديثة ، وتجارة قديمة بجانب التجارات الحديثة ؛ بل تقرأ الجريدة الواحدة نفسها فترى أفكاراً قديمة لكاتب وأفكاراً حديثة لكاتب آخر ؛ وكادت تكون هذه الأمور مقبولة لو أنها وُضعت على أسس معقولة وفُرزت فُرزاً دقيقاً ، ولكنها كُومت كلها حيثما اتفق ، فكان مثلها مثل رجل يلبس بدلة على

آخر طراز من النمط الغربى ، ويلبس فى رجليه حذاءً من نوع ملابس القرون الوسطى ، وهذا ضررٌ فى العقلية وضررٌ فى التكوين الخلقى ، وضررٌ حتى فى الدين نفسه . وكانت نتيجة هذا ما نشاهده فى العالم الإسلامى كله من انحلال وعدم تماسك حتى يكون العقل بذلك مهوشاً مشوشاً لا يُبنى على قواعد منطقية سليمة ولا على ذوق سليم . ومن آثار هذا أيضاً كثرة الجدل حين يجتمع قوم من الناس ذوى عقليات مختلفة لا كما ترى فى جمعيات إنجليزية أو ألمانية ، لأنهم وحدوا أسس التعليم الابتدائى والثانوى ، فتقاربت العقليات ، فإذا كان خلافٌ لخلافٍ فى نوع التعليم العالى ، مع توحيد أسس مناهجه .

والاجتهاد فى الإسلام مبنى على أصول أربعة . القرآن والحديث والإجماع والقياس . فأما القرآن فأريدَ به أن يكون تنظيمًا تشريعياً مبنياً على دعائم ثابتة تعتمد على الإيمان بالله واليوم الآخر وأما السنة فقد شرحناها من قبل . ورغم أن الأستاذ جولد زيهر نقدها نقداً علمياً حديثاً وأبان أن كثيراً منها مزيف مأخوذ من سرائع أخرى دست فى الإسلام فإنها أصل من أصول التشريع الإسلامى . نعم إن كثيراً من الأحكام الشرعية أسست على تقاليد كانت جاهلية وأقرها الإسلام لأنها لا تزال وفق بيئته فإذا تغيرت البيئة لم يعد للعمل بهذه الأحاديث محل وربما كان هذا هو الداعى لفرقة من الفرق الإسلامية أن تنكر الحديث وحكى خبرها الإمام الشافعى فى الأم ولم يستنكر قولهم وربما كان هو الداعى أيضاً إلى تخرج الإمام أبى حنيفة من الأحاديث والعمل بها واقتصاره على نحو سبعة عشر حديثاً ، وإنما اعتمد أكثر ما اعتمد على الاستحسان

كما اعتمد الإمام مالك على المصالح المرسلة وكلاهما يعتمد على العدالة التي يفهمها العقل الفطري والذي يسميها القرآن « المعروف » ويسمى ضدها النكر . وأما الإجماع فهو مبدأ هام من مبادئ التشريع الإسلامى وربما طبق تطبيقاً وافياً فى النظام الشورى عند الأمم الحديثة إذ تنتخب أظهر الرجال وأبرزهم وهم من كانوا يسمون فى العهد القديم أهل الحل والعقد فإذا اجتمعوا على رأى كان ذلك تشريعاً . وأما القياس فقد قال به أبو حنيفة وأنكره عليه مالك وقد توسع أبو حنيفة فيه ولكن مع الأسف طبقه تطبيقاً أرسططاليسياً يعتمد على طريقة الاستنتاج لا طريقة الاستقراء ويهتم بالناحية النظرية أكثر من اهتمامه بالناحية العملية وتوسع فى التشريع للفروض حتى مالم يبين عليها عمل كما توسع أصحابه فى الحيل الشرعية التى ترفع العمل وتصور كيفية الفرار من الفرائض ونحو ذلك . على حين أن الإمام مالكا اتبع سنة أهل المدينة فى الاعتماد على العمل دون الفروض وعلى مايقع من الأحداث دون النظريات . والاجتهاد الحق يتطلب أن ينظر المجتهد فى تطبيق كليات الدين على ما يحدث من مسائل جزئية . ونعنى بكليات الدين القواعد الكلية التى تطبق عليها جزئيات كثيرة مثل (لا ضرر ولا ضرار) ومثل (أأمرؤن الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) ومثل (إن الذين آمنوا والذين هادوا) الآية فهى تتضمن أن أسس الدين هى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، وقوله تعالى (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) فهى تكشف عن حالة اليهود والنصارى فى عصر النبى ولا تزال مطردة فى أهل الملتين إلى اليوم وكالاستعانة على النهوض بمهمات الأمور بالصبر والصلاة (واستعينوا بالصبر

والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وكبطلان التقليد للآباء والأجداد والمشايخ والمعلمين والرؤساء وهي مبثوثة في القرآن وكإباحة جميع طيبات المطعم وامتناع التحريم الديني لما لم يحرم الله منها (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالات طيباً) (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) وكإباحة المحرمات للمضطر إليها (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) وكبناء الدين على اليسر (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وحظر التعرض للهلكة (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وكحرية الدين والاعتقاد ومنع الاضطهاد الديني (وقتلوه حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين — لا إكراه في الدين) وكبناء الأمور الزوجية والبيوت وتربية الأولاد على دعائم أربع .

أولاً : قيام النساء بالأمور التي تقتضيها وظيفتهن كالرضاعة وغيرها من أمور تربية الأطفال ، ووجوب النفقة كلها على الزوج .

ثانياً — ألا يكلف أحد من الزوجين ما ليس في وسعه .

ثالثاً — لا يضار والد بولده ولا مولود له بوالده .

رابعاً — إبرام الأمور بالتراضي والتشاور .

وكجعل ذرائع درء الفساد والشر مناهجاً للتشريع وأصلاً من أصول الأحكام الاجتهادية وكتحريم أكل مال الناس بالباطل وكالاعتقاد بأن عمل كل إنسان له أو عليه لا يجزى إلا به فلا يجزى به سواه (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وكبناء التشريع على حفظ الفرد والنوع والمال .

ولنا على صحة الاجتهاد ووجوهه أمثلة كثيرة ؛ منها :

أولاً : عمل كثير من الصحابة وخصوصاً عمر في مقابلة هذه الحوادث الفياضة التي واجهها من جراء الفتوح .

ثانياً : قوله تعالى (لعلهم الذين يستنبطونه منهم) وليس الاستنباط إلا اجتهاداً .

ثالثاً : ما فعله أبو بكر فقد كان إذا نزل الأمر يجمع إليه كبار الصحابة ويسألهم هل في هذا نص من القرآن : فإن لم يجد سألهم : هل يروى أحد في هذا حديثاً ، فإن وجد عمل به وإن لم يجد شاورهم الرأي .

رابعاً : أن الإجماع نفسه وقد أجمعت الأمة عليه هو معنى من الاجتهاد حجة بأن يجمع الأئمة في كل عصر أو الأئمة كلهم في قطر فيكون رأيهم حجة ، وليس هذا إلا ضرباً من الاجتهاد

خامساً : أن الاجتهاد لو لم يكن لوقف المسلمون جامدين لأن المدنية وخصوصاً المدنية الحديثة تخلق حوادث جديدة وما لم تقابل بالاجتهاد وقفنا أمامها حيارى وقد اخترعت في المدنية الحديثة آلاف من الأشياء من طيارات وغواصات وغيرها ، كلها تتطلب تشريعات جديدة . وكذلك الاقتصاد الحديث أوجد معاملات لا عداد لها تتطلب أن يعرف المسلمون أهى حلالٌ أم حرام . ولا بد أن نساير الزمن .

سادساً : كل عصر تتغير ظروفه فلا تكاد تمر عشر سنين أو عشرون سنة حتى يحدث ما يغير النظر . فكيف إذا مر ألف عام ، وهذا كما قلنا هو حكمة النسخ ، والحكمة أيضاً في أن الشافعي كان قد أسس مذهبه في العراق ، فلما جاء مصر رأى من البيئات ما يخالف بيئة العراق فغير مذهبه وسمى مذهبه في

مصر المذهب الجديد . ومذهبه في العراق المذهب القديم . وقليل من البحث
يرينا أن الفرق بين القديم والجديد فرق بيثة أو فرق نشأ من علم ما لم يعلم .
سابعاً : أن المجتهدين الكبار أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي اجتهدوا
وهم أنفسهم لم يغلقوا باب الاجتهاد وراءهم ، بل رأوا أنهم قد يخطئون في اجتهادهم
كما قال الشافعي رضي الله عنه ، وإنما أغلق باب الاجتهاد من هم أقل منهم
شأنًا وأضعف شجاعة . ولو كان إغلاق باب الاجتهاد دينًا لأغلقوه هم ومنعوا
غيرهم .

ثامناً : إننا إذا نظرنا إلى ما بيننا من قوانين مدنية رأيناها تتغير بتغير
العصور لأن هذا التغير من طبيعة القانون ومن طبيعة الحياة الاجتماعية ،
والله تعالى العالم بما يحدث في الأزمان المختلفة لم يشأ أن يقرر للنبي (ص)
حكم المستقبل في جزئيات لأن قيمة الحكم تابعة لعصره فإذا لم يوافق العصر
كان نايباً ولو كان صحيحاً .

هذا وقد قسم الأصوليون الاجتهاد إلى ثلاثة أنواع : اجتهاد مطلق
كالذي فعله أبو حنيفة والشافعي واجتهاد مذهب وهو تطبيق قواعد المذهب
على المسائل الجزئية . واجتهاد مسألة وهو تطبيق مسألة جزئية لا مسائل
عامة على مذهب من المذاهب .

والذي ينفعنا الآن وندعو إليه هو الاجتهاد المطلق ، لأنه هو الذي
نستطيع به أن نواجه هذه المسائل . ولسنا من دعاة الاجتهاد لكل فرد ،
إنما ندعو إلى الاجتهاد ممن قدر عليه واستكمل شروطه وأهمها معرفة روح
الإسلام وما يرتضيه وما يرفضه .

ومن طريف ما فى تاريخ الإسلام أن وظيفة الحسبة وكان القائم بها من العلم والقدرة بحيث يمنع المتعرض لشيء لا يتقنه من عمله ، كأن يجبر على طيب لم يتعلم صناعته كما ينبغى ، واليوم تقوم وزارة الداخلية بهذا العمل فيمكنها أن تكف يد من أراد الاجتهاد ولم تتوافر له أدواته .

إن نظرة المسلمين إلى العالم الأوروبى على أنه مثال الكمال نظرة خاطئة تبعث فى النفس اليأس والحنق وإنه وإن كان فى المدينة الشرقية عيوب فى المدينة الغربية عيوب ، وإن كان العالم الشرقى ينقصه العلم والصناعة فإن العالم الأوروبى ينقصه الروح ، والمدينة الصحيحة هى التى تؤسس على عناصر ثلاثة رفع لقيمة الفرد وعمله فى المجتمع وبناء الحياة على ما يقتضيه العلم ، وإحياء القلب بالشعور بالخير للإنسانية : وفقدان هذه العناصر الثلاثة أو بعضها هى التى سببت هذه الحروب الفظيعة المتتالية وقد كان قادة الأوربيين يقولون بهذه العناصر الثلاثة على أنها المثل الأعلى للجمعية البشرية ولكن عيبها كان أنها لم تستند إلى وحى يقدسها ويجعل الناس يطيعونها ففقدت روحها ، وعلى العكس من ذلك كان الإسلام إذ سند هذه المبادئ بالوحى من الله وما يستتبع ذلك من تقديس — إن المسلمين اليوم مطالبون بأن يحاربوا ما عندهم من مركب النقص فليس ما عندهم أقل مما عند غيرهم وفى استطاعتهم أن يواجهوا الزمان والمشاكل التى تعترضهم بروح إسلامية قوية وحماسة نارية . فيستردوا مكانتهم ويستطيعوا أن يبنوا مع البانين .

بل إن رسول الله (ص) نفسه كان بعض تشريعه عن طريق الوحى وبعضه عن طريق الاجتهاد . غاية الأمر أن اجتهاده كان أقوى لأنه كان أعلم

بمقاصد الشريعة ومراميها . ثم اجتهاده على نوعين نوع يتعلق بالأحكام الكلية وهذه واجب اتباعها ونوع كان يتعلق بأمور جزئية تتعلق بحادثة لها ظروفها الخاصة من زمان ومكان فإذا تغيرت الظروف تغير الحكم . ومنها أمور تتعلق بالدنيا واجتهاد النبي فيها غير ملزم لأنه كسائر الفادة واجتهاده لا يتعلق بأمور شرعية وفي هذا قال (ص) إنما أنا بشر مثلكم إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر وقوله (ص) لما أمر الناس بأن يتركوا النخل من غير تأبير فلم ينجح « إنما ظننت ظناً ولا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنني لم أكذب على الله » ومن هذه المسائل مثلاً مسائل الطب ومسائل الطعام وما يحبه رسول الله وما لا يحبه من الملابس مثلاً وقد خفي هذا التفريق بين النوعين على كثير من الناس فسووا بينهما والتزموا بهما وأمروا الناس بالالتزام بهما على حد سواء حتى في المسائل الشخصية البحتة كحبه (ص) للدباء وكرهه الشخصي لبعض الطعام حتى لقد روى عن أحمد بن حنبل أنه امتنع عن أكل البطيخ لأنه لم يعرف عن النبي (ص) كيف كان يقطعه وهو تزمّت شديد وربما كان الحامل عليه عاطفة الحب لا قوة العقل . فالنبي (ص) يريد أن يكون اجتهاده هو في أمور الدنيا لبس ملزماً للناس ومن ذلك النظريات العلمية فإذا كان الناس في زمنه يسلكون مسلكاً تبعاً لنظرية علمية فإذا تغير الزمان واكتشفت نظرية أخرى أضاءت الحقيقة وجب على الناس أن يعملوا بالنظرية الأخيرة ويتركوا الأولى وهذا ينطبق عليه أيضاً اجتهاد النبي (ص) . فالعلم الحديث يوضح أن تأبير النخل لا بد منه

حتى يحمل فما لم يؤبر لا يحمل كما أن المرأة ما لم تلقح لا تحمل ، فإذا اجتهد النبي (ص) وقال إذا تركتم النخل من غير تأخير حل فشان اجتهداه في ذلك كشأن اجتهد سائر الأفراد ولم يكن مصدر كلامه وحياً من الله حتى يجب تصديقه ولذلك قال « إنما هو ظن ظننته وأنتم أعلم بأمور دنياكم » . وكذلك الشأن في كل ما يتعلق بأمور لباسه (ص) فقد اتبع في لباسه لباس قومه وتقاليدهم وبيئتهم فليست هذه بملزمة أبداً وهو (ص) لا يرى أنها ملزمة فإذا كان يلبس العباءة والقباء ويخلق شعره ويلبس العقال ويركب البعير فهذه كلها شئون زمانه (ص) ولا يمنع هو أن يلبس غيره البذلة أو الطربوش أو القبعة إذا كانت عوائد الناس وتقاليدهم تدعو إلى ذلك .

والاجتهاد على العموم في بلد بارد غير الاجتهاد في بلد حار والاجتهاد للحضرين الذين فشت بينهم نظريات العلم غير الاجتهاد في قوم بدويين لم يتحضروا أو تحضروا حضارة قليلة . ولذلك كانت معاملته (ص) لسكان البدو غير معاملته لسكان الحضر ، ومعاهداته للبدويين غير معاهداته للحضرين لعلمه بالفروق بينهما فإذا تغير الزمان والمكان تغير طبعاً الاجتهاد .

وكان النبي (ص) أعلم بذلك وأشدّهم تطبيقاً له وهو مبدأ سليم ولولا فساد الزمان وضيق العقول لأبدع المسلمون في الاجتهاد أيما إبداع ولكن لله في خلقه شئون وما أنت بمسمع من في القبور .

وكذلك اجتهد الصحابة والتابعون فيما عرض لهم من شئون الحياة واختلفوا في آرائهم كما اختلف الساسة في سياستهم والسبب في اختلافهم يرجع إلى أمور ، منها أن بعضهم قد يجتهد برأيه ولم يبلغه الحديث الذي ورد في المسألة فيعمل

الآخرون بالحديث ويعمل هو بالرأى فيكون الخلاف . ومنها أن تكون المسألة ذات وجهين فيقيسها أحد المجتهدين على مسألة و يقيسها الآخرون على مسألة أخرى ونحو ذلك ومنها أن بعضهم يكون قد رأى النبي صلى الله عليه وسلم عمل عملاً على وجه خاص فأفتى في ذلك ، ويكون الآخر لم يره فيفتى برأى آخر وأياً ما كان فقد كان اجتهادهم ساذجاً بسيطاً ، ليس فيه تعقيد كذلك الذى نشأ عن علم أصول الفقه وليس فيه فرض فروض لما لم يحدث كالذى فعله الحنفية فيما بعد وعلى العكس. من ذلك كان المالكية فقد كانوا لا يفتون إلا فيما وقع من أحداث ، فلما جاء الفقهاء العراقيون فيما بعد عقدوا الأمور وجعلوا لها أصولاً وفرضوا الفروض وتخيلوا الخيالات ، وكثر بينهم الاختلاف ومنهم من صح عنده الحديث ومنهم من لم يصح وقد كان تفرق الصحابة والتابعين في الأمصار المختلفة كبيراً وكل طائفة تحمل إلى المصر الذى نزلت فيه ما سمعته من الأحاديث أو ما رأت من الأحداث فكان مصر يعرف حديثاً لا يعرفه مصر آخر وهكذا ولهذا زاد الاختلاف ولكل عذره .

ومن أسباب الخلاف أيضاً أن بعض الفقهاء يكثر من الحديث ويعتمدون عليه كل الاعتماد ولا يرون للرأى ولا للقياس قيمة وقسم يقال من الحديث ويشترط فيه شروطاً قاسية كالذى فعل أبو حنيفة . واعتمد فيما وراء الكتاب والسنة على الرأى والقياس وهكذا . ولكن على العموم كانت هناك ظاهرة طيبة وهى حسن ظن كل مجتهد بالآخرين ولكن خلف من بعدهم خلف تعصب فيه كل ذى مذهب لمذهبه ، ثم اشتد النزاع حتى سفكت الدماء ، وخربت بعض البلدان من جراء ذلك كالذى

كان بين الحنفية والشافعية وكثيراً ما يقول ياقوت في معجمه « إن بلدة كذا خربت بسبب الخلاف بين الشافعية والحنفية » . وبالأمر قرأت في كتاب الهوامل لأبي حيان التوحيدى من أعيان القرن الرابع أى قبل إغلاق باب الاجتهاد سؤالاً في هذا الموضوع وجهه لمسكويه يقول فيه « لماذا كان أحد الفقهاء يقضى فى مسألة بحلها بينما يقضى فقيه آخر بحرمها فأجابه مسكويه بأن ذلك قد يكون لاختلاف الزمان والمكان فقد يكون الشيء حلالاً فى زمن وفى مكان حراماً فى آخر . وأجاب إجابة بديعة وهى أن الاجتهاد قد يكون مطلوباً لذاته أى أن يكون غاية لا وسيلة فإن الاجتهاد يمرن العقل ويكسب التجربة كالاجتهاد فى حل النظريات والتمرينات الهندسية فلو أن ملكاً لعب بالكرة والصولجان سواء نجح فى اللعب أو أخفق فقد نجح فى تمرين أعضائه . وكالحكيم يأمر بدفن شيء ثم يأمر بالبحث عنه نظير مكافأة . وسواء وجد أم لم يوجد فقد حصلت الغاية . والفقهاء أنفسهم اختلفوا فى هذا الاجتهاد فمنهم من اكتفى بالاجتهاد فى المذهب أو المذاهب ومنهم من أجاز الاجتهاد المطلق محتجاً بأنه لامتضى للنسخ فى القرآن إلا هذا فآية تنسخ آية لتغير حكمها حسب الزمان والمكان .

وقد سأل أبو حيان مسكويه سؤالاً آخر بديعاً وهو هل الأحكام الشرعية متفقة مع مصالح العباد لا تخرج عنها فأجابه مسكويه بالإيجاب وخصوصاً فى المعاملات فإذا تبين أن نوعاً من المعاملات لا يحقق مصلحة العباد فى وقت من الأوقات أجاز الاجتهاد تغيير الحكم . ومصالح العباد كلمة تشمل المحافظة على النفس والدين والمال كما نص على ذلك الشاطبى فى الموافقات وهذا واضح

كل الوضوح في المعاملات المدنية أما في العبادات فوجب أن نفعل بما أمر الله به إذا لم نفهم علته ما دام رضا الله في ذلك ، كما قال علي بن أبي طالب لو كان الدين بالعقل لكان المسح على باطن الخفين خيراً من المسح على ظاهرهما أما إذا نص على العلة فيها فإن الحكم يدور معها وجوداً وعدماً .

وقد كان الإسلام مرناً بتشريعه نظرية التجديد ذلك أن البشر في تغير مستمر فقد بشر النبي بأن الله يبعث بعد عصر النبوة مجددين مصلحين يرثون الأنبياء بالدعوة إلى إصلاح ما أفسده الظالمون ويكونون حجة الله على الخلق وقد بشر النبي بأن الله تعالى يبعث في الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها وكان المجددون يبعثون بحسب الحاجة إلى التجديد فكان الإمام عمر بن عبد العزيز مجدداً في القرن الثاني لما بلى بنو أمية وأخلفوا وما مرزقوا بالشقاق وفرقوا — وكان الإمام أحمد بن حنبل مجدداً في القرن الثالث لما أخلق بعض بني العباس من لباس السنة باتباع ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وقالوا كان الأشعرى مجدداً في القرن الرابع بهذا المعنى والغزالي مجدداً في أواخر القرن الرابع وأول الخامس لما بزغت نزغات الفلاسفة وزندقة الباطنية وكان ابن حزم مجدداً في القرن السادس لما طغت الآراء على النصوص الشرعية وكان ابن تيمية وابن القيم مجددین في آخر القرن السابع وأول الثامن لما مرزت البدع الفلسفية والكلامية والتصوفية والإلحادية تعاليم الإسلام . ثم ظهر مجددون آخرون في كل قرن — وكان تجديدهم منحصرأ في قطر أو شعب كالشاطبي صاحب الموافقات والاعتصام بالكتاب والسنة بالأندلس وولى الله الدهلوى والسيد محمد صديق خان في

الهند والمولى محمد بن بيرعلى البركوى فى الترك ، ومحمد بن عبد الوهاب فى نجد والشوكانى فى اليمن . وقد كان المجددون أنواعاً منهم المجدد فى العقائد الدينية والمجدد فى الأمور الحربية والمجدد فى الأمور السياسية كدعوة الشيخ جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده إلى الجامعة العربية . والسر فى التجديد أن العوامل الطبيعية والاجتماعية والسياسية تتغير كلما تغير الزمان بل المسائل الاقتصادية من طرق البيع والشراء ونحوها تتغير كلما تقدمت الإنسانية فلا بد من مواجهة هذه الأمور الجديدة بتشريع جديد وهذا ما يفعله المجددون فى كل زمان وإلا ركبت الأمور وتعذر السير . والمادات والتقاليد تتغير بين جيل وآخر كالذى نراه فى الفروق بيننا وبين أولادنا وبيننا وبين آبائنا وهذا أمر طبيعى . غاية الأمر أن التغير قد يكون عفيفاً كالذى حدث فى العصور الأخيرة فإن المدنية الأوروبية قلبت الأوضاع رأساً على عقب وقد يكون بطيئاً كالفرق بين جيل فى العصور الوسطى وجيل آخر . وقد أدرك الفقهاء ذلك وألف ابن عابدين رسالة فى العرف والعمل به وهى رسالة قيمة كالذى قال إنه فى عصر من العصور كانت رؤية غرفة واحدة فى البيت كافية لسقوط خيار الرؤية ممن رأى . فلما بنيت البيوت فى المدنية الحديثة مختلفة الغرف كانت رؤية غرفة واحدة لا تسقط خيار الرؤية وأمثال ذلك كثيرة . وقد اضطر الشيخ محمد عبده أن يواجه مشاكل جديدة كان يستفتى فيها ويضطر للإجابة عنها كلبس البرنيطة وأكل ذبائح أهل الكتاب والتأمين على الحياة وإيداع المال فى صناديق التوفير ونحو ذلك مما لم يكن معروفاً قبل زمنه وهكذا لكل عصر مقياس وكل حدث يحتاج إلى فتوى . بل إن أهل عصر النبى (ص) وهو عصر

واحد وأصحابه جيل واحد كان في زمانهم النسخ فقال الله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .

إن الإسلام يدعو إلى تحرير العقل ؛ وكم نعى على العرب الذين لا يستخدمون عقولهم فلا يفقهون ولا يعقلون وكم نعى أيضاً على العرب تقليدهم لأبائهم وقولهم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) ومدح معاذ ابن جبل في استعماله عقله عند عدم النص وكم كان يستشير أبا بكر وعمر ابن الخطاب في رأيهما ويوازن بين هذه الآراء . ويقول عمر بن الخطاب (كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) وكان عمر بن الخطاب كبير العقل راعى غنم لم ينتقف إلا بالإسلام ؛ ومع ذلك استطاع أن يسوس فارس والروم ؛ وهما الأمتان المتحضرتان سياسة خيراً من سياستهما ، وذلك بفضل عقله وفهمه الإسلام الصحيح وكليته . وكتب الفقه في باب السير والحرب مملوءة بآراء عمر ، فلا يمنع الإسلام والعقل من البحث واكتشاف الجبهول والسير وراء العلم وإخضاع الحياة للعلم والعقل إلى آخر حد . ولم يخرج المعتزلة عن الدين بسيرهم سيراً واسعاً مع العلم . فكانوا لا يؤمنون بظهور الجن ويحكمون العقل في الحديث ويقولون بخلق القرآن ، وينكرون الخرافات والأوهام ؟ ومع ذلك فالرأى اتفق على إسلامهم غاية الأمر أنهم نادوا بأن هناك دائرة للعلم ودائرة أخرى للدين لا يمكن للعلم فيها أن يثبت أو أن ينفي ، لأنه لا قدرة له عليها ، فكل مملكة الغيب من ملائكة وجن ويوم آخر ووحى ونحو ذلك لا يقدر العلم على نفيها أو إثباتها . فهذه هي وظيفة الدين لا العلم ؛ والإيمان بها من جهة الدين لا ينافي العلم ولا يقيد به ؛

والعلم عاجز كل العجز عن إبداء رأى فيها . فكيف يستطيع العلم أن ينفي جناً أو أن يقول به ، أو أن ينفي الحساب يوم القيامة أو يدلل عليه ؟ إن هذه كلها أمور غيبية ترك للدين الحكم فيها ، كما ترك للعلم الحكم في دائرته . ولذلك قالوا : إن الدين يبدأ حيث ينتهى العلم . فالاسلام يؤمن بالعلم ويترك له حريته في دائرته ، ويدعو إلى الدين والإيمان بعقائده في دائرته أيضاً . والاكتفاء بأحدهما تقصير ضار . وكان المسلمون الأولون يؤمنون بهما معاً ؛ ثم كفروا بالعلم فضلوا . والغريبيون يؤمنون بالعلم فنجحوا في حياتهم الدنيا وكفروا بالدين فضلوا . ولا منجى من الضلال إلا بالإيمان بهما معاً . ففي الإيمان بالعلم حياة العقل . وفي الإيمان بالدين حياة القلب . ولاخير للانسانية إلا بحياة العقل والقلب معاً ، ولا تصادم بين العلم والدين كما لا تصادم بين حاسق السمع والبصر ، فلكل اختصاصه . ولا أمل في النجاح إلا بالرجوع إلى تعاليم الإسلام وسير المسامين الأولين باستخدام العقل والقلب . وآية ذلك أن الغريبيين في اعتمادهم الكلى على العقل وحده لم يسعدوا كما كان ينتظر . وكانت نهاية العلم ويلات الحرب والفرع والرعب والأسلحة النارية والقنبلة الذرية . وليس العلم هو الذى سبب الفرع والرعب ، ولكن الذى سببهما هو أن العلم لم يدعم بالدين . والعقل لم يدعم بالقلب . وفي الإنسان عقل وقلب لا بد أن يُغذَّيا . وما لم يُغذَّ عضو هام كالقلب يشعر الإنسان بالسَّامة والملل . ويعجبني في ذلك تقسيم الأشياء إلى ثلاثة أقسام : ما يُعلم ، وما يمكن أن يُعلم ، وما لا يمكن أن يُعلم . فما يُعلم هو دائرة العقل أو الشهادة ، وما يمكن أن يُعلم هو دائرة الغيب وما لا يمكن أن يعلم هو دائرة المستحيل . وفي

الحق أن الإسلام وقف موقفاً وسطاً بين منكرى العلم ومنكرى القلب .
ودعا إلى الإيمان بهما جميعاً بحيث لا يطنى أحدهما على الآخر :
والعقل رمزٌ إلى العلم ، والقلب رمزٌ للشعور . وما الانسان من غير عقل
أو شعور ؟ ! .

إنه إذا فقد العقل غرق في الخرافات والأوهام ، فبنى تربيته
وزراعته وتجارته على أوهام ؛ وإذا ترك شعوره كان حجراً جامداً
كقطعة الثلج .

إن العالم الإسلامي والعالم الأوروبي الآن متدينان ديناً جغرافياً أكثر منه
ديناً حقيقياً فكلاهما فقد في تدينه الروح واحتفظ بالنظر . غاية الأمر أن العالم
الأوروبي آمن بالعلم واتخذها إلهاً والعالم الإسلامي آمن بالخرافات والأوهام
واتخذها إلهاً فلا بد لصلاحهم من دين يعنى فيه بالروح أكثر مما يعنى
بالنظر والعالم الأوروبي الآن إذا هدى إلى التدين أفاده المنهج العلمى فى عرضه
العقائد والديانات على محك النظر فيكون دينه دين عقل وشعور معاً وهذا
هو الدين الراقى والذى يتطلبه الاسلام فكم من آيات القرآن ختمت بقوله
تعالى « أفلا تعقلون » وتعمير الكفار « بأنهم لا يفقهون » . والدين الصحيح
يتطلب أن يعرض الانسان العقائد الشائعة بما فيها من خرافات وأوهام على
محك العقل ليجد لها أساساً واحداً يؤلف بينها فينفي ما بطل ويثبت ما صح
وهذا ما فعله محمد (ص) عند تمبده فى غار حراء بعد أن رأى العرب وما
يدينون به والنصارى فى الشام وما يدينون به وسمع من سلمان الفارسى
أخبار الفرس وما يدينون به فكل هذه مجموعة من العقائد تستلقت النظر

ليعرف الصحيح منها والفاقد وأخيراً هداه الله إلى أن العقيدة في الأصنام ليست عقيدة صحيحة والعقيدة في اتخاذ الملوك والأحبار والرهبان آلهة ليست عقيدة صحيحة وأن العقيدة الصحيحة التي تبقى على محك النظر الاعتقاد بالله واحد فوق المادة وفوق البشر يأمر بالعدل والصدق وينهى عن الفحشاء والمنكر .
 وشيء آخر لا بد منه للمسلمين وهو اجتماع كلمتهم وتوحيد خطتهم^(١) وليس الأمر كما قال المرحوم سعد زغلول إن صفرًا + صفرًا يساوي صفرًا بل إنه $٥ \times ٥ = ٢٥$. . وقد أدرك هذا القادة السابقون في العصور الحديثة وسموها الجامعة الإسلامية ونادى بها محمد بن عبد الوهاب ولكن هزم حربيًا ثم نادى بها على أثره السيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده والسيد عبد الرحمن الكواكبي وإن كانت طرقهم مختلفة — فالسيد جمال الدين كان يرى تنفيذ الجامعة بثورة الشعوب على الأمراء وعلى المستعمرين والشيخ محمد عبده يرى تنفيذها عن طريق التربية والتعليم والكواكبي ثار على الأمراء أكثر مما ثار على الاستعمار في كتابه طبائع الاستبداد ورسم طريقة تنفيذ الجامعة الإسلامية في كتابه « أم القرى » وكان يساعد هذه الحركة الشيخ علي يوسف في جريدته « المؤيد » إذ ينشر فيها مقترحات المفكرين وأخباراً عن أنحاء العالم الإسلامي والسلطان عبد الحميد كان يناهض الحركة أولاً ثم أيدها أخيراً والأوروبيون رعبوا من هذه الدعوة إلى الجامعة الإسلامية لأنها ستقف سدًا منيعًا ضد استعمارهم ولذلك تحفروا ضدها وشهروا بها وكرهوها المسلمين المثقفين في اعتناقها بدعوى أنها تثير التعصب الإسلامي

(١) انظر ما كتب قبل عن الجامعة الإسلامية

البغيض . ولا ضير من هذا التعصب إنما الضير من تعصبهم هم لذلك نفر عدد من المثقفين المسلمين من هذه الفكرة وقد اجتهد رئيس المبشرين المستر زويمر في عقد مؤتمر للنظر في هذه الكارثة . كارثة اجتماع المسلمين على رأى واحد . ومما قاله الرئيس فى ذلك « إن المبشرين المنتشرين على ضفتى النيل وشرقى أفريقيا وبلاد النيجر والكونغويشكون مر الشكوى من انتشار الاسلام بسرعة فى هذه الأنحاء . وبالرغم من أن انتشاره فى الهند الهولندية قد لقي الموانع من مجهودات جمعيات التبشير الهولندية والألمانية فهو يتوطد ويثبت هناك لأن المسلمين أخذوا يستبدلون التقاليد الخرافية بعقائد ثابتة قوية وفى أمريكا عدد كبير من المسلمين لا يستهان به إذ بلغ (٥٦) ألفاً ثم قال إن العصر الأخير امتاز بالانقلابات السياسية التى حدثت أخيراً فى العالم الاسلامى فتكرراً لله على حدوث هذه الانقلابات لأنها أقامت الحرية على أنقاض الاستبداد وصار التجول فى البلاد العثمانية والعربية والفارسية مسموحاً به . وأن الإسلام قد بدا يتنبه لحقيقة موقفه . ويشعر بحاجته إلى تلافى الخطر وهو يتمخض الآن عن ثلاث نهضات — الأولى إصلاح الطرق الصوفية والثانية تقريب الأفكار من الجامعات الاسلامية والثالث إفراغ العقائد والتقاليد القديمة فى قالب معقول . ومصدر هذا الشعور بالحاجة إلى إصلاح واحد وهو التغير الذى حدث فى الإسلام عند ما اكتسحت أهله الأفكار العصرية والحضارة الإفريقية ، ولا يمنع هذا أن يكون الشعور راجعاً لعاطفة الخوف والحذر من الحضارة الغربية أو التوفيق بين مبادئ الإسلام والمدنية الغربية وكلاهما يؤدى إلى غاية واحدة وهو جعل الإسلام متمشياً مع الأفكار العصرية .

وختم كلمته بقوله « إذا نظرنا إلى البلاد التي يحكمها هذا الدين الكبير المخاصم لنا وإلى البلاد التي يتهددها بحكمه إياها ظهر لنا أن كل واحدة من هذه البلاد رمز لمشكلة من المشاكل الكبرى فراكش في الإسلام مثال للانحطاط وفارس مثال للانحلال وجزيرة العرب مثال للرقود ومصر مثال لمجهودات الإصلاح والصين مثال للاهمال وجاوه مثال للتغير والانقلاب والهند مركز للاحتكاك الإسلامى وأفريقيا الوسطى مكان للخطر الإسلامى وعلى كل فالإسلام يحتاج قبل كل شيء إلى المسيح » .

ومن المؤسف حتمًا أن الحاجة إلى الجامعة الإسلامية اليوم لا تزال كما كانت بل أشد مما كانت لأن المسامين لا يزالون متفرقين رغم توالى الضربات عليهم ورغم اتحاد السياسة الأوروبية ضدهم ومع محاولة أوروبا خنقهم . وقد قال أحد الأوربيين « إن هذه النهضة الإسلامية حاولت الاتفاق مع البوذيين ومع الصينيين ولم يبق أمامها إلا عدو واحد هو أوروبا أى إن الشرق ناهض وعلى الغرب أن يستعد لمقابلته فى ساحة العراك وأمام أوروبا اليوم مسألة هامة هى هذه الجامعة الإسلامية . . . أليس من الحكمة أن تدبر ضربة قوية قاضية تخمد هذه الحركة الإسلامية . . . أما رأى أنا فهو اقطفوا البرعم قبل أن يزهر فيثمر وهذا كان تعبيراً صادقاً لما فى نفس كل أوروبى .

والحوادث الأخيرة ترجح هذا وهو أن تفوق الصين الشيوعية على الأمريكيين فى حرب كوريا واتفاقهم مع روسيا واتفاق الهند معهم وميول بعض المسامين إليهم تجعل من المحتمل القريب أن يكون الشرق مع توسع فى معناه حتى تدخل فيه روسيا واليابان سيقف كتلة واحدة ضد الغرب وستكون

مناذاته إذا انتصر آسيا للأسيويين لا للأوروبيين وفي هذه الحالة تنطوى الأمور وتنبعث النهضة من الشرق بعد أن انبعثت من الغرب ويشهد العالم صراعاً جديداً ومدنية جديدة . . . والعلم عند الله .

وكما ينقص العالم الإسلامى الاجتهاد ينقصه بناء الحياة على العلم فهو يبنى حياته الزراعية على نفس الطريقة التى كان يتبعها آباؤه فى العصور القديمة ويبنى حياته الزراعية على نفس الطريقة التى كان يتبعها آباؤه فى العصور الوسطى فإن شذ أفراد فساروا فى حياتهم الزراعية والتجارية والتربوية على العلم فشيء نادر لا يعول عليه ولا يمكن أن ينهض العالم الإسلامى إلا إذا أسس حياته عامة على العلم .

قال الأستاذ رينان الفيلسوف الفرنسى المعروف إننى أخشى أن يثبت الدين الإسلامى وحده فى وجه هذا التسامح العام فى العقائد ولكننى عرفت أن فى نفوس بعض الرجال المتمسكين بأداب الدين الإسلامى القديمة وفى بضعة من رجال الآستانة وبلاد الفرس جرائم جيدة تدل على فكر واسع وعقل ميال للمسالمة إلا أننى أخشى أن تحتنق هذه الجرائم بتعصب بعض الفقهاء فإذا اختنقت قضى على الدين الإسلامى . ذلك لأنه من الثابت الآن أمران : الأول — أن التمدن الحديث لا يريد إماتة الأديان بالمرّة لأنها تصلح أن تكون وسيلة إليه . والثانى — أنه لا يطيق أن تكون الأديان عشرة فى سبيله فعلى هذه الأديان أن تسالم وتلتئز وإلا كان موتها (ضربة لازب) وما أظن أن لتخوف الأستاذ رينان مجاًلاً من الدين الإسلامى وقد عهدنا أنه أوسع الأديان صدراً وأقبلها للمدينة الحديثة .

نعم إن كل محاولة للتوفيق بين الإسلام والمدنية الحديثة قد فشلت إلى اليوم ولكن فشلها لا يعود إلى تعاليم الإسلام: نفسه بل إلى أسباب أخرى أهمها أن المدنية الحديثة تقدمت إليهم أول ما تقدمت بالسيف والنار لا بالإقناع والإحساس بالمنفعة . ثم إن المدنية هذه تقدمت وهي تحمل في إحدى يديها المخترعات الحديثة وتحتاجها في العلوم والفنون وفي الأخرى وسائل الاستغلال والاستعمار فلذلك قبلها المسلمون كارهين مكرهين ولو تقدمت إليهم على غير هذا الوجه لقبولها قبولاً حسناً كما قبلوا المدنية اليونانية والقارسية والتركية من قبل والثالث أنها جاءتهم على يد النصارى المتعصبين الذين اكتبوا بنارهم من أيام الحروب الصليبية إلى اليوم والرابع أن المسلمين لضعفهم أصابهم ما يسمى في علم النفس بمركب النقص فقبلوها ضعفاء متهافتين ينظرون إليها على أنهم ضعفاء مغلوبون على أمرهم لا حيلة لهم في رفضهم ومع ذلك فقبلوهم للأشياء المادية من المخترعات الحديثة كان أسهل عليهم من قبولهم للمعاني وإن أخذوا من كلِّ بحظ .

وكما ينقص العالم الاسلامي الاجتهاد والعلم فإن العالم الأوروبي ينقصه القلب أو بعبارة أخرى الروح .

وقد ألف الأستاذ چود أستاذ الفلسفة الإنجليزى كتاباً قيماً سماه مخافات المدنية الحديثة قال فيه إن المدنية الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق : فالأخلاق تتأخره جداً عن العلم ومنذ النهضة ظل العلم في ارتقاء والأخلاق في انحطاط حتى بعدت المسافة بينهما . وبينما يتراءى الجيل الجديد للناظر فتعجبه خوارقه الصناعية وتسخره المادة والقوى الطبيعية لمصلحته وأغراضه إذا هو لا يمتاز في

أخلاقه ، فى شرهه وطمعه ، وفى طيشه ونزقه ، وفى قسوته وظلمه عن غيره . وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة إذا هو لا يدري كيف يعيش . وتوالى الحروب الفظيعة الهائلة دليل على إفلاسه وأنه يربى نشأة لمتوت . وقد خولت له العلوم الطبيعية قوة قاهرة ولكنه لم يحسن استعمالها فكان كطفل صغير أو سفينة أو مجنون يملكون زمام الأمور ويؤتون مفاتيح الخزائن فهم لا يزيدون عن أن يلعبوا بها فيها من جواهر .

وقال فى موضع آخر « إن فيلسوفاً هندياً سمعى أطرى حضارتنا وأقول إن أحد سائقى السيارات قطع ثلاثمائة أو أربعمائة ميل فى ساعة واحدة على الرمال وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك فى عشرين أو خمسين ساعة فقال ذلك الفيلسوف الهندى « إنكم تستطيعون أن تطيروا فى الهواء كالطير ، وأن تسبحوا فى الماء كالسمك ، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض » .

وقال فى موضع ثالث من هذا الكتاب « انظر إلى الطائرة التى تخلق فى السماء يخيل إليك أن صانعيها فى علمهم ولباقتهم فوق البشر ، والذين طاروا عليها أولاً كانوا فى علو عزمهم وجراتهم أبطالاً ولكن انظر الآن إلى المقاصد السيئة التى استخدمت لها الطائرة وتستعمل لها فى المستقبل . . . إنما هى قذف قنابل وخصوصاً الذرية ، وتمزيق جثث الإنسان وخنق الأحياء وإحراق الأجساد ، وإلقاء الغازات السامة ، وتقطيع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشر إرباً إرباً . وهذه إما مقاصد الحق أو مقاصد الشياطين » .

وقال فى موضع رابع « ماذا سيقول المؤرخ غداً إذا وصف كيف كنا نستعمل الذهب . سيذكر أننا توصلنا إلى أن نخبر عن الذهب باللاسكى وسيصف الصور التى كان أصحاب المصارف يزنون بها الذهب ويعدونه فى لباقة ومهارة وكيف تحدينا قانون الجاذبية فى نقله من عاصمة إلى عاصمة وسيسجل أن أشباه الوحوش الذين كانوا ماهرين وفى غاية الجرأة فى فتوحهم الصناعية كانوا عاجزين عن التعاون الدولى الذى كان يتطلبه ضبط الذهب والتقسيم الصحيح وكانوا لا يعنون إلا بأن يدفنوا المعادن بالسرعة الممكنة وكانوا يستخرجون الذهب والمعادن من بطون الأرض فى جنوب أفريقيا ويدفنونها فى مصارف لندن ونيويورك وباريس . »

إن أهل الغرب الذين فقدوا قلوبهم قد مقتوا الحضارة وأصبحوا يتبرمون بها لأنها خلقت فى كل ناحية مشاكل وأحقاداً لا يطفئون إحداها إلا إذا ظهرت أخرى أعقد منها ، ولا يقطعون فرعاً إلا وتطلع فروع كثيرة ذات أشواك . فلا الحضارة الإسلامية فى شكلها الحاضر نافعة للعالم ولا الحضارة الأوروبية . إنما يرشد العالم يوم يتخلى كل عن معاييه ويقتبس من الآخر فضائله فيحى الغربيون قلوبهم من الشرق ويستعير الشرقيون العلم من الغرب وحينئذ يتعادل العقل والقلب وإلا فسيظل العالم مائجاً مضطرباً يقع كل يوم فى مشاكل جديدة ويعالج الداء بالداء ، ويستغيث من مصائب الرأسمالية لينغمس فى الشيوعية ، ويستغيث من مصائب الدكتاتورية فيقع فى مشاكل الديمقراطية وهكذا لا ينتهى من شر إلا إلى شر ، ولا من فساد إلا إلى فساد .

إن في الناس حاسة دينية لا يسعدون إلا باستعمالها فإذا فقدوها كانوا كمن فقد السمع أو البصر .

وإن المتفائل يسر من تطور العالم إلى هذه الغاية المنشودة فيجد العالم الإسلامي وخصوصاً مصر تخطو خطوات موفقة نحو العلم الأوروبي وأروبا التي كانت كافرة وطاعنة في الدين تقبل على الدين وهذان الاتجاهان يبشران بالخير ! إنه إذا كان ذلك لم يكن العالم قسمين : غرب يستعمر الشرق ويستذله ، وشرق يستعمر ويستذل بل يكون العالم كله وحدة بينى شرقه مع غربه ويتعاون كل أبنائه ويستغل كل ما عند الآخر من المواد الخامة .

إن كلا من الشرق والغرب تنقصه زعامة صادقة مخلصه فقد تبين إلى الآن أن الشعوب خير من قادتها وكان الطبيعي أن يكون القادة خيراً من الشعوب وإلا ما كانوا قادة فإن طبيعة الزعامة أن يكون القائد بصيراً بما لم يبصر به الناس ، شاعراً بما لم يشعروا به ، سائراً أمامهم ، هادياً لطريقهم لا جارياً وراءهم ، ولا متتبعاً لهم .

يجب أن يكون للعالم فلسفة واحدة تسيره لا فلسفتان . والذي يقود العالم الآن الفلسفة الأوروبية في عقائدها ونظرياتها ونظام حياتها وهي فلسفة ناقصة تعتمد على المادة والقوة وفلسفة الشرق ناقصة تعتمد على الروح ولا عقل لها ، واعتمادها على الروح البحث جعلها عرضة للخرافات والأوهام وإن كان الإنسان جسماً وروحاً وجب أن تجاوب فلسفته هذين العنصرين فإن أجابت عنصرياً وأهملت الآخر وقعت في النقص كما هو حاصل اليوم .

وليست هذه العيوب مما يمكن إزالته في يوم أو يومين فإنها عيوب تأصلت في العالم من يوم أن كان إلى اليوم ولا بد أن يمر زمن كالذي مضى أو قريب منه حتى يفيق من مرضه ، ويسترد قوته ويمشي على الجادة ، بل علمتنا الأحداث أن المرض قد يأتي بغتة ولا ينصرف إلا في ببطء . وعلى السنة العامة المرض يأتي كالجلبل ويذهب كالحة .

ولا ينقص المسلمين في الوقت الحاضر إلا شيء واحد ، وهو مدرسة جديدة ذات منهج جديد ، مدرسة لا شرقية ولا غربية ، فإن المدرسة الشرقية ، أعني مدرسة العصور الوسطى لم تعد صالحة للعصر الحاضر ، لأنها تعفنت بمرور الزمان . والمدرسة الغربية معيبة في بلدانها ، فكيف إذا قلدت في غير بلادها ؟ إننا نريد مدرسة تضع منهج العلوم كمنهج البلاد الأوربية مع خلاف بسيط وهو أن يطعم منهج العلوم بالنية الحسنة ، نية خير الإنسانية لا تدميرها ، فإذا فعلنا ذلك لم نستخدم تحليل الذرة في قنبلة تدمر ، ولكن في تحليل ذرة يعمر . وبعد ذلك نستخدم نتائج العلوم الأوربية لا إلى حد . بل نحن متسامحون إذا قلنا العلم الأوربي ، لأن العلم لا وطن له ، ولا يقتصر على خدمة دين دون دين . أما في الأدب والتاريخ فمنهج مدرستنا غير منهج مدرستهم . إنهم سممونا بأشياء كثيرة ، سممونا بقولهم إن الفن للفن ، وبقولهم : إن الأديب حر يقول ما يشاء ، وسممونا بمنهجهم التاريخي الذي يقضي بأن مركز العالم الرجل الأبيض ، ومن عداه فعلى هامشه إلى غير ذلك .

فنحن نريد برنامجاً عماده الحب للإنسانية كلها ، وعمل الأديب لخدمتها ،

لالتغنى بالجمال وحده ، ولا لخدمة الشهوات ، ولا لكسب المال وحده .
 إنما تقيس الأدب ' بمقدار نفعه للناس . فهو يحب الإنسانية حباً ينسى
 الأديب نفسه ومتاعبه وبريق المادّة . حباً يكون سحراً كهصا موسى ،
 لا يمس شيئاً إلا ألهبه ، ولا يمس حجراً إلا أحياه ، كالإيمان الذي مسّ
 الحجارة وجعل منها المساجد والآثار الفنية الخالدة .

كذب الذين يقولون : إن العلماء والأدباء يتفاضلون بقوة العلم وكثرة
 المعلومات ، وقوة الذكاء ، وقوة الشاعرية ، وانسباك اللفظ ، ودقة المعنى ،
 وأن الباحثين يتفاضلون بالعمق والصبر على البحث . إنما هم يتفاضلون في
 مناجنا بالحب للإنسانية والإخلاص لها .

ومع الأسف جنت المدنية الحديثة على العلوم والآداب ، فاستأصلت هذه
 العاطفة الإنسانية ، ووضعت مكانها العاطفة الجاحمة الوطنية ، كما ملأته بحب
 النفع المادى . ولم تعبأ بحب المعانى السامية ، والأخلاق الراقية ، والجمال
 المعنوى . ولذلك أخرجت شباباً فى شكل إنسان ، وحقيقة أحجار ؛ لا قلب
 له ولا شعور ، ولا أمل عنده ولا ألم . سواء فى ذلك الشباب الأوروبى
 والشباب الشرقى ، وسواء فى ذلك الفتيان والفتيات .

إن برنامجنا الذى نريده يخرج شباباً حياً جمع بين متناقضين لخصهما الله
 فى قوله يصف المؤمنين « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » . شباب
 يحطم السلاسل ، ويفك الأغلال ، ويتمرد على المجتمع الفاسد ، وهو فى
 الوقت عينه محب للخير وديع ، يسيل عذوبة ورقة إذا دعا داعى الخير ، ومن
 أجل الخير .

إننا لا نقوم العلم والأدب إلا بمقدار خدمتهما للإنسانية . وأكبر عيب في المدنية الغربية أنها جعلت الشباب كالإنسان المصاب بالسرطان ، تتضخم ناحية منه ، ولا تتضخم الأخرى . فتضخم عقله ، وضمير قلبه ، فاختلف توازنه .

إن المدنية الحديثة جعلت قلبه فارغاً ظمآن . صقيل الوجه ، كاسف الروح ، مستنير العقل ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس . قد حاز كل أسباب السعادة إلا سعادة قلبه ، قد نزعته منه عاطفة الدين ، فساءت حياته في الدنيا . والشباب الشرقى على الخصوص شغفته الحضارة الغربية فمدَّ يده إلى الأجانب ليتصدقوا عليه بفتات الموائد . قد باع روحه بثمان رخيص جداً ، وهى أعز شيء فى الوجود . فاشتري من الغربيين عبادة المادة ، وعبادة الشهوات والجاه ، وأعطاهم قلبه . لقد كانت والحق يقال المدنية الغربية فى نعومتها وبرامجها وأفكارها أقسى على الشرق من مدافعها وكل آلات قتالها . فما فعلته هذه الآلات أفسدت الناس بكل سهولة .

وكان من نتيجة تعاليمهم جبن هذا الجيل وضعفه الخلق وبرودة القلب ، وجفاف العين .

إن شباب اليوم قد يكون لبقاً حسن الحديث ناصع الوجه براق العينين ، ولكن مع كل هذا ليس له قلب :

لقد كنت فى الحجاز فرأيت بعض سواقى السيارات يسوقونها بعقلية الجمل ، فكذلك المعلمون اليوم يربون الصقور تربية الحداة ، وأشبال الأسود تربية الغنم .

إن الإنسان إذا قوى عقله ولم يقو قلبه ثَبَطَ عن المغامرة ، وفكر طويلاً في العواقب ، ولم يكن عنده إلا الوظيفة والعلاوات والترقيات . يجب السرور والملذات ، ولا يجب احتمال المسئوليات . ويأنف التضحية التي توصله إلى غرضه . هو غمدٌ بغير سيف ، وقبة بلا شيخ ، لأنه لم يعرف نفسه ، فلم يعرف ربه . إن التربية التي نحن سائرون عليها جعلت الشباب رخواً ناعماً ، كأنه عادة . فأما تربيتنا على هذا المنهج الذي وضعناه فيجعلهم يشقون الصخور ، ويدكون الجبال .

قد كانت هذه التربية العتيقة الفارغة القلب كافية لموت الشرقيين في جيل ، فكيف إذا ربوا على منهجها أجيالاً وأجيالاً ؟ لقد كان الأدب مادة لكسب انال من الأمراء ، أو الحث على لذة وضیعة ، وأرقاه مادعا إلى تذوق الجمال ولم يعبا بحياة القلب والروح .

ولأمرٍ ما بعث الله رسوله محمداً أمياً . حتى لا ينجس نظره في الحروف والكلمات ، ولا ينجس عقله في الفلسفة والمنطق . وإن رسالته لإحياء القلب أكثر منها لإحياء العقل . ويمثل ذلك قوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » . وقوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » . ويمثل ذلك أيضاً التفرقة بين العلم والحكمة ،

فالعالم هو مثل الذى تأتى به المدنية الحديثة ، أما الحكمة فهى تصريف الأمور ووضعها فى مواضعها اللائقة بها ، وحكمة مع أمة خير من علم مع قراءة . وكثيراً ما نرى أخاً متعلماً على آخر طراز ، فهذا عالم ، ونرى أخاه غير المتعلم إلا الزراعة أو الصناعة أحكم منه وأحسن تصرفاً فهو خير منه . والناس يبالغون فى تقدير القراءة والكتابة كأنها كل شئ . والله تعالى يقول : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » .

أما برنابجنا فهو أن الأديب لا بد أن تكون له رسالة لنفع العالم ، ويكون مداد قلمه ناراً ملتهبة ، لا إرضاء للأغنياء ، ولا أداة للهو والتسلية . والأديب الذى يسير على هذا المنهج الأخير أديب منكس ، أو أديب ممسوخ ، إن الأدب اليوم فى الشرق والغرب جعل المرأة إلهاً معبوداً فى الشعر والنثر والرواية ، يغنى لها ، ويطيل فى وصف جمالها ، ويضعها فى موضع القداسة ، ومثل ذلك الفن ، فهو يمثلها أشكالاً وألواناً فى الجرائد والمجلات والكتب ، كأن لا موجود إلا المرأة . وهو تصوير صادق للاتجاه الحديث . كذلك الشأن فى الفلسفة « انحطت حتى صارت مجرد خيالات فيما وراء المادة ، والفلسفة الحقة هى التى تدخل فى صميم الحياة ، ليترب عليها عمل ، والتى تكتب بدم القلب وعصير الروح .

إن التربية الحديثة فى الشرق مع الأسف جعلت المسلمين فى باطن الأمر ينجحون من أنهم مسلمون ، ودعاة الإصلاح فيهم ينجحون من دعوة الدين ، لسببين أولهما أنهم يضعون قضية فاسدة وهى أن المسلمين إذا كانوا متأخرين على هذا الشكل فكيف ندعو غيرهم إلى الإسلام ، وفساد هذه

القضية ناشئة من أنهم يظنون أن سبب تأخرهم هو الإسلام ، وما دروا أن الإسلام عامل من العوامل لا كل عامل . إذ أن اليابانيين ارتقوا حتى حاذوا الغربيين مع وثنتهم . ولو أصلحت العوامل الأخرى لكان الإسلام وقد نقي من شوائبه أحد عوامل الترقية . والثاني أنهم يقلدون الغربيين في نسبة ضعف المسلمين وتأخرهم لدينهم ، فهم لا يدعون إلى الدين هرباً من هذه الوصمة . وقد سبب هذا مركب النقص في نفوس المسلمين . فهم إذا ذكروا أنهم مسلمون ذكروا ذلك على استحياء . ولكن منهنجا يجعل المسلمين يعتزون بدينهم ، ويفخرون حقيقة بأنهم مسلمون .

وقد عودنا الله أنه إذا أفلت شمس الإسلام في ناحية طلعت من ناحية أخرى . فقد سقطت الأندلس في يد الأسبان فطلعت شمس الأتراك في الوقت عينه ، وكانت في أول نشأتها فتية قوية . ونكبت بغداد بغزوة التتار فعوضهم الله عنها بانتشار الإسلام في الهند ، وضاعت فلسطين من أيديهم ، فحرك ذلك العالم العربي في سوريا والعراق ومصر وأندونيسيا والشام للسعي للاستقلال في الحياة ، ولذلك نرجو أن تطلع شمس جديدة على العالم الإسلامي فتكسبه عزّة . كالذي كان من ضعف الهند فنبتت عنها دولة الباكستان القوية .

فالمسلمون إذا استعادوا نفوذهم ، واعتزوا بنسبتهم إلى الإسلام ، ولم تبهرهم مباحج المدنية الحديثة وزخارفها ، واعتقدوا في أنفسهم كما قال الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » لكان لهم في العالم الحاضر شأن آخر .

وهنا نتساءل عن مستقبل العالم : هل سينتقل الأوروبيون إلى الإسلام ،

أو يكون المسلمون أوربيين؟ قد فكر بعض المسلمين كثيراً في ذلك فذهب بعضهم إلى أنه لا بد من الرجوع إلى الإسلام الأول في شكله وجوهره ، وإذا كان هذا لا يمكن إلا إذا أبعد القادة والزعماء من بيئتهم وظروفهم التي يعيشون فيها . فقد رأوا إنشاء مدرسة داخلية يعلمون فيها التعليم الديني الصحيح ويبعدون فيها عن الاختلاط بالأوساط الموبوءة . وعلى ذلك اقترحوا إنشاء مدرسة لهؤلاء القادة وأسست مدرسة الدعوة والإرشاد التي قام بإنشائها السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار . وفي هذه الحالة يرضى الأوربيون عن عقلية المسلمين فيفضلون الإسلام .

ورأى آخرون أن أسباب انحطاط المسلمين ترجع إلى الجهل فأرادوا أن يزيلوا الجهل عن الأمم الإسلامية فترفع . قال الفيلسوف لينتزر « لو كان أمر التعليم بيدى لغيرت وجه أوروبا في أقل من قرن . وقال ديديرو الأديب الفرنسى « إن علة العلل في ارتقاء الأمم وانحطاطها هو العلم أو الجهل وما عدا ذلك فأسباب جزئية ترجع إلى تلك العلة الأصلية بل إن العلم هو الذى تقاس به الأمم في ارتقاءها وانحطاطها وعند الحروب بل وفي السلم أيضاً وكما تنقاتل الأمم بأشكال مختلفة كالجنود تقاتل الجنود والتجار تقاتل التجار فكذلك نستطيع أن نحكم لمن تكون الغلبة ، فالجندى الذى يقاتل بالدبابات والظائرات يغلب الذى يقاتل بالرمح لا محالة ، والتاجر الذى ينزل الحرب بالأساليب الحديثة في التجارة يغلب الذى ينزل بالأساليب العتيقة وهكذا » . وقال فولتير « الظلم الواقع على الأمة عقاب لها على جهلها وليس المراد بالعلم هذه الأبواب المحفوظة التي يتسمى محصلوها بالعلماء على الإطلاق وإنما العلم هو معرفة حقائق الكون (١٥)

المبثوثة فيه علماً بقدر الامكان كالعلم الطبيعى والرياضى ونحوهما من علم السياسة والاجتماع .

ولإيجاد العلم بين المسلمين طريقتان — الأولى ترجمة العلم بين المسلمين بلغاتهم المختلفة كما نقل العرب المسلمون علوم السريان والكلدان وغيرها وكما فعل الإفرنج أنفسهم فى نقل علوم المسلمين أيام سلطان العرب والثانى تعليم طائفة من المتنورين من المسلمين اللغات المختلفة من إنجليزية وفرنسية ، وهؤلاء يتعلمون ثم يرشدون أممهم . والطريقة الأولى أقرب وأوسع وأعم . وفى ذلك يقول المصلح الهندى الكبير السيد أحمد خان وقد كان يطالب بنقل العلوم الأوروبية إلى اللغة الوطنية « لو استطعت لكتبت بحروف من نور على أعلى جبال الهملايا وجوب نقل العلوم الغربية إلى اللغة الوطنية ويجب تعميم هذا التعليم للمبتدئين فى المدارس الابتدائية ثم التدرج إلى التعليم العالى » . كل ما فى الأمر أنه يجب أن يكون تعليم العلوم بجانبه التعليم الدينى الذى يبيث روح الاسلام فى النفوس وهذا ما نقصر الآن عنه وليس هناك تنافر بين الإسلام والعلم ، فالعلم جسم والدين روحه وبذلك يحيا العلم ويحيا الإسلام أما الذين يندرون بفناء الإسلام فى المستقبل فلا تسمع لهم وهو لا يكون إن شاء الله ، إلا إذا سادت الشيوعية بما فيها من إلحاد .

وعيب المسلمين هذه النزعة الروحانية من غير علم . كما أن عيب الأوروبيين النزعة العلمية من غير الروحانية ولا بد من الجمع بينهما — كما قدمنا — والمصلحون من المسلمين يعتقدون أن لهم نزعة روحانية يتسامى معها التقدم المادى بل إن العلم نفسه إذا أمد بالنظرة الروحانية كان أقوم وأنفع للبشرية

فلو كان عند الأمم الغربية روحانية مع اكتشاف الذرة لمكانت النتيجة التي يصل إليها استخدام الذرة في تقدم الصناعة والزراعة لا في عمل القنبلة الذرية ، فلما فقدوا الروحانية سلكوا مسلك القنبلة الذرية فإن وجدت الروحانية سلكوا مسلك التقدمات الصناعية والزراعية .

وهذا هو ما أوجد الهوة السحيقة بين الشرق والغرب ، هنا دين بلا علم وهناك علم بلا دين . ولا بد منهما معاً مع الزمان فهل يتدين العلم فتسرع أوروبا إلى مد يدها إلى الشرق أو يتعلم الدين فيسرع الشرق إلى الغرب . سؤال صعب ولكن الظنون والدلائل تدل على أن العلم سيتدين فانقسام الذرة وتكوينها والبحث فيها والوصول إلى أن المادة عبارة عن كهربائية سالبة وموجبة ونحو ذلك قاربت بين العلم والدين وسيزيد هذا التقارب ولأن أوروبا إذا فشلت كانت أقرب إلى تحوير نفسها بما يتلاءم معها وقد فشلت في حروبها فلجأت إلى الدين وموجة الدين اليوم أشد مما كانت عليه في الأعوام الماضية — حتى موجة الدين هذه أصابت الشرق أيضاً فالمساجد عمرت بالمصلين والمصليات وفي موسم الحج يحج عدد كبير من النساء - الأرستقراطيات . بقي أن نتساءل ، هل سيلجأ أهل أوروبا وأمريكا إلى الإسلام أو إلى دين منتخب بالعقل من سائر الأديان كاختيار الوحدانية من الإسلام وحب الله والتضحية من النصرانية — هذا سؤال من الصعب التكهّن بالجواب عليه وإنما كل الذي نستطيع أن نقوله إن ذلك يحتاج إلى أجيال كثيرة لأن الأمم لا تنقلب من عداوة حادة إلى حب بين طرفتين وانتباهتها ، فلا بد من زمن تقل فيه هذه العداوة ثم من زمن تنقلب فيه العداوة إلى

حياد ، ثم من زمن ينقلب فيه الحياد إلى محبة ، وعلى كل حال فسواء انقلب الأوروبيون من النصرانية إلى الإسلام ، أو إلى دين منتخب فوقهم نحو الإسلام سيتغير لا محالة .

وهناك رأى يرى أن لا أمل في الإسلام والمسلمين بحكم بيئتهم الحارة التي تدعو إلى الخمول والكسل وهو قول سخيّف لأن البيئة هي البيئة والإسلام نشأ فيها ونهض وارتقى ثم انحط المسلمون مع أن البيئة واحدة والأوروبيون في بيئتهم كانوا في القرون الوسطى أقل حالا من المسلمين ثم ارتقوا والبيئة هي البيئة ولو كانت البيئة لها كل هذا العمل ما تخلفت النتائج لأن ما بالطبع لا يتخلف . فهو قول وإن ارتآه المقرئى وابن سعيد المغربى وابن خلدون وأحزابهم لا يستقيم مع البرهان الصحيح .

أى مانع يمنع المسلمين من انتشار دينهم وقد دعا إلى المساواة ، فعنده لا فرق بين أسود وأبيض ولا بين عربى وعجمى . وقد كان هذا سبباً من أسباب انتشار الإسلام . كل ما يعوز المسلمين هو الحاجة الشديدة إلى الاجتهاد حتى يواجهوا المشاكل الحديثة بنظر جديد وهذا عيب المسلمين لا عيب الإسلام فالإسلام لم يحرم الاجتهاد بل حث عليه وليس بصحيح ما يرمى به الأوروبيون الإسلام بالجمود وكل عصر له مشاكله ومسائله الجديدة التى تتطلب حلاً جديداً وقد كان من ضمن وسائل التشريع الإسلامى قول الفقهاء « العرف قاض والعادة محكمة والأحكام تتبدل بتبدل الأزمان والضرورات تبيح المحظورات وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن إلخ . . . »

ومن قديم تحير المفكرون في مظهر العالم من امتزاج خيره بشره امتزاجاً غريباً وماديته بروحانيته امتزاجاً عجيباً . فأما الإسلام والأديان الكبيرة ، فقد حلت هذه المشكلة بالجمع بين الحياتين المادية والروحانية وتقويم كل منهما واعتبار الحياة الدنيا حياة لها قيمتها من غير غلو فيها ، والحياة الروحية حياة لها قيمتها من غير إفراط أيضاً .

إن أهم الفروق بين الإسلام والنصرانية ، أن الإسلام رعا الدنيا حق رعايتها وجعل من الممكن الاحتفاظ بالحياة الروحية مع الاستمتاع بالدنيا ، بينما النصرانية رأت ألا يفتح باب السماء إلا إذا انغلق باب الأرض . ولعل سبب ذلك أن الإسلام جعل الإنسان مسئولاً فقط عن عمله « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » و « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، على حين أن النصرانية حملت الإنسان خطيئة آدم وجعلته يؤمن بشر النفس الإنسانية لا بخيرها كما فعل الإسلام . وفرق آخر وهو أن المدنية الغربية جعلت من الممكن أن يرق الإنسان بالحياة المادية فقط ، من اقتصاديات وصناعات واختراعات وفلسفات . بينما الإسلام يرى أنه لا يمكن رقيه إلا بالاعتماد على الركنتين جميعاً : أغنى الجسم والروح .

والفرق الثالث أن المسلم يعتمد في حياته على ربه ويعتقد أن قوته هو لا تكفى ما لم تدعم بسند متين وركن شديد هو « الله » مدبر هذا العالم . أما الغربي ، فيرى « الله » قد كف يده عن العالم منذ خلقه ، وتركه يتطور كما يشاء وبقي في السماء ، والأرض تعمل عملها . والمسلم يرى أن خالق الأرض يصع يده في كل شيء ، طبقاً لخطة مرسومة ، معروف له هدفها ،

وأن المسلم مجبر على اتباع هذه القوانين شاء أو أبى .
والفرق الرابع أن إمام المدينة الإسلامية القرآن وتعاليمه التي أبنها . أما المدينة الغربية فإمامها المدينة الرومانية من جملة نواح :
(١) الاعتزاز بشخصها ، واحتقار ما عداها ، حتى أن العدل واجب على الروماني للروماني ، لا لغيره . (٢) حب الفتح والاستعمار والاستعلاء واستغلال البلاد المفتوحة للمصلحة الرومانية لا للمفتوحين ، بينما الإسلام يرى أن البلاد المفتوحة لها ما له وعليها ما عليه . (٣) الاهتمام بالحياة الفردية والحياة الاجتماعية على السواء ، وتشريعه للناحيتين على السواء . أما في المدينة الغربية ، فتشجيع للحياة المادية لا إلى حد ، وإهمال للحياة الروحانية لا إلى حد كذلك .

ولأن الإسلام أسس النظام الاجتماعي لأهله على أساس متين من تفضيل صلاة الجماعة على صلاة الفرد ، وزكاة يعطى فيها الغنى للفقير ، وحج تجتمع فيه الأفراد المختلفة من الأقطار المختلفة ، ونحو ذلك ، استطاع أن يثبت ثلاثة عشر قرناً مع الزلازل القوية ومن أكبرها غزوة التار فقد هزت الاسلام هزاً عنيفاً ومع ذلك هضمهم الاسلام ولم يهضموه ، في حين أن كثيراً من المدن لم تستطع أن تقف في وجه التيارات الجارفة التي كانت أقل من التار . ثم هذا الإسلام مع ضعف أهله في التبشير قد انتشر في أفريقية مثلاً انتشاراً لم تنله النصرانية المدججة بالسلاح المدعمة بالأساطيل ولذلك أسباب أهمها بساطة العقيدة الإسلامية التي تنحصر في كلمة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مما يقبله عقل الزنجى بدون عناء كبير ثم انعدام الطبقات .

وليس هناك الهوة السحيقة بين الغنى والفقير فالفقير يرى أن له حقاً في مال الغنى والغنى يفسح صدره للفقير، ثم اللجنة التي رسمها الإسلام رسماً بديعاً مشوقاً وكل من أنصف يرى أن الوثنيين الذين أسلموا كانوا أحسن حالا منهم قبل إسلامهم فقد رقيت نفوسهم وحسنت أخلاقهم وأدركتهم العزة بالإسلام . وبعد فقد تعب المصلحون كثيراً في التفكير في انحطاط المسلمين اليوم وأظنه يتضح بعد الآن أسباب تدهورهم وانحطاطهم وانهدام بنيانهم ، فإذا أردنا الإصلاح فكما في الحديث إن هذا الدين لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله فلننظر شيئاً فشيئاً في هذا التدهور ولنقم الأساس من جديد يرجع البنيان متيناً كما كان .

ونختتم قولنا هذا بقول شوقي بك :

يا رب هبّت شعوب من منيّتها	واستيقظت أمم من رقدة العدم
سعد ونجس وملك أنت مالكة	تديل من نعم فيه ومن نعم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته	أكرم بوجهك من قاض ومنتم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا	ولا تزد قومه ضعفاً ولا تسم
يا رب أحسنت بدء المسلمين به	فتعم الفضل وامنح حسن نختتم

جدول بأهم الأحداث التي حدثت للمسلمين

الهجرة النبوية و بدء التاريخ الإسلامى .	٦٢٢ م
وقعة بدر وانتصار المسلمين .	٦٢٤
وقعة أُحد وانكسار المسلمين .	٦٢٥
إخضاع اليهود فى الجزيرة العربية .	٦٢٨
وقعة مؤتة وانتصار البيزنطيين على المسلمين .	٦٢٩
فتوح مكة .	٦٣٠ .
حجة الوداع و وفاة النبي (ص)	٦٣٢
خلافة أبى بكر — حروب الردة وإخضاع الجزيرة العربية .	٦٣٢ — ٦٣٤
فتح العراق الجنوبى .	٦٣٣
وقعة أجنادين ضد البيزنطيين فى فلسطين .	٦٣٤
فتح دمشق وهزيمة الفرس فى القادسية .	٦٣٥
وقعة اليرموك وانهزام البيزنطيين .	٦٣٦
انهزام الفرس — مؤتمر الجابية .	٦٣٧
فتح مصر .	٦٣٩
» فارس .	٦٤٠
خلافة عثمان .	٦٤٤ — ٦٥٦
فتح طرابلس الغرب	٦٤٧

خروج معاوية ضد البيزنطيين في البحر . احتلال قبرص .	٦٤٩
اغتيال يزدجرد في خراسان .	٦٥١
جمع القرآن على يد عثمان .	٦٥٣
خلافة على .	٦٥٦ — ٦٦١
وقعة الجمل .	٦٥٦
» صفين .	٦٥٨
حادثة التحكيم .	٦٥٨
الدولة الأموية .	٦٦١ — ٧٥٠
خلافة معاوية .	٦٦١ — ٦٨٠
ولاية زياد بن أبيه على العراق .	٦٦٢ — ٦٧٥
فتح أفريقية على يد عقبة بن نافع .	٦٧٠
حصار القسطنطينية .	٦٧٤ — ٦٧٩
خلافة يزيد بن معاوية .	٦٨٠ — ٦٨٣
مقتل الحسين في كربلاء .	٦٨٠
خروج عبد الله بن الزبير في مكة .	٦٨٣ — ٦٩٢
الصراع بين الكلبية والقيسية في الشام .	٦٨٣
خلافة مروان بن الحكم .	٦٨٤ — ٦٨٥
خلافة عبد الملك بن مروان .	٦٨٥ — ٧٠٥
ثورة المختار في العراق .	٦٨٥ — ٦٨٧
مصرع مصعب بن الزبير وخضوع العراق لعبد الملك .	٦٩١

- ٦٩٢ الحجاج بن يوسف يفتح مكة .
- ٦٩٤ — ٧١١ ولاية الحجاج بن يوسف .
- ٧٠٥ — ٧١٥ خلافة الوليد بن عبد الملك .
- ٧١١ فتح الأندلس .
- ٧١١ — ٧١٢ غزو السند وما وراء النهر .
- ٧١٥ — ٧١٧ خلافة سليمان بن عبد الملك .
- ٧١٧ — ٧٢٠ » عمر بن عبد العزيز .
- ٧٢٠ — ٧٢٤ » يزيد بن عبد الملك .
- ٧٢٤ — ٧٤٣ » هشام بن عبد الملك .
- ٧٤١ الحروب ضد البيزنطيين في آسيا الصغرى .
- ٧٤٣ — ٧٤٤ خلافة الوليد بن يزيد .
- ٧٤٤ — ٧٥٠ » مروان الثاني .
- ٧٤٦ ثورات الكلبية في سوريا والحوارج في العراق ودعوة أبي مسلم للعباسية .
- ٧٥٠ اندحار مروان الثاني في معركة الزاب .
- ٧٥٠ — ٧٥٤ خلافة السفاح .
- ٧٥٤ — ٧٧٥ » أبي جعفر المنصور .
- ٧٦٧ وفاة أبي حنيفة .
- ٧٧٥ — ٧٨٥ خلافة المهدي والصراع ضد المانوية .
- ٧٧٨ — ٧٨٠ ثورة المقتنع في خراسان .

خلافة الهادي .	٧٨٥ — ٧٨٦
« هرون الرشيد .	٧٨٦ — ٨٠٩
نكبة البرامكة .	٨٠٣
خلافة الأمين .	٨٠٩ — ٨١٣
خلافة المأمون . المعتزلة واشتداد النزاع في مسألة خلق القرآن .	٨١٣ — ٨٣٣
استقلال طاهر بن الحسين في خراسان .	٨١٩
خلافة المعتصم . تغلب السنة على المعتزلة .	٨٣٣ — ٨٤٢
القضاء على بابل وحركته الشيوعية .	٨٣٧
خلافة الواثق .	٨٤٢ — ٧٤٧
خلافة المتوكل .	٨٤٧ — ٨٦١
إمارة عبد الرحمن الأول في الأندلس . النصارى والمولدون يثيرون الاضطرابات .	٨٥٢ — ٨٨٦
خلافة المنتصر .	٨٦١ — ٨٦٢
« المعتز .	٨٦٢ — ٨٦٦
« المهتدي .	٨٦٦ — ٨٦٩
ثورة الزنج في البصرة .	٨٦٩
الدولة الطولونية في مصر .	٨٦٨ — ٩٠٦
خلافة المعتمد .	٨٦٩ — ٨٩٢
يعقوب بن الليث الصفار يستولى على فارس .	٨٧١ — ٨٧٩
القضاء على ثورة الزنج .	٨٨٣

ظهور القرامطة في العراق .	٨٩٠
٨٩٢ — ٩٠٢ خلافة المعتضد .	
ظهور الزيدية في جنوبي بلاد العرب .	٩٠٠
٩٠٢ — ٩٠٨ خلافة المكتفي .	
٩٠٨ — ٩٣٢ خلافة المقتدر .	
عبيد الله المهدي و بدء الدولة الفاطمية .	٩١٠
وفاة المؤرخ الطبري .	٩٢٣
القرامطة يدخلون مكة ويحملون الحجر الأسود منها .	٩٢٨
٩٣٢ — ٩٣٤ خلافة الظاهر .	
٩٣٢ — ٩٤٠ » الراضى .	
٩٤٠ — ٩٤٣ » المتقى .	
٩٤٣ — ٩٤٦ المستكفي .	
٩٤٤ — ٩٦٨ سيف الدولة — حروبه ضد البيزنطيين .	
البويهيون في بغداد .	٩٤٥
جواهر يستولى على مصر بإسم الفاطميين .	٩٦٩
تأسيس القاهرة .	
٩٩٦ — ١٠٢١ خلافة الحاكم الفاطمي في مصر . ظهور الدعوة الدرزية .	
١٠٢٣ — ١٠٩١ بنو عباد في إشبيلية	
١٠٢٧ — ١٠٣١ هشام الثالث آخر الأمويين في قرطبة .	
١٠٣٧ طغرل بك السلجوقي وأخوه داود يستوليان على خراسان .	

- ١٠٥٥ دخول طغرل بك بغداد واستيلائه على أمور الخلافة من القائم .
- ١٠٦٢ قيام دولة المرابطين واستيلاء يوسف بن تاشفين على مراکش .
- ١٠٧٢—١٠٩٢ ملكشاه السلجوقي . وزير نظام الملك ، حجة الاسلام الغزالي (ت ١١١١) . عمر الخيام — الحريري .
- ١١٠٧—١٠٧٢ سليمان السلجوقي في أسية الصغرى .
- ١١٠٧—١٣٠٠ دولة السلاجقة من نسل سليمان في قونية .
- ١٠٨٣ ألفونس السادس ملك قشتالة يهزم المعتمد صاحب إشبيلية .
- ١٠٨٦ يوسف بن تاشفين يهزم النصارى في الزلاقة .
- ١٠٩٠ حملة يوسف بن تاشفين الثانية على الأندلس وعزله ملوك الطوائف .
- ١٠٩٩ الصليبيون يستولون على القدس .
- ١١٠٧—١١٣٠ محمد بن تومرت يؤسس دولة الموحدين .
- ١١٣٢—١١٦٣ عبد المؤمن بن علي خليفة ابن تومرت .
- ١١٣٧ انحلال دولة السلاجقة على أيدي الأتابك .
- ١١٥٤ نور الدين زنكي يستولى على دمشق .
- ١١٧١ صلاح الدين يقضى على الدولة الفاطمية .
- ١١٨٠—١٢٢٥ الناصر العباسي آخر الدهاة من بني العباس .
- ١١٨٧ وقعة حطين .
- ١١٩٣ فاوة صلاح الدين واقتسام أبنائه ملكه .
- ١٢٢٥ الموحدون يجلون عن الأندلس .
- ١٢٢٧ وفاة جنكيزخان .

- ١٢٣٢—١٤٩٢ بنو الأحمر في غرناطة .
- ١٢٤٨ لويس التاسع في دمياط .
- ١٢٥٤—١٥١٧ المماليك في مصر .
- ١٢٥٨ هولاء كو يستولى على بغداد .
- ١٢٦٠ عين جالوت وهزيمة المغول .
- ١٢٧٣ وفاة جلال الدين الرومي .
- ١٣٣٧ إخفاق أورخان في هجومه على بيزنطة .
- ١٣٦٩ تيمورلنك يخضع خراسان وما وراء النهر .
- ١٣٨٥—١٣٨٦ احتلال العثمانيين نيش وصوفيا .
- ١٣٨٩ معركة قوصوه .
- ١٣٨٩—١٤٠٢ بايزيد الأول .
- ١٣٩١—١٣٩٣ الأمراء السلاجقة يخضعون للعثمانيين .
- ١٤٠٥ وفاة تيمورلنك واقتسام امبراطوريته .
- ١٤٣٠ استيلاء العثمانيين على سالونيك .
- ١٤٣٣ يوحنا هنيادي يقهر العثمانيين .
- ١٤٥١—١٤٨١ محمد الثاني الفاتح .
- ١٤٥٣ فتح القسطنطينية .
- ١٤٦٨ إخضاع الألبانيين .
- ١٤٩٢ سقوط غرناطة ونهاية العرب في الأندلس .
- ١٤٩٧—١٥٠٣ بناء مسجد بايزيد في القسطنطينية .

اسماعيل الصفوى يجعل التشيع دين الدولة الفارسية .	١٥٠٢
سليم الأول العثمانى . اضطهاد الشيعة .	١٥١٢—١٥٢٠
انتصار سليم الأول على اسماعيل الصفوى .	١٥١٤
انتصار السلطان سليم على قانصوه الغورى .	١٥١٦
العثمانيون يفتحون مصر .	١٥١٧
سليمان القانونى .	١٥٢٠—١٥٦٦
فتح رودس .	١٥٢٢
استيلاء العثمانيين على تبريز وبغداد .	١٥٣٤
اخضاع المجر .	١٥٤٣
بناء جامع السلطان سليمان فى القسطنطينية .	١٥٥٠
وفاة السلطان سليمان .	١٥٦٦
سليم الثانى .	١٥٦٦—١٥٧٤
استيلاء العثمانيين على قبرص .	١٥٧٠
مراد الثالث .	١٥٧٤—١٥٩٥
الحرب ضد فارس . استيلاء العثمانيين على تفليس وقبرص .	١٥٧٧—١٥٨٥
انتصار الأسطول البندقى على العثمانيين قرب بادوس .	١٦٥١
الأسطول الفرنسى يقصف الجزائر وتونس .	١٦٦٥
العثمانيون يتخلون عن كييف للروس .	١٦٨١
العثمانيون يخسرون المجر .	١٦٨٣
النمساويون يستولون على بلغراد .	١٦٨٨

هزيمة العثمانيين في بنش .	١٦٨٩
العثمانيون يستردون بلغراد .	١٦٩٠
بطرس يستولى على آزوف .	١٦٩٦
هزيمة الأتراك .	١٦٩٧
هزيمة بطرس الأكبر عند نهر البروث .	١٧١١
انتصار العثمانيين على النمسا والروسيا .	١٧٣٥—١٧٣٩
ظهور محمد بن عبد الوهاب في الدرعية .	١٧٤٠
الوهاييون يستولون على الأحساء .	١٧٥٧
معاهدة صداقة بين العثمانيين وفرنسوا .	١٧٦١
الحرب ضد الروس وتدمير الأسطول العثماني .	١٧٧٠
عبد الحميد الأول .	١٧٧٣—١٧٨٩
الأمبراطورة كاترين تخضع تتر القرم .	١٧٨٣
نابليون في مصر .	١٧٨٩
سليم الثالث وأولى محاولات الإصلاح على النمط الفرنسي .	١٧٨٩—١٨٠٧
الوهاييون يغيرون على كركلا .	١٨٠١
الوهاييون يستولون على مكة والمدينة .	١٨٠٣—١٨٠٤
محمد علي باشا يفتك بالماليك .	١٨١١
استخلاص طوسون مكة والمدينة من أيدي الوهاييين .	١٨١٢
إبراهيم باشا يخضع الوهاييين .	١٨١٨
الثورة اليونانية على الدولة العثمانية .	١٨٢١—١٨٢٩

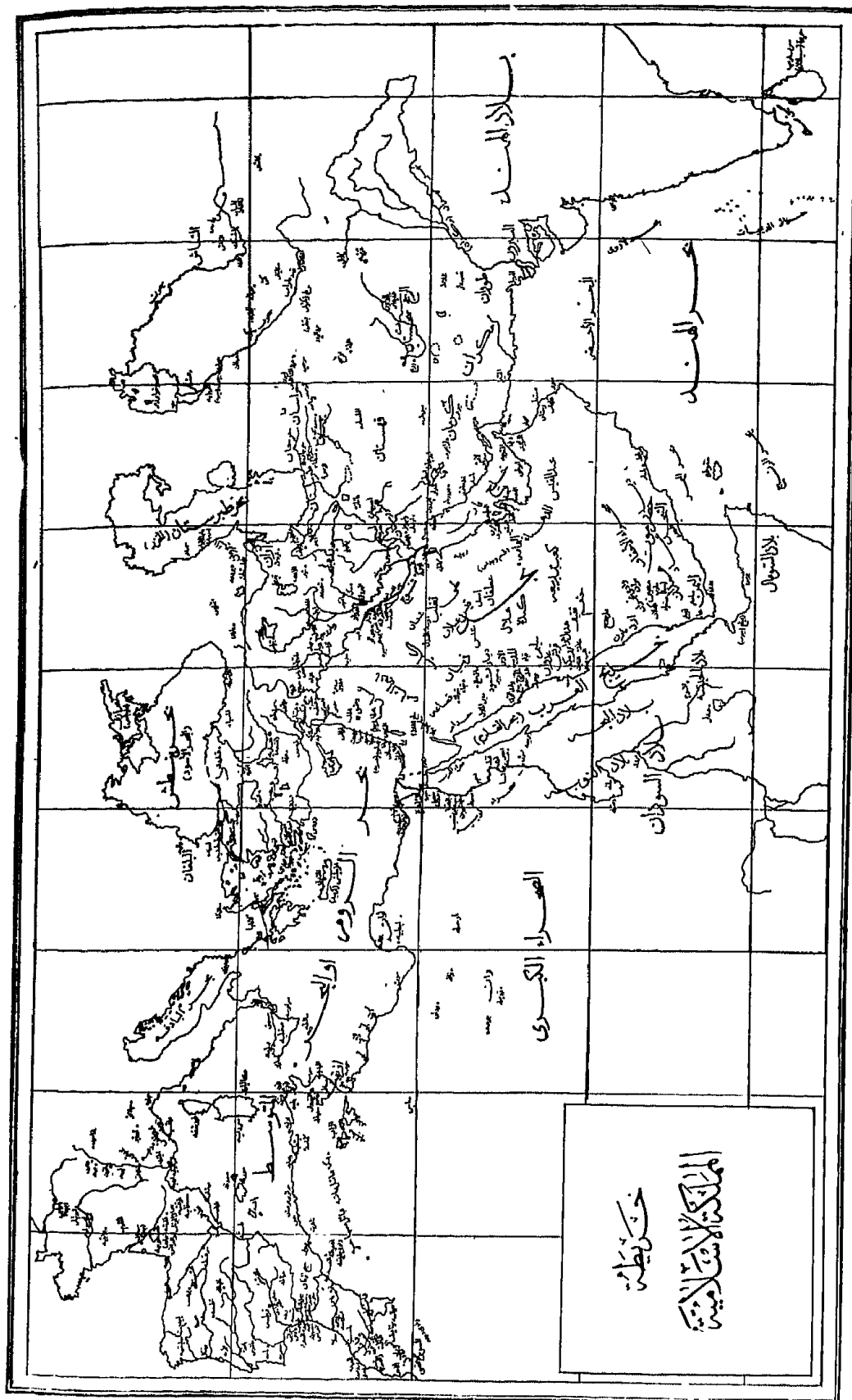
محمود الثانى يبيد الانكشارية .	١٨٢٦
احتلال فرنسا للجزائر .	١٨٣٠
إبراهيم باشا يهزم العثمانيين قرب قونية .	١٨٣٢
عبد القادر الجزائري يهزم الفرنسيين .	١٨٣٥
استرداد السلطان طرابلس الغرب .	١٨٣٦
الحرب العثمانية المصرية . هزيمة العثمانيين فى نصيبين .	١٨٣٩
عبد المجيد الأول .	١٨٣٩—١٨٦١
مؤتمر لندن لتسوية العلاقات العثمانية المصرية .	١٨٤٠
ثورة الدروز .	١٨٤٢
تأسيس السنوسية فى طرابلس .	١٨٤٣
وفاة محمد على .	١٨٤٨
إخراج المصريين من الحجاز .	١٨٤٩
حرب القرم .	١٨٥٣
سعيد باشا صاحب مصر .	١٨٥٤—١٨٦٣
بدء الأدب التركى الحديث .	١٨٥٦
بدء العمل فى فتح قناة السويس .	١٨٦٠
إسماعيل باشا يلقب بالخديوى ١٨٦٦ .	١٨٦٣—١٨٨٠
افتتاح ترعة السويس رسمياً .	١٨٦٩
ظهور المهدي فى السودان .	١٨٧٠
الحاكم المختلطة فى مصر .	١٨٥٧

مؤامرة مدحت باشا على السلطان عبد العزيز .	١٨٧٦
عبد الحميد الثانى .	١٨٧٦—١٩٠٩
إعلان الدستور .	١٨٧٦
مؤتمر برلين .	١٨٧٨
توفيق باشا خديو مصر .	١٨٨٠—١٨٩٢
فرنسا تحتل تونس . هزيمة عزابى .	١٨٨١
المهدى يخرج المصريين من السودان .	١٨٨٢
الهجوم على الخرطوم . مقتل غوردون .	١٨٨٥
كتشنر يقضى على المهديين فى أم درمان .	١٨٩٦
حادثة دنشواى . استقالة كرومر .	١٩٠٦
ثورة رجال تركيا الفتاة .	١٩٠٨
إيطاليا تستولى على طرابلس الغرب .	١٩١١—١٩١٢
حرب البلقان .	١٩١٢
الدولة العثمانية تحارب إلى جانب ألمانيا .	١٩١٤
حسين كامل سلطان مصر .	
الهجوم على ترعة السويس .	١٩١٥
البريطانيون يحتلون بغداد . فتح القدس .	١٩١٧
فؤاد سلطان مصر .	
فيصل ولورنس يحتلان دمشق . بدء حركة الوفد فى مصر .	١٩١٨
مصطفى كمال فى الأناضول . الميثاق الوطنى . الاضطرابات	١٩١٩
الوطنية فى مصر .	

- ١٩٢٠ . الخلفاء يعودون إلى الأستانة . بعثة ملنر في مصر . الفرنسيون يخرجون فيصل من سورية .
- ١٩٢١ . الغازي مصطفى كمال يهزم اليونانيين . نفي زغلول إلى سيشل . فيصل ملك العراق . ثورة عبد الكريم في الريف المراكشي . طرد اليونان من آسيا الصغرى . السلطان فؤاد يصبح ملك مصر . وضع الدستور الفلسطيني . إعلان الجمهورية التركية وإلغاء السلطنة . إلغاء الخلافة . فؤاد يحل البرلمان المصري . زغلول رئيس الوزراء . ابن سعود يستولى على الحجاز . الثورة السورية . زغلول يعود إلى رئاسة الوزارة . الجمهورية اللبنانية . المؤتمر الإسلامي العام في مكة . القضاء على ثورة عبد الكريم . وفاة زغلول . استبدال الأحرف اللاتينية بالعربية في تركيا . الاضطرابات في فلسطين .

- ١٩٣٠ تحديد عدد المساجد في تركيا .
- ١٩٣٢ فتنة الأشوريين في العراق .
- ١٩٣٣ الاضطرابات في فلسطين .
- وفاة الملك فيصل .
- غازي ملك العراق .
- ١٩٣٤ الحرب بين ابن سعود والإمام يحيى .
- ١٩٣٥ اشتداد المقاومة العربية في فلسطين .
- تحرير المرأة في إيران .
- ١٩٣٦ عقد المعاهدة البريطانية المصرية .
- وفاة الملك فؤاد .
- فاروق ملك مصر .
- اللجنة الملكية في فلسطين .
- الانقلاب العراقي على يد بكير صدقي .
- ١٩٣٧ تركية تنزع لواء الأسكندرونة .
- وزارة محمد محمود باشا في مصر .
- هرب المفتي من فلسطين .
- ١٩٣٨ وفاة أتاتورك .
- عصمت إينونو يخلفه في رئاسة الجمهورية .
- حل البرلمان المصري .
- اللجنة الملكية في فلسطين تقدم أول مشروع للتنظيم .

- مؤتمر الدائرة المستديرة في لندن لدرس القضية الفلسطينية .
- الكتاب الأبيض .
- وفاة الملك غازي .
- فيصل الثاني ملك العراق .



الدول الإسلامية في عهد الخلافة من سنة ٦٦١ إلى سنة ١٢٥٨
معهمة عن خريطة وضعها الأستاذ تالي لين بول

